إلى مدينة النصر

بقلم محمود تيمور

لست اعنى مدينة « بورسعيد » ، مدينة النصر فى يومنا الحاضر ، ولكنى اعنى نظيرتها فى الامس غير القريب .

وسواء اسميناها « مدينة النصر » ، ام قلنا « مدينة المنصورة » ، فان حروف اسمها تحمل معنى الفوز والكسب والغلبة ، معنى الانتصار .

انى لاحس ، وانا اتأمل هذا الاسم ان ضوءا ساطعا ينبعث منه ، لا يخبو على الايام . انه ضوء التاريخ الذى اوقده الأهلون من سكان تلك البقعة الطيبة فى مواقعهم المجيدة مع المغيرين الدخلاء .

نحن فى زيارة لمدينة النصر ... مدينة السؤدد والعزة والكرامة ، نقصد اليها مستجيبين لدعوة كريمة وجهها الينا نخبة من الأصفياء الاحرار ، لنشاركهم الاحتفاء بذكرى زميل من اعلام الفكر والرأى والتجديد ، حمل لواء العلم ، متقدما به الصفوف ، وبشر بمذاهب عصرية فى نظم الحكم والاجتماع ، وكسب فى النهاية نصرا مؤزرا فى ميادين الثقافة الاصيلة المستنيرة عن جدارة واستحقاق .

سافرنا لنحتفل فى مدينة النصر بنصر آخر فى ميدان المعرفة الانسانية ، يبارى كسب المعارك فى حومة الجهاد الوطنى .

سنشارك فى احياء ذكرى الاستاذ « اسماعيل مظهر » المؤلف والمترجم والباحث والاديب .

واحتوتنا السيارة ، رفقة ممن كانت لهم بصاحب الذكرى صلة زمالة ، وآصرة مودة ، وجعلت تطوى بنا رصيف النيل من شاطىء « الجزيرة » بالقاهرة ، مخلفين وراءنا جسر ٢٣ يولية الذى لم يعد يحمل من مظاهر التجديد والانبعاث الا رقم التاريخ الذى ارتبطت به فى عهدنا الحاضر حركة التجديد والانبعاث .

ما أحرانا ان نلقب هذا الجسر : جسر ما قبل التاريخ ... اكاد اتمثله ملقيا بهيكله المضعضع على النهر ، كأنه « دينا صور » هائل من فصيلة الحيوانات المنقرضة ، قد جف دمه ،

وتناثر عنه اللحم والجلد ، ولم تبق منه الا اضلع من عظام نخرة ، توشك ان يدركها التفتت والبلى .

مالنا ولهذا « الدينا صور » الهرم ، وامام أعيننا يتجلى على الرصيف اشراق التطور والتحضر ... هذه « شبرا الخيمة » تستقبلنا بساحاتها الرحيبة ، وبقصرها الذى عمرته كلية للزراعة ، وبما قام على حفاف المزارع من ابنية شعبية ، ومن منشآت للعلاج .

ثم هلت علينا « محطة شبرا » ، وكدت اكذب عينى ... اهذه حقا محطة شبرا التى كنا نلقاها فى بواكير صبانا عجوزا شمطاء كانها ساحرة من ساحرات قصص الاطفال ؟ لقد اخلت مكانها لمبنى رشيق ، ما أشبهه بفاتنة عصرية تتألق صورتها على غلاف مجلة تقدم للقراء احدث مبتكرات الازياء !

واقبلنا على « قليوب » ... وقد زحف عليها التقدم الصناعى ، فأحال جانبا منها الى مصانع ومؤسسات وابنية شاهقة للسكنى .

وتابعنا المسير فى الطريق السريع ، فأثارت انتباهى ظاهرتان : الاولى نشاط التشجير ، والأخرى قيام محطات انتظار لركاب السيارات العامة ، وفى هذه وتلك ما ينفى الوحشة والملل من الطرق الطويلة ، ويبعث فيها الحيوية والايناس .

وكانت الحقول الخضر تحيط بنا على مرمى النظر ، فننعم بمرآها البهيج ، واذا الدليل يرفع عقيرته صائحا :

نحن مقبلون على « سنديون » ... فكونوا على حذر !

ورميت اليه ببصرى استطلع ، فواجهنى محياه الجهم ، وهو يواصل قوله بنظرات حداد :

أنسيتم أمرها ؟ انها « شيكاغو » مصر ، او « دالاس » العالم العربى ... كما يقال ! ... لقد اختلط بأهلها نفر من قطاع الطرق ، فأشاعوا حولها ما اشاعوا من ذعر واضطراب .

ولم يكد يفرغ من قوله ، حتى كنا امام محطة « سنديون » ، وهى مشيدة على طراز امريكى محدث ، فكأنها اقتلعت بجذورها من مكانها فى جنوب « امريكا » وغرست هنا فى مقرها الجديد ، حاملة معها روح موطنها الاول : روح العتو والجراة والاقتحام !

لسنا ندرى حقيقة ما يشاع ، ولكن الشائعات على كل حال مادة للتسلية ، ومثار للتفكه ، ولا بأس على اهل « سنديون » مما يعابثهم به أهل الثرثرة والفضول !

وتواردت حيال أنظارنا الجسور الجدد ، قافزة أو هابطة ، وهى من ثمرات الحضارة الصناعية الآلية ، تضفى على فتنة الطبيعة سحر العصر الحديث .

وبدت اقفاص البرتقال تزحم اطراف الطريق ، وبائعاته الحسان يتسابقن فى عرض تلك الثمار الذهبية التى يفوح منها أريج زكى ، وترامت على الجانبين بساتين زاهرة تخلب الأنظار برونقها البهى .

واخترقنا منطقة « مشتهر » ، حيث يزهو معهدها الزراعى : أول معهد للزراعة عرفه الريف ، وكانت

قطعان الابقار والجواميس ترتع فى المراعى ، وهى تبعث الينا بنبرات بشر وترحيب .

وتراءت لنا « بنها » ، أو بالأحرى « بنها العسل » ، وسرعان ما انحرف بنا الطريق عنها ، فلم نجد للعسل مذاقا ، ولا شممنا له شذى ... والطريق الذى مضت فيه السيارة هو طريق «ميت غمر » المحاذى « لبحر شبين » ، وانه لبحر شاعرى ، يذكى الخيال ، ويفسح له مجال انطلاق ، وان ضفتيه لتزخران بالغيد الملاح اللواتى يرتدنه ، ويخضن ماءه الضحضاح ، ليملأن منه جرارهن ، كاشفات عن سيقان بضة تلوح تحت الشفوف ، وان كن ملثمات الوجوه ، فكانهن اخيلة رفافة من عالم الرؤى والاحلام ...

وغص الطريق بشمر البرتقال ، ونحن مقبلون على « كفر شكر » ، وما أولاه بان يدعى « كفر البرتقال » ! وكانت تصافح اعيننا أبراج الحمام ، عالية الهامات بقدودها الهيفاء .

ولما بدت لنا « طنامل » مال على الدليل يقول :

ان ما اصابته « طنامل » من شهرة وبعد صيت يعود الى امرين هامين : الاول أنها موطن « دميانة » بطلة قصة « ابن طولون » التى كتبها « جورجى زيدان » منذ عشرات السنين ، ومن العجيب ان تغدو « دميانة » — وهى بطلة حب ومغامرة — قديسة لها فى قلوب اخواننا الاقباط كل اجلال وتقدير ، وان لها لصورا تتداولها الناس بيعا وشراء كمريم البتول ... والأمر الآخر ان « طنامل » تعنى بتربية العجول عناية ظاهرة ، فهى سوق لبيع اللحوم وتصديرها الى مناطق شتى .

وما ان اتم دليلنا قوله ، حتى برز لنا على جانبى الطريق صفان من العجول الذبيحة المعلقة فى حوانيت ريفية من حوانيت الهواء الطلق ... اعلانا حيا للشهرة الضافية التى احرزتها البلدة فى ميدان الذبح والسلخ !

وجزنا بأرض المذبحة ، وطالعنى شبح عجل يتواثب حول امه ، وملء اوصاله فرحة ونشطة ومراح ، فتأملته مليا والحسرة فى جوانحى : انه يجهل ما يخبئه له القدر من مفاجآت . يلهو الساعة مطمئنا فى حمى امه الرءوم ، فاذا آب من جولته انقضت عليه سكين الجلاد ، فهوى متخبطا فى دمه ، وامه تنظر اليه كأنه يلعب حولها ، بيد انه يلعب فى هذه المرة لعبته الاخيرة ، يقوم بعرضها على مسرح الوجود ، وهو يؤدى له حق الوداع ... ليس ثمة من جديد أيتها الأم الثكلى ، كلنا مثل ابنك الذبيح ، نحيا لاهين مستبشرين بالحياة ، والقدر منا بمرصد ، وكم اهوى بسكينه الماضية على رقابنا ، ونحن فى غفلة ساهون ، فنتساقط كما تتساقط هذه المواليد الصغار فى عالم الحيوان !

وكان « بحر شبين » لا يزال يصاحبنا ، وهو تارة يضمر ويهزل ، وطورا يتضخم وينتفخ ، وقوارب التعدية العراض لا تكف عن الحركة على متن الماء .

ورأينا على البعد « ميت غمر » بمصنعها الضخم الجديد : مصنع النسيج ، والفيتنى على الفور اردد دون وعى :

سائلوا الليل عنهمو والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى

كيف اضحى وليدهم فقد الام
وكيف اصطلى مع القوم نارا

بيتان من قصيدة لشاعر النيل « حافظ ابراهيم » سجل بهما حريق المدينة منذ عشرات الأعوام ، فجعلت اسائل نفسى : أيهما اعظم وابقى ؟ قصيدة « حافظ » أم مدينة « ميت غمر » ؟ ... سؤال أطرحه على سمع الزمان ، والجواب الصائب فى ضمير الغيب ، سوف يعرفه اخلافنا من اجيال الغد البعيد !

وظهرت مشارف « المنصورة » حافلة بالوحدات الصحية ودور الحضانة ومصنع الخشب الحبيبى ومعمل اللبن المبستر ، وما الى ذلك من المنشآت العامة ... وثمة حديقة فياحة ذات أفنان وازاهير غاية فى التنسيق والابداع ، تحتضن ابنية رشيقة كأنها بيوت صفار محدودة تعلوها قباب ، فهممت اقول :

ما اسعد سكان هذه المثابة الجديدة، انها حقا مدينة الأحلام !

فهمس الدليل فى اذنى :

انها ليست مدينة الأحلام ، بل مدينة الحقيقة الكبرى ... مدينة الموت ... هذه مقابر لاحدى طوائف المسيحية .

فأجبته ، وعينى عالقة بتلك المثابة :

ان من بين الموتى لمن ينعم بمرقد وثير هنىء يهفو الى مثله الاحياء !

وتلقتنا بقعة وصفها الدليل بأنها «بوابة المنصورة » ، فاذا هى ذات سحنة طحنتها السنون ، واذا هى غارقة فى أوهام الماضى وأوضاعه ، قرية من قرى العصور الوسطى مازالت سوقها الاثرية قائمة ، كأنها متحف لا يحوى الا أطلال آثار .

وما كان أشد عجبى حين سمعت من الدليل ان هذه هى « سندوب » ، فلقد طالما اقترن هذا الاسم عندى بنخبة من اعلام الفكر والادب فى ذخائر كتب العرب ، اذ كان صديقنا القديم الاستاذ « حسن السندوبى » ينشر فيما ينشر بيان « الجاحظ » وشعر «المراقسة » وما الى ذلك من نفائس الأدب ، فمظم فى خيالى اسم الموطن الذى نسب اليه أديبنا المحقق ، وصدق المثل : سماعك بالمعيدى — أو بموطن السندوبى — خير من ان تراه !

وجاوزنا البلدة مسرعين ، فاحتوانا « الشارع العباسى » مدخل «المنصورة» الاصيل ، وانه لحى شعبى صميم ، فيه مشابه من منطقة «الحسين» و «السكة الجديدة» بالقاهرة ... وواصلنا السير ، وظلمة الليل تنسدل رويدا ، فانبرت لها سهام النور تبدد غواشيها الثقال .

وبلغنا الفندق ، فأمضينا فيه قليلا نستجم ، وخرجنا الى « جمعية الشبان المسلمين » : بيت القصيد فى هذه الزيارة ... دار عامرة ، وحشد من العلماء والادباء ، جمعت بينهم فضيلة الوفاء لمن أسدى الى العلم والأدب يدا بيضاء . وشد ما كان الدين منارا للفضائل ومكارم الأخلاق ، وشد ما كان داعيا الى العلم والتفكير فى ملكوت الله .

وفى بكرة الصباح طوفنا بالمدينة ، نستطلع ونتعرف : رصيف ممدود على النيل ، حافل بالمنارة والاندية ، يوازيه على الشاطىء الآخر نظير له فى بلدة « طلخا » ، وكلاهما يتنافسان فى مجال التحضر ، وهما يتواصلان بجسرين عظيمين ، وما أشبه البلدين بتوامين يربطهما هذان الجسران ، كأنهما شريانان يتبادلان بهما حركة الحياة ، ولا يملكان الفكاك .

والمنشآت العمرانية فى « المنصورة » تنمو سراعا فى قوة وجبروت : الجامعة تتخلق ، والسوق العظيمة على وشك أن تستقبل المتاجر والرواد ، وقصر الثقافة يتعالى صرحه على الشاطىء ، الى غير ذلك مما يشعر بالاستجابة لروح التطور فى المجتمع البناء .

وكنا ، ونحن نجوب المدينة ، نحس الذكريات المجيدة ترافقنا فى كل خطوة نخطوها ، أنت مع « الصالح ايوب » و « الملك الكامل » و « شجرة الدر » و « ابن لقمان » وغيرهم من شخصيات التاريخ الوضىء لهذا البلد الطيب ، فالشوارع والمؤسسات والمعاهد والمساجد والأسواق تنطق بأسماء هؤلاء الأبطال الغابرين الأحياء !

وحين حسبت أنا بلغنا غاية الشوط ، قلت للدليل :

آن لنا ان نرجع .

فالتمعت نظراته قائلا :

بقى الأهم من كل ما شهدت ... الا تلم بدار « ابن لقمان » ؟

فقلت : بنا اليها ...

ووصلنا .. وأول ما استقبلنا « مسجد موافى » ، وهو مبنى له خطره فى عالم الآثار ، الا انه يدين بشهرته الكبرى لدار « ابن لقمان » ، فهو يلاصقها ، وكأنه بابها ، أو كأنه لسانها الناطق ، وصوتها الجهير ، يعلن فى مواقيت الصلوات الخمس من كل يوم نداء التاريخ الخالد :

الله اكبر ... هنا قضى الملك « لويس التاسع » فترة اسره ، بعد ان دحر المصريون جيشه ، وهو يحاول الغزو والعدوان ، فى منتصف القرن السابع الهجرى ... الله اكبر !

واتجهنا الى الدار النبيلة العظيمة ... ياالله ! ... كم من مظهر ضئيل تكاد تقتحمه العيون ، له من اصالة المخبر ، ونفاسة الجوهر ، ما يمنحه سر الخلود ... تلك دار متواضعة بالغة التواضع ، فى صدرها بوابة متطامنة عليها طابع الدعة والسذاجة ، وعلى جبهتها لوح رخامى خط فيه تعريف وجيز بالدار .

ودخلناها .. تشيع فى نفوسنا منها فرحة النصر ، ونحس لخطانا على ارضها خفق الطبول ... وكاننا نتابع زحف الجحافل من أبطال المدينة فى عصر المعركة ... اننا نسير فى ركاب الموكب التاريخى ، نهتف للسلف المجيد هتاف الاعزاز والاعتداد بما نال من ظفر .
واذا كنا قد حرمنا ان يكون لنا فضل المشاركة فى ذلك الجهاد الوطنى ، فلا يفوتنا اليوم ان نستحضر فى اذهاننا ركب التاريخ ، مشيدين بذكراه ، سائرين على هداه ، ونحن نواصل

الكفاح من أجل وطننا الفتى ، لنكسب له النصر تلو النصر فى عهدنا الجديد ..

وهبطنا الدرج ، فاذا نحن فى ممر صفير ، تحلى جدرانه نبذ تنقل اليك لمحات من صفحات التاريخ فى وصف الحملة الغاشمة على المدينة ، وصور تذكارية لافتتاح الرئيس « جمال عبد الناصر » للدار ، ولا غرو أن نرى قائد الانتصار على العدوان الجديد فى مدينة « بورسعيد » يحيى ذكريات الانتصار على العدوان القديم فى مدينة المنصورة » .

وانتقلنا الى صحن الدار ، فاسلمنا الى غرفة علوية تزينها شرفة ، تقبع تحتها حجرة أشبه بحاصل للدواب ، فى الفرفة العليا حبس « لويس التاسع » وفى الحجرة السفلى حبست حاشيته واحراسه .

وخرجنا الى قاعة فسيحة يسبح فيها ضوء النهار ، هى معرض حافل بذخائر فنية عصرية او قديمة ، متصلة أوثق اتصال بالفزو والانتصار ... وهذا المعرض يتحدث اليك بلغة الرسوم المجسمة ، والتماثيل والألواح والمخلفات ، حديثا شافيا يغنيك عن دروس مطولة وجولات بعيدة فيما كتب الباحثون والمؤرخون .

وهنالك تطالعك رسائل تبودلت بين الغزاة الدخلاء وحماة الوطن الأبطال ، فكأنك تفضها بنفسك ، وتكشف فيها عما امتلأت به رءوس المعتدين من صلف وعنجهية وكبرياء ، وما عمرت قلوب الحماة المدافعين من عزة وكرامة واباء .

وتنقل بصرك بين الرسوم والتماثيل والألواح والمخلفات ، فيقرع سمعك صوت النفير ، وصليل السيوف ، وسنابك الخيل ، وهرير الأنفاس ، وتتمثل نفسك على مرقبة من المعارك الطاحنة ، تشهدها بين جزر ومد ، واقتحام وانهزام ، ولا تلبث أن تخوض غمارها ، شاهرا سيفك ، مرخصا فى سبيل الوطن حياتك ، ثم تجدك بين حشود الأبطال المنتصرين يسوقون الملك المعتدى أسيرا فى موكب المهانة والاذلال، ينتهى به المطاف الى المحبس ليقضى فيه ما كتب له من ايام ، وترى من بعد ذلك جمعا من الرسل أقبلوا على قاضى القضاة ، يستنقذون مليكهم بما فرض عليهم من فدية ، وهم يجرون أذيال الخزى والعار .

وتأهبنا لمغادرة دار النصر ، فى مدينة النصر ... وقد أحاطت بنا أطياف نورانية ، من آفاق التاريخ البعيد ، كأنها تحرس المدينة الخالدة ، وتبارك وثبتها مع الوطن كله فى الحاضر المشرق المشهود ، وتحيى تطلعها الى الغد الباهر المنشود .

أحلام الفجر



بقلم ابراهيم المصري

كنت اذ ذاك فى نحو الرابعة عشرة من عمرى ، وكنت مشغوفا بمطالعة قصص«اللص الشريف» و «روكامبول» و « ابن روكامبول » كما كنت مندفعا بغريزتى وتحت تأثير هذه المطالعات الى محاولة تاليف القصص ...

وكان والدى يكره اتجاهى هذا ، ويشتد فى صرفى عنه ، ويضربنى ضربا مبرحا كلما باغتنى وانا اقرا الروايات او اكتبها ، ولا يفتأ يردد على مسامعى ان كتابة القصص لا يمكن ان تطعم صاحبها ، وان الادب مهنة الصعاليك وان حظ الاديب هو ان يعيش متسولا ويموت مهتوك الكرامة يائسا مغمورا .

وكنت انا لفرط ولعى بهوايتى ، وتحليقى الدائم فى عالم الخيال ، واعتدادى بنفسى وشخصيتى وعظمة اتجاهى ، انظر الى والدى من عليائى ، واستخف به ، واتلقى لطماته فى صمت واحتمال وانا ارثى لحاله ، واغافله ، وامعن فى الاستسلام لنزعتى ...

بيد انعينه الساهرة كانت تراقبنى، وتحوم حولى ، وتتحين الفرص كى تضبطنى متلبسا بالجريمةوتبطش بى . فكنت افر من بيتنا ، وأهرع الى حانوت المعلم «مرسى» الشربتلى الكائن بجوار حارتنا ، واقبع فى ركن من الحانوت ، واظل اقرا واكتب ، والسمكرية

والحدادون والنجارون والباعة السريحة يحيطون بى ، ويترشفون اقداح الشربات المثلجة وهم يتغامزون على، ويرشقوننى بنظرات دهشة مستغربة فيها مزيج من السخرية وشىء غير قليل من الاعجاب .

وحدث ذات مساء ، وأنا فى الحانوت مستغرق فى كتابة رواية غرامية ومنهمك فى حبك وقائعها التى بهرتنى، ان دخل والدى الحانوت وباغتنى ، ثم انقض على ، واختطف الرواية منى ، ومزقها ، وطفق يضربنى ويركلنى امام النجارين والحدادين والسمكرية ، وهو يجذبنى من ذراعى ويجرنى الى البيت جرا ، ويسبنى هادرا ويلعننى .

وكبر على ان أضرب واهان امام العمال والباعة واطفال الحى فثار ثائرى ، واستجمعت قواى ، وتملصت من والدى ، ومضيت اركض وفى نيتى الا اعود الى بيتنا ، وان الوذ بمنزل خالى الذى كنت احبه وكان يحبنى . ولكن والدى لحق على الفور بى ، واطبق على ، ثم تمكن منى ، وساقنى الى البيت سوقا وهو يبتسم ابتسامة باردة متوعدة ارتعدت لها فرائصى .

ولم نكد ندخل البيت حتى أسرع والدى وأوصد بابه بالمفتاح ، ثم دس المفتاح فى جيب سترته ثم اندفع الى الشرفة وفك حبلا من حبال الغسيل . فادركت أنا مراده وجمد الدم فى عروقى . أما والدتى فتعلقت به مسترحمة مولولة وهى تطوقنى بذراعها لتحمينى . ولكنه زجرها فى عنف واقصاها ثم نضا عنه سترته ، وأمرنى بأن اجلس على الأرض وأن اخلع حذائى وجوربى . فامتثلت وانا ارتجف . فهجم بغتة على ، وربط بالحبل قدمى العاريتين ثم عقد الحبل فى احد اعمدة السرير ثم انحنى وفك الحزام الجلدى الاسود الذى كان يتمنطق به ، ثم رفع ذراعه الباطشة ، وانهال بالحزام ضربا على قدمى . فتلويت أنا من فرط الألم وصرخت :

ـ فى عرضك يابا ... فى طولك ... حرمت ... حرمت خلاص ...

ولكنه ظل يضرب فى لذة وشماتة وعناد . فتعالت صيحات امى ، واحسست انا كأن لفحات من نار تحرق قدمى وتسلخ جلدى . فارتفع ايضا صراخى ، واختلط بتوسلى ونحيبى ، فازداد والدى حنقا على وامعانا فى ضربى والتنكيل بى .

وعندئذ سمعنا دقا عنيفا متعاقبا على الباب الخارجى ، وصوتا متهافتا يقول :

ـ افتحو ... ماتفتحو امال ...

فتنفست أمى الصعداء ، واستدارت واثبة ، وغافلت ابى وهو يضربنى ، واستلت المفتاح من جيب سترته ،

وأسرعت وفتحت الباب . فدخلت جارتنا الشابة الحسناء « الست بهية» زوجة « الحاج طلبة » صاحب الطابونة الكائنة فى اقصى حينا . دخلت ملهوفة ومبهوتة ومذعورة . فتنبهت انا لوجودها ،واشتد ذلى وحنقى وعذابى. خجلت كل الخجل من وضعى الشائن ومنظرى المزرى . فنصبت بدنى جاهدا ،وطفقت اغطى بأطراف جلابيتى

بطنى المكشوفة وعورتى وساقى العاريتين . اما الست بهية فلم تكد تبصر والدى يلوح أيضا بحزامه الجلدى ، وترانى منطرحا على الأرض اتلوى وابكى ، وقدماى مرفوعتان ومغلولتان الى السرير ، حتى تراجعت مستنكرة ومستهولة ، وضربت صدرها بقبضتها وصاحت :

ــ يا نضرى .. الواد حيسورق .. حرام عليكو يا اخواتى ... بس يا عم سليمان .. بس .. كفاية كده ... علشان خاطرى ... امسح العيبة دى فى وشى انا يا عم سليمان ...

وانحنت على والدى ، وربتت بيدها الرخصة على كتفه ، وقالت فى صوت ناعم متوسل عذب :

ــ ماليش خاطر عندك يا عم سليمان ؟ ...

فارخى والدى ذراعه ، وتطلع الى المراة ، وقال وهو يفتل شاربه :

ــ علشانك انت بس ... لكن والله العظيم لو عادها مرة تانية، حاموته !.. اسيح دمه !.. قال عايز يطلع ادباتى وجرنالجى قال ! .. عايز يعرنى ويبهدلنى ، ويعيش ويموت شحات !..

وفك الحبل وصرخ :

ــ فز .. قوم .. قوم خش اودتك. وذاكر دروسك حالا ... ياللا ...

فتحاملت على نفسى وانا الهث ، واشحت بوجهى كى لا يقع بصر الست بهية على . ولكنها دنت منى، وطوقتنى بذراعها ، وقالت وهى تمسح بيدها على شعرى :

ــ ابقى اسمع كلام أبوك ياحبيبى.. دا قلبه عليك ...

فجفت دموعى ونظرت اليها . نظرت الى الست بهية من طرف خفى وراعنى منظرها . كانت معصوبة الراس بمنديل احمر ، تتهدل أطرافه المرصعة بحبات الترتر وتتراقص على الدائرة المكشوفة من جبينها الناصع البياض . وكانت بيضاء البشرة بلون الحليب ، واسعة العينين ، مقرونة الحاجبين ، ناهدة الصدر ، ذات نظرة فاترة فى طيبة وحنان ، وحركة رخوة فى عزة ودلال ، لا تفتأ تبتسم ابتسامة لينة رقيقة وهى ترفع ذراعها البضة ، وترد عن عينيها السوداوين الواسعتين حبات الترتر بأصابعها المخضبة بالحناء ...

لم ارها أبدا فى مثل هذا الحسن الساحر الحنون . فمضيت بالرغم منى أحدق فيها . فاستغربت هى نظرتى الطويلة وغضت من بصرها . فلبثت اتأملها واجما ولم اتحرك . فعيل صبر والدى وصاح يستعجلنى :

ــ مستنى ايه ؟ ... خش اودتك قوام وذاكر ...

فاطرقت وحولت وجهى ، ومشيت متثاقلا فى اتجاه غرفتى ، بينما كانت أمى تشكر الست بهية ، وتعانقها ، وتغمرها بالقبلات ، وتلتمس اليها أن تمكث لحظة اخرى ريثما تعد لها فنجانا من القهوة او قدحا من شراب التمرهندى ...

***

ولست أدرى ما الذى أصابنى بعد ذلك اليوم . نسيت اللص الشريف ،

وروكامبول ، وابن روكامبول ، وتأليف الروايات ، ولم اعد افكر الا فى الست بهية التى عطفت على وانقذتنى ...

ولم اكن قد اهتممت بها من قبل ، او امعنت النظر فيها ، أو تنبهت الى جمالها الفتان . فلما خفت لنجدتى من دون الجيران جميعا ، تالق وجودها فجاة امامى ، وخيل الى انى اراها لاول مرة ، وانها سكنت عمارتنا بالأمس فقط ، وانها امراة رائعة وعظيمة لم اشهد لها بين كل من رايت من النساء نظيرا ! ...

وانجذبت اليها انجذابا طاغيا مستبدا انهكنى واضنانى . فبت احلم بها فى نومى ، وارى طيفها فى يقظتى ، واسمع صوتها العذب الحنون يخالس حفيف كتبى واوراقى . ثم اتمثلها بغتة وهى تمسح بيدها البضة على شعرى ، فاغمض عينى مترنحا من فرط نشوتى ، واحس كأن دمى كله يغلى فى عروقى ويوشك ان يتصاعد الى راسى ويصرعنى ...

ولم استطع ان أعيش دون أن أراها . وكانت تسكن فى الطابق الاول من عمارتنا ونحن فى الطابق الثانى . فكنت أجمع رفاقى وأسوقهم الى اللعب تحت نافذتها ، عسى ان يثيرها ضجيجهم فتطل من النافذة ولو لحظة ...

وكنت اكمن لها فى بير السلم ساعات ، وانتظر فى الظلمة وانا اتحرق ، وملء نفسى الأمل فى ان تخرج لزيارة ، او تستقبل ضيفا ، او تنادى بائعا ، فأجتلى طلعتها الساحرة خلسة ثم امضى ...

وكنت أزين لأمى زيارتها ، وأوعز الى ابى ان يوثق عرى الصداقة بينه وبين الحاج طلبة زوجها ، واغلو واسرف فى مجاملة هذا الزوج الكهل الطيب الصموت البليد ، الى حد انى كنت استوقفه فى الشارع وهو يحمل بطيخة أو شمامة وأبالغ فى تحيته واحترامه ، واستأذنه فى حمل الفاكهة الثقيلة عنه ، والذهاب بها مسرعا الى بيته ، كى ارى امرأته الجميلة فترة واسعد ...

ولما كنت ارى الست بهية فى خلوة سانحة عابرة ، كان يخفق قلبى ، وينعقد لسانى ، ويتصبب العرق من جبينى ، واقف أمامها جامدا ذاهلا مخبلا ، كتلميذ خانته ذاكرته ساعة الامتحان ، ونسى الدرس الذى كان قد استظهره وكان يعتقد انه قد وعى كل عبارة فيه .

ولبثت هكذا اياما طويلة احوم حولها واتعقبها ، واشعر بعجزى المطلق عن الاهتداء الى طريقة مامونة تمكننى من التقرب اليها والاتصال الوثيق بها .

وساورتنى عوامل الحيرة والقلق زمنا . فتعذبت وكدت اياس . ولكنى اهتديت فجأة وطربت ... فكرت فى ابنها الوحيد ، فى ابنها البالغ من العمر سبع سنوات ، فى طفلها المدلل الكسول الغبى « شعبان » ، الذى يتلقى العلم فى مدرستى نفسها ، والذى اشتهر بضعفه الشائن فى المطالعة والاملاء والحساب . فآليت على نفسى ان اتودد اليه ، وان اصادقه ، وان اعرب لأمه عن استعدادى لاعطائه بعض الدروس الخاصة فى مختلف المواد المستعصية عليه .

وتشجعت بالفعل وطرقت باب

الحاج طلبة . ولما كانت الست بهيــة تعبد ابنها الوحيد وتريد أن ترفع به راسها فى الحارة كلها ، فقــد ابتهجت بما عرضت عليها أيما ابتهاج ، وانبات به زوجها الذى أقرها عليه . ثم زارتنا فى اليوم نفسه ، وشــكرتنى امام امى المزهوة وابى الفخور داعية لى بطول العمر ، ثم بعثت بابنها فى مساء اليوم التالى ليتلقى درسه الأول فى منزلى . .

وبهت انا واغتظت لاخفاق تدبيرى . ولكن الغيظ اوحى الى فكرة جديدة . فلم اتردد واحتلت جهدى وتخابثت ، وسلطت اخوتى على شعبان . فتحرش به ثلاثتهم ، وعيروه بكســله ، وطفق اصـــــفرهم يختطف اقلامه وكتبه . فتضارب الأربعة . فضاقت امى ذرعا بنـــا . فطيبت انا خاطرها واسرعت واصطحبت الصبى الى داره ، وقلت لوالده ان ابنه شديد الضعف فى مادة الحســاب ، وان اخوتى يعاكسونه ، وان من الخير له أن يتلقى الدروس فى بيته هو وفى ســـاعات فراغى ... فقطب الحاج طلبة حاجبيه لحظة . ولــكنه عندما تأمل قامتى الضــئيلة وبنطلونى القصير ، هز كتفيه مطمئنا وســلم . اما الست بهية فقد اعتبــرت تصرفى اخلاصا لابنها وتفضلا منى . فرحبت بى وابت الا ان تكرمنى . فاطلت من النافذة ، ونادت امى ، واستأذنتها فى ان تستبقينى تلك الليــلة عندهم كى اتناول معهم طعام العشاء ...

***

ودخلت بيت الست بهية ظافرا ، وأصبحت أراها فى كل مساء تقريبا .. ولكى اكسب عطفها ورضاها ، تفانيت فى الاهتمام بابنهــــا ، والاخــلاص فى تعليمه ، والغيرة على مستقبله . فتقدم الصبى تقدما ملحوظا . فتاهت الست بهية خيلاء وعجبا ، وتشــــبثت بى ، ورفعت كل كلفة بيننا .

ولم اكد اشعر باقبــالها على حتى تجاسرت وانتهزت فرص ايام العطلة ، وبدات ازورها فى الصباح ايضــا وفى غير مواعيد الدرس واثناء غيبة زوجها . فكانت تستقبلنى هاشــــــة متهللة ، وتضاحكنى، وتعابثنى ، وتقودنى بيدها الى المطبخ . فأجلس على الأرض بجوار شعبان ، واراها تغدو وتروح أمامى ، وخفق قبقابها الصدقى الســـاحر يرن موقعا على دقات قلبى. ثم اراها تجذب الطبلية فجاة وتجلس متربعة تجــاهى وتاخذ فى اعداد الطعام . فأشــاركها فى تخريط الملوخية ، او تقميع البامية ، او تقشير الباذنجان ، او تصــــفية الطمــاطم ، وأنا ارمق بعين مختلجة حبات الترتر المتراقصة فوق حاجبيها المقرونين ، وومضات الاساور المصطفقة فى معصميها المشــــــوقين ، وهبات أنفاسها المتصاعدة من صدرها الملىء ، ورعشة عينيها السوداوين الواســعتين كلما انحسر ثوبها عن نحرها ، فردته بيدها الرخصة المخضبة بالحناء ...

وكنت سعيدا كل السعادة ، يضطرم كيانى بغتة فاندفع نحوها ملهوفا واذا اختلج . فتنظر هى الى نظرة باسمة هادئة متفحصـــــــة .. فينخلع بدنى واتراجع ، واكتفى بأن اسبح فى جوها الطلق ، واتنشق عبيرها الحاد ، واملأ ســـــمعى وبصرى من خفق قبقابها ، وقصف ضحكتها ، وخشخشة اساورها ، ثم أعود الى البيت مطــرقا وطيفها

يلاحقنى . فادخل حجرتى ، وأوصد بابها على ، وأحاول ان اقرأ وأكتب . فتنطوى الصفحات من تلقاء نفسها فى وجهى ، ثم تتفتح بغتة كزهرة كبيرة ، وينبثق منها أيضا طيف حبيبتى ...

ولما كان هذا الحلم المجرد يعذبنى ويثيرنى ، كنت أكر راجعا اليها لأتملى من فتنة جسمها الحى . ولكننى فى تلك اللحظة ، ويا للعجب، كنت لا أراها هى بل أرى طيفها ، أرى حلمى ممثلا فيها ، أراها فى صورة ملائكية سماوية رائعة . فأتطلع اليها عابدا ومقدسا . فتحدق فى موجسة ومستريبة ، ثم تتثنى وتضحك ، ثم تشفق على . فتأخذنى من يدى ، وتقودنى الى المطبخ كى تقدم الى شريحة كبيرة من البطيخ أو الشمام ، أو بضع ملاعق من « المفتأة » ، أو قبضة من العجوة السيوى ، وهى لا تفتأ تحدق فى متثنية وتضحك ...

وبتنا والألفة تجمع بيننا ، أزورها فترحب بى ، وأجالسها فتستريح الى، وأخلو بها فتغمرنى بأطايب الحلوى ، وأغيب عنها يومين أو ثلاثة فتسرع بدعوتى ، حتى وقع ما لم يكن فى الحسبان وتبدل فى لحظة كل شىء ...

كنت برغم انجذابى الشديد الى الست بهية وبرغم تهافتى المحموم عليها، مؤمنا كل الايمان بطهارتها ، واثقا كل الثقة من استقامة مسلكها ، شاعرا بلذة عميقة وغريبة فى أن أحبها وهى متمنعة ومتحفظة ومتنبهة . بيد انى كنت الحظ أحيانا أنها تسخر من زوجها الكهل الطيب وتحتقره ، وتميز الأقوياء العابرين من الرجال ، وتنظر اليهم من خصاص النوافذ ، وتتبرج تبرجا صارخا كلما خرجت لزيارة ، وتشع من عينيها فى بعض الأوقات نظرات حادة وزائغة ملؤها الضجر والتبرم والضيق وعدم الاكتراث ...

على أنى كنت الحظ كل هذا ولا أتأثر . كنت لا أتأثر لفرط استغراقى فى حبى لها ، وايمانى بطهارتها ، وفرحتى بالحب والايمان ماثلين فى امرأة بديعة الحسن تعطف على . فلبثت أحبها تائها ونشوان ولم أحفل بما لاحظته عليها . الى أن حدث ذات مساء ، وبينما أنا منهمك فى تلقين الصبى شعبان درسا فى الحساب ، أن دخل الحاج طلبة مصحوبا برجل ، ما ان التفت اليه انا وأبصرته حتى انقبض قلبى بالرغم منى وانكمشت ..

وفهمت من حديث الرجلين أن صلة قرابة وثيقة تجمع بينهما ، وانهما قد أديا فوق ذلك فريضة الحج سويا ، وأنهما تآلفا وتآخيا ، وأن « الحاج عبد السميع » مقاول مشهور ، وأنه قد اتخذ له مسكنا جديدا فى حينا عملا بنصيحة قريبه وأخيه وصديقه المحبب المختار الحاج طلبة ...

وكان الحاج عبد السميع يرتدى بذلة أفرنجية كحلية اللون ، وصدارا أصفر صارخا ، وجوربا بنيا قاتما ، ويحمل بيده منشة ، ويلف حول عنقه كوفية حريرية صغيرة خضراء ذات خطوط دقيقة متشابكة حمراء . وكان رجلا فى نحو الأربعين ، جريئا ومتقحما ومهذارا ، مديد القامة ، عريض

المنكبين ، مفتول الشارب ، فى عينيه الرواغتين الثاقبتين بريق مرح وصحة، يلمع فترة ثم يخبو ، فتقسو نظرته بعد لين ، فيحاول أن يلطفها بابتسامة معسولة وحديث ناعم رقيق ...

وكان يتكلم وهو يتلاعب بشراريب كوفيته ، وينكت ويتظرف ، ويسترق النظر الى الست بهية وهى تتأمله خلسة وتتفرس فيه . أما انا فكنت اشعر شعورا قويا أن هذا الرجل الذى حج بيت الله الحرام كاذب ومنافق ولئيم وشرير . فلم أطق رؤية شاربه المتوقح المتحدى . فنهضت مستاذنا . فلم تشعينى الست بهية الى الباب كعادتها وظلت تنصت الىحديث الحاج عبد السميع . فلحق بى زوجها ،وربت على كتفى ، واراد ان يقدم لى عنقود عنب واصبعين من الموز . ولكنى رفضت شامخا متأبيا ، وتملصت من الرجل وانصرفت ...

واختفى الحاج عبد السميع ، ونسيته انا تماما . غير أنه سرعان ما ظهر بعد أيام ، وتسلل فجأة الى بيت قريبه وصديقه واخيه .

وكان الحاج طلبة برغم بلادته حريصا على بيته ، غيورا أشد الغيرة على عرضه ، محرما على امراته ان تستقبل اى رجل فى غيبته . بيد أن الحاج عبد السميع كان يتذرع بصلة القرابة ورابطة الأخوة ، ويقتحم بيت صديقه سواء اكان موجودا فى البيت ام غائبا .

وكبر على الحاج طلبة أن ينبهه فيجعله موضع ريبة . فتجاوز عن تصرفه ، واكتفى بأن قال لزوجته أمامى انه اذا اتفق وزارها الحاج عبد السميع فى غيبته ، فيجب أن تشعره هى بسوء تصرفه وحرج مركزها ، ويجب ان يظل الصبى شعبان بينهما ، أو يظل باب البيت مفتوحا حتى ينصرف الرجل الغريب .

وهذا ما حدث بالفعل أول الأمر . ولكن شيئا آخر حدث بعد ذلك،وكنت الحظه واتمزق ... كان الحاج عبد السميع يكثر من زيارة الست بهية فى غيبة صديقه . فكانت هى فى تلك الفترات توصد باب البيت ، وتحرص كل الحرص على ان يكون الصبى شعبان بينهما . غير انها فى الوقت نفسه كانت تقصينى انا ، وتعبس فى وجهى اذا دخلت عليهم ، وتحاذر أن تجاملنى ، بل تنفر صراحة منى ، وتمر بى جامدة باردة مترفعة كانها لا ترانى ولا تعرفنى ... تغيرت تماما ... انقلب عطفها الى جفوة ، وحنانها الى قسوة ، ولينها الى غلظة ، واقبالها الى شبه نبذ واحتقار ...

حرمت على زيارتها الا فى مواقيت الدرس ، بينما أصبحت تستقبل الحاج عبد السميع فى أى وقت شاء . أجل كانت تشفع له عند الحاج طلبة أمامى، وتثنى على أخلاقه أطيب ثناء ، وتقول انها خجلة منه لفرط أدبه ، وانه لا يدخل البيت الا وهو يحمل هدية لشعبان ، وان ليس فى مقدورها أن تتنكر له وتصده ما دام يحترمها وينظر اليها هى أيضا باعتبارها أختا له ...

وكان الحاج طلبة يستمع اليها ويهز رأسه حائرا مدمدما ويصمت • أما أنا فكنت أتعــذب • كنت أتفطر • كنت أود لو استطعت أن أضرب هذا الزوج البليد لأوقظه • وكنت في الوقت ذاته أشعر انى ذليل وحقير ، وانى طفــل وغرير ، وان الست بهية قد لعبت بى، وتسلت فترة على حســابى ثم لفظتنى وتعلقت برجل ٠٠٠ رجل قوى ، وغنى وجميل ٠٠٠ رجل لا قدرة لى عليه ، رجل حطمنى وسجل على الهزيمة والخزى والعار ٠٠٠

وحز فى صدرى ضعفى وعجزى • فكرهت الست بهية ، واعتقدت انهــا سقطت • ثم عز على حلمى وايمــانى فاعتقدت انها لن تسقط • ثم راجعت فكرى وايقنت انها بالفعل قد سقطت • فتمزق قلبى ، واســودت الدنيا فى عينى ، وعـــدت فارتميت عامدا فى مطالعة الروايات وتاليفهــا • فباغتنى والدى مســتهولا جرأتى واصرارى • فرحبت بصرخـــاته وضرباته وفنــون تنكيله كى أتحمل عـذاب الاســتبداد مضافا الى عذاب الحب الخائب ، فأعيش فى الم متصل مروع ، وأشعر على الأقل انى أصبحت شهيدا وضحية ٠٠٠

وحاولت أن أكف عن تدريس الصبى شعبان ذودا عن كبريائى وخشية ان أفاجأ أثنــاء الدرس بزيارة الحـــاج عبد السميع • فتمارضت أياما واعتذرت فلم ترسل الست بهيــة فى طلبى • فبلغ الحنق منى مبلغه وكاد اليأس أن يقتلنى •

وفجأة ، وفى عصر أحـــد الايام ، سمعت صوتها ، صوتها الأول ، صوتها القديم ، صوتها العذب الحنون ، ينبعث من نافذة بيتها ، ويســـتفسر عن أمى وينادينى ٠٠٠ فوثب قلبى فى صدرى واندفعت • اندفعت خطوة ثم تراجعت • أبيت أن أذهب • عضضت على شفتى بأسنانى ، وغرست أظافرى فى راحتى ، وتصلبت جاهــدا وأبيت أن أذهب • ولكن الصــوت الحنون عاد يرن فى مسمعى • فانهار بغتة عزمى ، وطاطات رأسى صاغرا وذهبت ٠٠٠

ولم أكد ادخل بيت الست بهيــة حتى ابصرت الحاج عبد الســـميع ، فذهلت ٠٠٠ كان هنـــاك ٠٠٠ كان بجوارهـــا ٠٠٠ كان جالسا على مقعد بالقرب منها ، يلاطف ابنها ويقصيه ثم ثم يميــل بجمعه اليها ، ويحادثهــا فى انفعال ، ويهمس فى أذنها همسا متهافتا مغويا وهـــو يتلاعب بأطراف كوفيته الحريرية الصغيرة الخضراء ٠٠٠ اذن لـــماذا نادتنى ؟! ٠٠٠ لماذا أصرت على مجيئى ؟! ٠٠٠ لـــماذا أرادت أن أعكر عليها صفوهـــا وهى فى شبه خلوة مامونة مع صديقها ؟! ٠٠٠ ان الحـــاج عبد السميع قد انتفض لمقدمى • وهاهو ذا يرمقنى بنظرة شزراء وكأنه يريد ان ينقض على ليخنقنى •

وحدقت الى الست بهية وأنا أحييها فنهضت لفورها واثبة ، وجذبتنى من ذراعى ، وتعلقت بى ، ثم جاءت بمقعد وضعته بينها وبين الحاج عبد السميع ثم التمست الى أن أجلس على المقعد ، ثم ابتعدت هى بمقعدها قليلا وبدنهـــا يرتجف ٠٠٠ كانت شـــاحبة • كانت مضـــطربة • كانت قلقة • فتطلعت

اليها متاملا وتنبهت .. اشرقت بصيرتى بغتة وتاكدت ··· تاكدت ان حبيبتى لم تسقط ولن تسـقط ، وان الرجل يطاردها وهى تقاوم ، وانها وان كانت قد انجذبت اليه الا انها تخاف منه ، وتخاف من نفسها ، وتخاف على بيتها ، ولا تجد فى شخص ابنها الضـئيل قوة تعصمها ، وتريد منى أنا ··· أنا الذى لم أعد طفلا ، أن أخف لنجدتها ، وأن أكون السد الحائل والجدار المنيع الذى يفصل بين الحاج عبد السـميع وبينها ···

وارتدت الى روحى ، وأهاجنى الفرح بقوتى · فتشبثت بمكانى ، وتحولت صوب الست بهية أذود عنها بصدرى · وطفقت أرمق الحـاج عبد السـميع بالنظر الشزر أنا أيضا ، واتعالى عليه ، واسـتخف به ، وهو يحدجنى بعين مستشيطة غير مصدقة ، ويمد يديه المتصلبتين فى اتجـاهى كأنه يريد أن يقتلعنى من مقعـدى ويقـذف بى الى الشارع ···

ولما أحس ألا حيلة له فى التخلص منى ، اصطنع البشاشة والضـحك ، ثم نهض متثاقلا ، واستأذن وهو يصافح الست بهية فى فتور ، ويرجوهـا أن تسلم له على الحاج طلبة ، ويقول لهـا انه سيزورها قريبا كى يحمل اليهـا الهدية الكبـيرة التى وعد بها ابنها شعبان وهى « بدلة تشريفة » موشاة بالقصب ، يتدلى من وسطهـا جراب مذهب فيه سيف صغير من خشب ···

وجاملته الست بهية ، وشيعته حتى البـاب ، ولكن لا بدلة التشريفة ولا غيرها من الهـدايا الفاخرة التى كان يجلبها الرجـل البغيض ، أفلحت فى التغلب عـلى حبيبتى ، ودفعهـا الى اقصائى ··· عادت الى وعدت اليهـا ··· عادت الى أكرم نفسا وأبلغ ودا وأوفر سماحة مما كانت عليه · فنفذت من جديد الى حياتها ، ودخلت مطبخها ، وخرطت الملوخية معها ، وأكلت وشربت من يدها ، وغمرنى العبير المتضوع من جوها فسـكرت وأنا لا أعرف الخمر ، ولم تعد تسعنى الدنيا ·

وكان كلما أقبل الحاج عبد السميع فى غيبة زوجها ، وكنت أنا فى منزلى ، تسرع هى وتنادينى · فانطلق اليهـا كالسهم ، وامكث بين الرجل وبينها ، واظل أكيـده وأرهقـه بوجودى حتى يضيق ذرعـا بى فينصرف · فأعجز عندئذ عن ضبط قلبى ، فتنفجر فرحتى بالرغم منى ·· فاحمل شعبان بين ذراعى واطوف به غرف البيت واثبا راقصـا وأنا لا أعى ···

وأحسست اذ ذاك فقط بأنى انسان أحسست اذ ذاك فقط بأنى قد أصبحت فى الحق رجلا · فكنت أهتف فى نفسى ان حبيبتى تثق فى ، وتحتـاج الى ، وتعتمـد على عونى ، فيلتهب كبرى ، ويتجـدد أملى ، واتطلع فى يقين الى المستقبل الزاهر المنشود الذى تتشجع فيه الست بهية ، فتطرد من بيتهـا الرجل الدخيل ، وتعود بجمعها الى ···

وكان الحاج طلبة قد بدأ يفيق من غفلته ويتنبه ··· كان قد بدأ يستريب بصـديقه ويصد عنه ويتحين الفرص لالزامه حده والتخلص منه · فزادتنى

عذه اليقظة فرحا ، وانشرح صدرى ، وآمنت بالنصر الكامل المكفول ٠

وفجأة ، وفى مســـاء يوم من أيام الشتاء ، مساء مكفهر عاصف مطير ، وقع شيء خارق ، شيء لم أتوقعه أبدا ، شيء زعزع كيانى باشـــد ممـــا كان يزعزعه الرعد الذى يدوى فى الفضـــاء حولى ٠

كان باب شرفتنا موصـــدا ، وكنت أتطلع من خـــلال زجاجه الى الغيـــوم المتكاثفة المتلاطمة تأكل بعضها كأنهـــا الغيلان ، واذا بى ألمح الحاج عبد السميع يدخل الحارة ويتجه نحو عمارتنا ٠٠٠ فارتعشت وانطلقت توا الى الخارج وأنا أصيح بأمى انى ذاهب لتدريس شعبان ٠٠٠ ولكن خادمتنا مبروكة التفتت الى عندئذ وقالت ان شعبان غير موجود فى بيته ، وانها التقت به ظهرا فى السوق٠ فقال لها ان أمه قد بعثت به الى منزل صديقتها الست حفيظة ، وانه سيتغدى هنـــاك مع أولادها ، ثم يصـــحبه خادمها الى الطابونة كى يعود فى رفقة والده ليلا بعد العمل ٠٠٠ فشخصت أنا الى الخادمة واضطربت ٠ اضـــطربت لحظة ٠ ولكنى مع ذلك لم أحفل كنت واثقا ٠ واثقـــا من ان الست بهية قد فوجئت بزيارة الحاج عبد الســـميع ، وان هذه الزيارة لا بد ان تحرجهـــا وتخيفها ، وانها لن تقبل أبدا بأن تظل مع ذلك الرجل فى البيت بمفردها ، وانها وهى تعرف انى فى منزلى ، لابد أن تســـتنجد بى ، وتطلب حمايتى ، وتتذرع بأيـــة حجة لتنـــادينى ٠٠٠ انتظرت طويلا ٠٠٠ ولكنى لم أســـمع ٠٠٠ لم أسمع شيئا ٠٠ لا صوتها ، ولا صرير نافذتها ، ولا أية حركة صادرة عن بيتها ٠ فأجلت البصر حولى ذاهـــلا وكف قلبى عن الخفقـــان ٠٠٠ لماذا ، لماذا لم تنادنى هذه المرة ، وما معنى هذا الصمت الشامل الخانق المكتوم ؟!

واضطرم خيالى ، واحتدم فكرى ، وســـاورتنى الريب والشـــكوك ، بل تســـاقطت على كوابل المطر الذى كان ينهمر أمـــامى ٠ فقلت فى نفسى وأنا أختلج : أممكن هذا ؟ ٠٠٠ أفى الاحتمال تصور شيء كهذا ؟ ٠٠٠ أيمكن أن تكون على اتفاق سابق مع الحاج عبد السميع ، وانها قد بعثت بابنها الى صديقتهـــا عامدة ، وأبت أن تنادينى ، ليخلو لها الجو مع رجل هو خليلها ؟! ٠٠٠

وفار دمى ، وأحسست كأن خواطرى تستحيل الى ســـياط من نار ٠ فلم اتمهل ، ومضيت لتوى ، وهبطت الدرج وطرقت باب الست بهية ٠٠٠

وفتح الباب بعـــد لحظات ، واطلت المرأة من فرجته ٠٠ وما كادت تلمحنى حتى تنفست ٠ وما كدت المحهـــا أنا حتى ذهلت ٠ لم أرهـــا معصـــــوبة الرأس بمنديلها ، ولم أر حبات الترتر تتراقص فوق حاجبيها ٠ رأيتها عارية الرأس ، مشعثة الشعر ، زائغة البصر ، مقطبة الجبين ، تنظر الى نظرة ساخطة وقاسية ، وتقول لى مع ذلك فى صوت غائر متقطع ملهوف :

ـ شعبان نايم ٠٠٠ تعبان ونايم ٠٠ ابقا تعالى أما يصحا ٠٠٠ بالليل ٠٠٠ بالليل ٠٠٠ أنا حبقا اندهلك ٠٠٠

وتراجعت مسرعة وأوصدت الباب ٠

فانهار قلبي في صدري واختنقت . تخاذلت ركبتاي وكدت أهوى على الدرج . فاستندت الى الجدار وعيني مثبتة في الباب . ولكني لم أطق . لم أطق رؤية بابها ، ولا تصور شخصها، ولا تذكر الكلمات الكاذبة التي نطقت بها . فهمت كل شيء ... فهمت في تلك اللحظة كل شيء ... كانت المرأة أحيانا تناديني وتلجأ الى وتحتمي بي وتظهر لي الود والعطف ، لا لتذود عن نفسها وتحرص على طهارتها وتتقي اغراء رجل متربص بها ، بل لتستمسك بهذا الرجل ، وتضللني أنا وتخدعني ، وتلقي في روعي انها امرأة شريفة ، واني عندها أثير وعزيز . فتأمن بهذا التصرف شر غيرتي ، وشر ثورتي ، وشر لساني عند أهلي والناس ، فتكسبني ولا تفتضح ...

فهمت كل هذا ، وآمنت بكل يقيني ان الرجل خليلها . فاستعر في غضب كغضب حيوان أخذ في فخ . فأردت أن أحطم الباب وادخل . ولكن خيل الى اذ ذاك اني أسمع ضحكات وهمسات وزفرات ولهثات . فاقشعر بدني ، وارتد غضبي الى صدري ، وفررت .. خرجت الى الحارة ثم الى الشارع . وما أن رأيت الحركة والحياة والناس ، حتى رأيت أيضا نفسي ، رأيت رجولتي ، رجولتي التي اعتقدت اني قد حققتها وامتلكتها وبدأت أعتز بها ، تنتهك أمام عيني وتذبح ذبحا وتموت ... شعرت اني أقل من اقل شيء . اقل من طفلة ، وأقل من شعبان ، وأقل من رضيع ، بل أقل من الحشرة الحقيرة التي تدب على الارض والتي يدوسها الناس بالأقدام .

وفجأة ، وعلى قدر ذلي وهواني ، جاش كبري ، واتقد حقدي ، وعاد لهب الغضب فاحتواني ، ودفعني الى الثأر فورا لكرامتي . فاندفعت ... كاعمى ، وفي نيتي أن أذهب الى الطابونة وأرى الحاج طلبة ، واكشف له عن الحقيقة كلها ، ثم اقتاده بنفسي الى بيته ، وادخل البيت معه ، ثم اشمت واتشفى وانقع غلتي ، وأنا أبصره بعيني رأسي ينتقم لي ويوقع العقاب الصارم على المرأة الخائنة وعشيقها ! ...

وكان الليل قد ارتمى على الارض كوحش ، وأضيئت في الحوانيت بعض المصابيح ، وأوشك أن يعود الحاج طلبة الى منزله في صحبة شعبان . فأردت أن أسرع وأتصل به قبل أن يفلت منه الحاج عبد السميع . فمضيت اركض في اتجاه الطابونة وأنا الهث . ركضت وعزمت . ولكني بعد بضع خطوات ، تمهلت وأفقت ... أفقت وهتفت: واذا قتلها ؟! .. اذا استضعف أمام الرجل وقتلها هي ؟! ... قد يقتلها ! . .لا بد أن يقتلها ! ..

ومثلت أمامي المرأة الشائقة جثة ملوثة بالفضيحة ، مخنوقة أو مثخنة بالجراح . فارتعدت فرائصي . تاه عقلي وتوقفت . توقفت وصرخت : أيقتلها ، وأكون أنا ... أنا ؟! ..

وتداعى جسمي كله ، ذاب شفقة عليها وحسرة . لم أستطع . لم يسعفني ذلي . لم يطاوعني قلبي . لم تستجب لي قواي . فحنيت رأسي مترنحا ، ولم أجد بدا من أن أعود الى بيتي وأنا اتخبط بين حنقي على ضعفي ، وعجزي عن الثأر حتى من غريمي ، وضرورة التسليم بهزيمتي وفشلي ...

ومشيت ··· مشيت كأنى قدفقدت كل ما أملك ، وكأنى قد بت فجأة فى مهبط عمرى ، لا شباب ينتظرنى ، ولا مستقبل أمامى ، ولا حياة تدعونى ، ولا غاية أسعى اليها واعرف انها ذات قيمة وجدوى ·

ولما أشرفت على ناصية حارتنا ، وهممت بدخولها ، رأيته ··· نعم رأيته ··· هو ··· الحاج عبد السميع يخرج منها ... فتطلعت اليه كأنى لا أعرفه · فاتجه نحوى عامدا ، ولفحنى بطرف سترته الكحلية ، ثم رشقنى بلفته ظافرة ومحتقرة ، وانسل فى الشارع ، ومرق من احد الدروب ·

وفى تلك اللحظة ، وبينا كنت أتبعه النظر مشفقا منهكما غير مكترث ، حانت منى التفاتة · فأبصرت عن بعد ، فى أقصى الشارع ، الحاج طلبة مقبلا على مهل فى صحبة ابنه شعبان · فلم اشأ أن أراه · لم اشأ أن أواجهه · لم اشأ أن التقى به · كنت خجلان من نفسى بعد أن خذلتنى نفسى وعدلت عن مصارحته · فانطلقت صوب الحارة ودخلت عمارتنا ....

غير انى لم أكد ادخل ، لم اكد أصعد أولى درجات السلم المعتم الذى كان يتراقص فى جوفه ضوء فانوس خافت، حتى تراجعت مبهوتا وتسمرت ··· لمحت شيئا يلمع ، شيئا يلمع ويتوهج، شيئا أعرفه · لمحت الكوفية الحريرية الصغيرة ··· الكوفية الخضراء ذات الخطوط الدقيقة الحمراء ، الكوفية التى كان يلفها الحاج عبد السميع على عنقه الغليظة ، منتشرة على الارض بشراريبها المستطيلة ، وملقاة على عتبة باب الست بهية ···

وشخصت الى الكوفية فى جنون وأدركت ·· أدركت ان الحاج عبدالسميع وقد هبط به الليل وخشى أن يسرقه الوقت ، وان يباغته الحاج طلبة وهو فى بيته مع امرأته ، أسرع وخرج مستعجلا وملهوفا · فلم يستخدم كوفيته الصغيرة ، ولم يتنبه الى انها لفرط نعومتها قد افلتت منه وسقطت على عتبة الباب ···

وفى مثل هبة الريح او وقدة الحمى ، انبعثت قوتى ، وتقلص ذلى ، وتبدد ضعفى ، ورأيت فى ضرورة الانتقام رمز رجولتى · فاستبد بى الكمد والحقد ، وزايلنى كل شعور بالشفقة والصفح وعزمت . عزمت هذه المرة عزما قاطعا · عزمت أن أدع الكوفية حيث هى · ثم انتظر مقدم الحاج طلبة ، ثم اجهر أمامه بالحقيقة ، وأشفعها بهذا البرهان الصارخ الحى ···

وقبعت فى بير السلم وانتظرت ··· انتظرت وأنا ثابت · انتظرت وأنا واثق : انتظرت وانا متحفز ... وفجأة سمعت ··· آه مما سمعت ··· لم أسمع كلاما ، بل سمعت صوتا ··· صوتا بعيدا ··· وسمعت الصوت وقد أصبح قريبا ··· ثم سمعته يتجه نحوى ، ويدنو منى ، ويتهدى الى كأنه يقصدنى بالذات أنا وحدى ··· سمعت وقع قبقاب الست بهية ، يخفق خفقا لينا وئيدا رشيقا على أرض بيتها · وما ان طرق هذا الصوت مسمعى حتى انخلعت ··· أرجفنى ، وأطربنى ،

من أقاصيص الأولين

اختيار وتقديم الدكتور محمد أحمد خلف الله

- ١ -

كان بين المناذرة والأكاسرة صلات حسنة أيام الجاهلية ، وكانت الرسل تفد فيما بينهما تحمل الهدايا من والى كل منهما •

وكان عدى بن زيد الشاعر المعروف واحدا من هؤلاء الرسل ، ووفد ذات يوم الى المنذر بن المنذر يحمل هدية كسرى اليه ، واتفق أثناء مقامه عند المنذر أن دخل بيعة من البيع تقربا الى الله ، فرأى فى البيعة فتاة برزة جميلة وقع فى هواها فى الحال •

كانت هذه الفتاة هند بنت النعمان ابن المنذر التى ولدت له من مارية الكندية •

ويروى الرواة قصة هند مع عدى أو قصة عدى مع هند على الوجه التالى •

***

قال ابن أبى سعد ، وذكر ذلك خالد بن كلثوم أيضا •

قالا : كان سبب عشقه اياها أن هندا كانت من أجمل نساء أهلها وزمانها ، وأمها مارية الكندية ، فخرجت فى خميس الفصح وهو بعد السعانين بثلاثة أيام ، تتقرب فى البيعة ، ولها حينئذ احدى عشرة سنة ، وذلك فى ملك المنذر •

وقدم عدى حينئذ بهدية من كسرى الى المنذر ، والنعمان يومئذ فتى شاب، فاتفق دخولها البيعة وقد دخلها عدى ليتقرب •

كانت مديدة القامة عبلة الجسم ، فرآها عدى وهى غافلة فلم تنتبه له حتى تاملها •

وقد كان جواريها رأين عديا وهو مقبل فلم يقلن لها ذلك ، كى يراها عدى ، وانما فعلن ذلك من أجل أمة لهند يقال لها مارية ، وقد كانت أحبت عديا فلم تدر كيف تاتى له •

فلما رات هند عديا ينظر اليها شق ذلك عليها ، وسبت جواريها ونالت بعضهن بضرب •

ووقعت هند فى نفس عدى ، ولبث حولا لا يخبر بذلك أحدا •

فلما كان بعد حول وظنت مارية ان هندا قد أضربت عما جرى وصفت له بيعة توما ، ووصفت لها من فيها من الرواهب ، ومن يأتيها من جوارى الحيرة ، وحسن بنائها ومسرجها ، وقالت لها :

ـ سلى أمك الاذن لك فى اتيانها ·

فسألتها ذلك فاذنت لها ·

وبادرت مارية الى عدى فاخبرته الخبر فبادر فلبس يلمقا كان قد كساه اياه ـ فرخنشاه مرد ـ وكان مذهبا لم ير مثله حسنا ـ وكان عدى حسن الوجه ، مديد القامة ، حلو العينين ، حسن المبسم ، نقى الثغر وأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة ، فدخل البيعة ·

فلما رأته مارية قالت لهند :

انظرى الى هذا الفتى ، فهو والله أحسن من كل ما ترين من السرج وغيرها ·

قالت : ومن هو ؟ ·

قالت : عدى بن زيد ·

قالت : أتخافين أن يعرفنى ان دنوت منه لأراه من قريب ؟ ·

قالت : ومن أين يعرفك وما رآك قط من حيث يعرفك ؟ ·

فدنت منه وهو يمازح الفتيان الذين معه وقد برع عليهم بجماله ، وحسن كلامه وفصاحته ، وما عليه من الثياب ، فذهلت لما رأته وبهتت تنظر اليه ·

وعرفت مارية مابها وتبينته فى وجهها ، فقالت لها :

ـ كلميه ·

فكلمته ، وانصرفت وقد تبعته نفسها وهويته ، وانصرف بمثل حالها ·

فلما كان الغد تعرضت له مارية ، فلما رآها هش لها ، وكان قبل ذلك لايكلمها ، وقال لها :

ماغدا بك ؟

قالت : حاجة اليك ·

قال : اذكريها ، فوالله لاتسالينى شيئا الا أعطيتك اياه · عرفته أنها تهواه ، وأن حاجتها الخلوة به على أن تحتال له فى هند ، وعاهدته على ذلك ، فادخلها حانوت حمار فى الحيرة ووقع عليها ·

ثم خرجت فاتت هندا ، فقالت :

ـ أما تشتهين أن ترى عديا ؟

قالت : وكيف لى به ؟

قالت : أعده مكان كذا وكذا فى ظهر القصر وتشرفين عليه ·

قالت : افعلى ·

فواعدته الى ذلك المكان ، فاتاه وأشرفت هند عليه ، فكادت تموت ·

وقالت : ان لم تدخليه الى هلكت ·

فبادرت الأمة الى النعمان فاخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد شغفت به ، وأن سبب ذلك رؤيتها اياه فى يوم الفصح ، وأنه ان لم يزوجها به افتضحت فى أمره أو ماتت ·

فقال لها : ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك ؟

فقالت : هو أرغب فى ذلك من أن تبدأه أنت ، وأنا أحتال فى ذلك من حيث لايعلم أنك عرفت أمره ·

وأتت عديا فاخبرته الخبر ، وقالت :
ـ ادعه ، فاذا آخذ الشراب منه فاخطبه فانه غير رادك •

قال : أخشى أن يغضبه ذلك فيكون سبب العداوة بيننا •

قالت : ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه •

فصنع عدى طعاما واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان بعد الفصح بثلاثة أيام ، وذلك فى يوم الاثنين ، فسأله أن يتغذى عنده هو وأصحابه ، ففعل ـ فلما أخذ منه الشراب خطبهاالى النعمان ، فاجابه وزوجه وضمها اليه بعد ثلاثة أيام •

ويقول الرواة : انها ترهبت بعد ثلاث سنين ، ومنعته نفسها ، وحبست نفسها فى الدير المعروف بدير هند فى ظاهر الخيرة حتى ماتت •

ويقول الرواة : كانت وفاتها بعد الاسلام بزمان طويل فى ولاية المغيرة ابن شعبة الكوفة ، وخطبها المغيرة فردته •

تحدث ابن سعد قال : مر المغيرة بن شعبة لما ولاه معاوية الكوفة بدير هند، فنزل ودخل على هند بنت النعمان بعد أن استأذن عليها ، فاذنت لهوبسطت له مسحا فجلس عليه ، ثم قالت له :

ـ ما جاء بك ؟

قال : جئتك خاطبا •

قالت : والصليب لو علمت أن فى خصلة من جمال أو شباب رغبتك فى لأجبتك ، ولكنك أردت أن تقول فى المواسم :

ـ ملكت مملكة النعمان بن المنذر ، ونكحت ابنته • فبحق معبودك أهذا أردت ؟

قال : اى والله •

قالت : فلا سبيل اليه •

فقام المغيرة وانصرف •

ـ ٢ ـ

كان قيس بن الخطيم يجهل أن أباه وجده قد قتلا• وكانت أمه تخشى مصير أبيه وجده ان هو هم بالاخذ بالثأر ـ لذا عمدت الى اقناع ابنها بأن أباه وجده قد ماتا ميتة طبيعية لاقتل فيها ولا ترصد •

اقتنع الابن فترة من الزمن ، ومضت الامور على ما قدرت أم قيس ، ولكن الاحداث لم تلبث ان كشفت عن الحقيقة فاندفع الابن الى الاخذ بالثار ممن قتل أباه وممن قتل جده •

وتلك قصة قيس من قاتل ابيه وقاتل جده كما رواها الاقدمون •

***

حدث أبو عبيدة عن محمد بن عمار بن ياسر ، وكان عالما بحديث الانصار، قال :

كان قيس يوم قتل أبوه صبيا صغيرا ، وقتل الخطيم قبل أن يثأر بأبيه عدى •

وخشيت أم قيس على ابنها أن يخرج فيطلب بثأر أبيه وجده فيهلك ، فعمدت الى كومة من تراب عند باب دارهم ، فوضعت عليها أحجارا وجعلت تقول لقيس : هذا قبر أبيك وجدك •

كان قيس لايشك أن ذلك على ذلك•

ونشأ أيدا شديد الساعدين ، فنازع يوما فتى من فتيان بنى ظفر ، فقال له ذلك الفتى :

ـ والله لو جعلت شدة ساعديك على قاتل أبيك وجدك لكان خيرا لك من أن تخرجهما على .

فقال : ومن قاتل أبى وجدى ؟

قال : سل أمك تخبرك .

فأخذ السيف ووضع قائمه على الارض وذبابه بين ثدييه وقال لأمه :

ـ أخبريني من قتل أبى وجدى ؟

قالت :ماتا كما يموت الناس وهذان قبراهما باتفناء .

فقال : والله لتخبريننى من قتلهما أو لأتحاملن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

فقالت : أما جدك فقتله رجل من بنى عمرو بن عامر بن ربيعة يقال له مالك ، وأما أبوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر .

قال : والله لا أنتهى حتى أقتل قاتل أبى وجدى .

فقالت : يابنى ان مالكا قاتل جدك من قوم خداش بن زهير ، ولأبيك عند خداش نعمة هو لها شاكر ، فأته فاستشره فى أمرك واستعنه يعنك .

خرج قيس من ساعته حتى أتى جمله وهو يسقى نخله ، فضرب الجرير بالسيف فقطعه ، فسقطت الدلو فى البئر ، واخذ برأس الجمل فحمل عليه غرارتين من تمر ، وقال :

من يكفينى أمر هذه العجوز ؟ـ يعنى أمه ـ فان مت أنفق عليها من هذا الحائط ـ البستان ـ حتى تموت ثم هو له ، وان عشت فمالى عائد الى ، وله منه ما شاء أن يأكل من تمره .

فقال رجل من قومه : أنا له .

فأعطاه الحائط ثم خرج يسأل عن خداش بن زهير حتى دل عليه بمر الظهران ، فصار الى خبائه فلم يجده ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافه .

ثم نادى امرأة خداش : هل من طعام ؟

فاطلعت اليه فاعجبها جماله ، وكان من أحسن الناس وجها ، فقالت :

والله ما عندنا من نزل نرضاه لك الا تمرا .

فقال : لا أبالى ، فاخرجى ما كان عندك .

فارسلت اليه بقباع فيه تمر ، فاخذ منه ثمرة فأكل شقها ورد شقها الباقى فى القباع ، ثم أمر بالقباع فأدخل على امرأة خداش بن زهير ، ثم ذهب لبعض حاجاته .

رجع خداش فأخبرته امرأته خبر قيس فقال :

ـ هذا رجل متحرم .

أقبل قيس راجعا وخداش مع امرأته يأكل رطبا ، فلما رأى خداش رجله وهو على بعيره قال لامرأته :

ـ هذا ضيفك ؟

قالت : نعم .

قال : كأن قدمه قدم الخطيم صديقى اليثربى

فلمـــا دنا قيس قرع طنب البيت بسنان رمحه واستأذن ، فاذن له خداش فدخل اليه ٠

نسبه فانتسب وأخبره بالذى جاء له ، وسأله أن يعينه وأن يشير عليه فى امره ، فرحب به خداش وذكر نعمـــة ابيه عنده وقال :

ـ ان هذا الامر مازلت أتوقعه منـك منذ حين ٠ فأما قاتل جدك فهو ابن عم لى وأنا أعينك عليه ، فاذا اجتمعنـا فى نادينا جلست الى جنبه وتحدثت معه ، فاذا ضربت فخذه فثب اليه فاقتله ٠

قال قيس : فاقبلت معه نحوه حتى قمت على رأسه لما جالسه خداش ،فحين ضرب فخذه ضربت رأسه بسيف يقال له : ذو الخرصين ، فثـار الى القـوم ليقتلونى ، فحال خداش بينهم وبينى وقال :

ـ دعوه فانه والله ما قتـل الا قاتل جده ٠

ثم دعا خداش بجمل من ابله فركبه، وانطلق مع قيس الى العبدى الذى قتل أباه حتى اذا كان قريبا من هجر أشار عليه خداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فاذا دل عليه قال له :

ـ ان لصا من لصـــــوص قومك عارضنى فأخذ متاعا لى ، فسـألت من سيد قومه فدللت عليك ، فانطلق معى حتى تأخذ متاعى منه ، فان اتبعكوحده فستنال ما تريد منه ، وان أخرج معه غيره فاضحك ، فان سألك مم ضحكت فقل : ان الشريف عندنا لايصنع كمـا صـــنعت اذا دعى الى اللص من قومه ، انما يخرج وحده بسوطه دون سيفه ، فاذا رآه اللص أعطى كل شىء آخذ هيبة له ، فان أمر أصحابه بالرجوع فسبيل ذلك ، وان أبى الا أن يمضوا معه فأتنى به ، فانى أرجو أن تقتله وتقتـــــل أصحابه ٠

ونزل خداش تحت ظـــل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى العبدى فقال له ما أمره خداش فأحفظه ، فأمر أصحابه فرجعوا ومضى قيس ، فلمـــا طلع على خداش قال له :

ـ اختر يا قيس اما أن أعينك واما أن اكفيك ٠

قال : لا أريد واحدة منهما ٠ ولكن ان قتلنى فلا يفلتنك ٠

ثم ثار اليه فطعنه قيس بالحربة فى خاصرته فانفذها من الجـــانب الآخر فمات مكانه ٠

فلما فرغ منه قال له خداش :

اننا ان فررنا الآن طلبنـــا قومه ، ولكن ادخل بنا مكانا قريبا من مقتله ، فان قومه لايظنون انك قتلته وأقمـت قريبا منه ، ولكنهم اذا افتقدوه اقتفوا أثره ، فاذا وجدوه قتيـــلا خرجوا فى طلبنا فى كل وجه ، فاذا يئســـــوا رجعوا ٠

قال الرواة : فدخـلا فى دارات من رمال هناك ، وفقد العبـــــدى قومه فاقتفوا أثره فوجدوه قتيلا ٠ فخرجوا يطلبونهما فى كل وجه ثم رجعـــوا ، فكان من أمرهم ما قال خداش ٠

أقاما مكانهما أياما ثم خرجا ، فلم يتكلما حتى أتيا منزل خداش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع الى أهله ٠

التطور الفني لشكل القصة القصيرة السورية

بقلم : نعيم حسن اليافي

نشأت القصة القصيرة فى الاقليم السورى كما نشأت أخواتها فى باقى الأقاليم العربية — تحت تأثير اللقاء المباشر وغير المباشر بين الثقافة العربية الأصيلة ، وبين الثقافة الغربية الوافدة ، واذا وجدنا بعض الملامح (الحكائية)الكلاسية ممثلة فى الاطار المقامى وفى التراكيب الألف ليلية ، وفى الاتجاه نحو الترفيه والتعليم — فان جميع ذلك على شحوبة وضآلة آثاره قد أضر بشكل القصة ، وأعاق تطورها ، وأخر نضجها الفنى .

ومنذ هذا اللقاء الذى دخلت فيه القصة القصيرة الأدب السورى ، وبمرور الوقت الذى جاوز الكتاب خلاله فترة الأخذ الى محاولات الافادة من الأخذ — نستطيع أن نرصد فى تطور القصة القصيرة أربعة أشكال للجاذبية النوعية :

١ — الشكل الأول بدأ بمشاركة الرواية كثيرا من مقوماتها ، أو نقول : كان تلخيصا لها وايجازا ، ويمكن أن نطلق على فترته (الفترة البدائية) وعلى قصته (قصة الرواية المكثفة) .

٢ — الشكل الثانى تراوح بين القالب (الحكائى) والقالب (المقالى) ففيه من كل سمات ، ولم يدم هذا الشكل طويلا ، ونقدر أن نسمى فترته (الفترة الانتقالية) وقصته (قصة المقالة الرومانسية) وانما خصصناها بالرومانسية لأنها كانت كذلك كما سنرى .

٣ — الشكل الثالث كانت القصة القصيرة فيه مجالا رحبا للنقل عن الواقع الخارجى المباشر ، بما فيه من فضلات ودقائق ولحظات ميته ، ويمكن أن نطلق على فترته (فترة المحاولة) وعلى قصته (قصة الصورة) على ما سنبين من دلالة هذا الاصطلاح .

٤ — الشكل الرابع خلصت فيه القصة القصيرة لذاتها ، وأصبحت عملا أساسه الاختيار والصنعة أو الحرفة كما يرغب بعضهم أن يسميها ، ونستطيع أن نطلق على فترته (فترة الريادة والتكوين) وعلى قصته (القصة الفنية) وقد مر هذا الشكل فى طورين : الطور الأول طغت فيه المعالم الكلاسيكية لشكل القصة القصيرة عند جيل

الثلاثينات والاربعينات وما زالت آثارها واضحة ، والطور الثانى نشأ مع كتاب الخمسينات ، الجيل الجديد ، الذى حاول ويحاول فى جهد ووعى أن ينقل التقنيات الحديثة للقصة القصيرة ويعمل على اتقانها وتملكها .

* * *

ولنبدأ بالشكل الأول الذى ولد مهاجرا فى غير بيئته ، فى لبنان تارة وفى مصر أخرى ، فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، ونشأ على يد نصارى المنطقة الذين ثقفوا أكثر من لسان ، وعملوا على ترجمة قصص من الدرجتين الثانية والثالثة لكتاب مغمورين أولم تذكر أسماؤهم ، ثم بدأوا بمحاكاة الأعمال المترجمة وتقليدها ، ومن هنا وجدت القصص الموضوعة فى مرحلة أصحاب المجلات والجرائد ، التى يمكننا بفحصها فحصا نقديا مقارنا أن نسم بعضها بميسم (التاليف) ونصف الكثير منها (بالانتحال) أحيانا و (بالسرقة) أحيانا ثانية ، ونظرة سريعة على مجلات الجنان وفتاة الشرق وسلاسل الفكاهات ودواوينها وسائر المجلات التى تخصصت فى التسلية أو التعليم ـ وعلى أعمال كتابها السوريين تعطينا احساسا موحدا بان هذه القصص القصيرة التى تدين فى نشأتها للصحافة ، والتى ظهرت بظهور الطبقة الوسطى البورجوازية ، تعالج مشكلاتها ، وتثير قضاياها ـ قد انخرطت فى تيار العصرية فكانت تسير وفق الرغبة التلقائية العفوية للانسان السورى الساذج ، وكان الكاتب يسوق فكرته فى زحمة الأفعال والأخبار ، بل انه كان لا يعدم وسيلة لترتيب المواقف ، وتنظيم الأفعال الممكنة وغير الممكنة ، ليصل الى تحقيق غايته الاصلاحية أو الترفيهية ـ الا اصطنعها ، عن طريق التأكيد على (المغزى) الذى يبين فيه عواقب الشر فى اقتراف الأفعال الخاطئة أو ردود الخير فى عمل الأفعال الحسنة .

وموضوع الحب الذى يمكن أن نفسر الاحتفاء به بعيدا عن تعليل التسلية بانه صدى الرغبة المكبوتة نحو الجنس ـ كان هو الغالب ، يرحل فى سبيله (داخل القصة) الى بيئات أجنبية تسمح بعرضه ، والكلام عليه ، أما الشخصيات فقد كانت مسطحة وثابتة واصطلاحية ، واذا كنا نرفض أن نزعم بأن قصص الفترة كانت مفتقرة جملة الى رسم الشخصية فانا ندعى بأن شخصياتها كانت غير فنية ولكنها لم تكن مخلوقات فظة على وجه الاجمال .

وقد عنيت القصة فى هذه المرحلة اكثر ما عنيت بالحادثة والعقدة وقامت على المدهش والغريب ، وامتلأت باللحظات غير المتوقعة ، والمفاجآت ، والمسارب الجانبية ، والاطناب فى الوصف والأفعال المتناقضة المشحونة بمختلف العواطف التى تتعهد فى القارىء أوتاره الحساسة المتباينة ، فهو تارة يبكى وأخرى يضحك ثم يحزن ، ويعجب ، فى نفس القصة ، وكأن كل خبر فيها يلامس وترا معينا .

وتبدو القصة اخيرا وقد قامت على حبكة الرواية لا على حبكة القصة القصيرة

بحيث يمكننا أن نقول ـ نتيجة جميع ما سبق ـ انها فقدت خصائص وحدتها وأثرها العام وتركيزها ، ولا يبقى من أصولها بين أيدينا سوى الطول ، بمعنى أن القصة القصيرة فى هذه الفترة البدائية كانت قصيرة من ناحية (الحجم) ولم تكن قصيرة من ناحية (الشكل) ، ولقد دعونا هذه القصة بسبب ذلك (بالرواية المكثفة) ، لأنها امتزجت بها واشتركت معها فى كثير من المظاهر ، والفرق الوحيد الذى كان بين الرواية (الطويلة) أو المسلسلة القصصية ، وبين الرواية (الصغيرة) ، أو التى كانت تنشر فى عدد واحد ، كان فرقا فى الكم ولم يكن فرقا فى الكيف •

عندما جاءت عشرينات القرن الحالى ، وخرج الرجل المريض من الشمال ليدخل المد الاستعمارى للرجل الأبيض من الغرب ، وتشكلت الكيانات السياسية الأربع لبلاد الشام ـ خضع الاقليم السورى منذ هذا الوقت ولمدة انسحبت حتى منتصف الثلاثينات لشتى ضروب الأزمات النفسية سببتها الأوضاع السياسية والاجتماعية للمنطقة ، وقد عبر الشعر السورى أثناء ذلك ـ بحق وبغير حق ـ عن هذه الأزمات ، فكان معظمه شعرا حماسيا يعزف نغمة واحدة هى النغمة الوطنية ، أما النثر فلم تظهر منه سوى مقالات عاطفية مبتذلة لا قيمة لها ، ومع ذلك فانا نستطيع أن نجعل من هذه الفترة ـ من بدايتها ونهايتها معا ـ بدءا لظهور الشكل الثانى من أشكال القصة القصيرة ، أقصد شكل (المقالة الرومانسية) ، ونمثل له بمجموعة (صبحى أبو غنيمة) (أغانى الليل) التى ظهرت فى دمشق عام ١٩٢٢ ، وبالقصص الأولى (لليان ديرانى) التى كتبها فى وقت متأخر فى (الانسانية) وفى (الطليعة) ثم انصرف عنها الى معالجة القصة الواقعية فى (الطريق) ، وليس من شك فى أن ثمة فوارق بين قصص (أبو غنيمة) الرومانسية فالأولى مثلا هومت وذابت رقة وبكاء وسوداوية ، والثانية حملت بذورا (اجتماعية) ، ولكنهما بعد ذلك تشتركان فى العديد من الخصائص فقصصهما لا تخفيان ذاتيتهما وانما تبرزانه ، وتكشفانه ، متوسلتين الى هذا بالضمير الأول ـ المتكلم ـ الذى يظهر فى صياغة ذاتية أحاسيس المؤلف ، وبعد ذلك يدور محورهما حول موقف شعورى واضح قد يقصر وقد يطول ، ولكنه هنا وهناك لايخضع لتخطيط معين ، وانما يجرى فى حرية يسوق فكرة معينة ، أو يعكس حالة نفسية ، وبكلمات أخرى يتناول مضمونا حرا ، تماما كالشكل الحر الذى حوى هذا المضمون •

وبين الشكل الحر والمضمون الحر نتساءل عن (القصة القصيرة) ؟ انها تضيع فى الواقع بينهما ولا نستطيع أن نقول عن ذلك الشكل الحر انه شكل من أشكال القصة القصيرة الفنية ، انه فى منزلة بين المقالة وبين القصة ، ففيه من المقالة : حرية فى الاسترسال ، وعدم الاحتفال بالقالب ، وفيه من القصة بعض ظواهر السرد ، ورسم الشخصيات ، وسير الأحداث ، واذا نحن أغضينا عن كل المقومات الأخرى لفن القصة القصيرة فانا نرى فى قصص المقالات الرومانسية جمودا لا حركة متواصلة ، وثباتا فى الفعل لا تطويرا •:

ومهما يكن من أمر هذه الخصائص لقصة المقالة الرومانسية السورية فيجب

ان نذكر بأن مرحلتها كانت أشبه ما تكون بالمرحلة الطفولية للحياة حياة الفكر والأدب والبيئة والانسان أيضا ، ومن هنا قلنا أنها مرحلة (انتقالية) سريعا ما عبرت عليها القصة من دور البداءة الى دور الولادة أو المحاولة ، ولم يستطع منحاها الشاحب أن يكون قادرا أو عاملا مساعدا على خلق (الشـــكل) الفنى فيها ، فضلا عن أن يمنحه القيمة والتنوع ٠

* * *

كان لا بد للمجتمع السورى الذى رأى نفسه يعيش على هامش الحياة أن يلتفت الى الحياة ، وكان لا بد للأدباء أنفسهم وقد ابتعدوا عن الأرض أن يرجعوا اليهـا ، وهكذا ولد الاتجاه نحو (الواقع) وبتعبير آخر ولد الاتجاه نحو (الواقعية) بدافع شتى العوامل والمعطيات السياسية والاجتماعية والفكرية ، والتى ترجع فى مجموعها الى تطور المدنية العام المتجه اتجاها جذريا ومباشرا نحو الصلابة ، ونستطيع أن نربط بين التطـور نحو هـذا الاتجاه وبين الآثار ـ السـلبية والايجابية ـ التى تركها المد الاستعمارى والتى أحدثت فى عشرينات وثلاثينات القرن ذبذبة مانزال نعانى ـ بوعى وبدون وعى ـ من وطأتها الى اليوم ، واذا كان اقليما لبنان والأردن بعيدين عن اعطاء صورة واضحة لهذه الذبذبة لأن الاقليم الأول أنسى ذاته وسط التفاعل الهادىء مع الانتداب بتغلب الثقافة الأجنبية عليه ، ولأن الاقليم الثانى ظل منكمشا بين البحر والصحراء بعيدا عن تيار المدنية ـ فان الاقليم السورى من بلاد الشام يصور لنا أعمق درجات هذه الذبذبة التى يمكن أن نرصد نتائجها وآثارها خاصة بين سـنة ١٩٣٠ و ١٩٣٦ والتى نقدر أن نعدها الى حد بعيد السنوات الانقـلابية فى تاريخ الفكر والأدب السوريين ، ففى هذه السنوات عاد المجتمع الى نفسه يعى ذاته وسط تردد فى الفكر لم يخلق فيه سوى القلق ، وبعد فترة من المرض الرومانسى لم تفده شيئا ، عاد يتأمل الواقع كرد فعل قوى ضد الخيال ، ويعالج الحياة بعيدا عن التهويمات ، عاد يتحدث عن العلم الواقعى وقـد طال حديثه عن علم الغيب والأوهام ، فى هـذه السنوات كانت المحاولة الأولى الجادة لكتابة القصة القصيرة فى سورية ٠

وقد ارتبطت القصة أول ما ارتبطت بالواقع ، حاول كتابها أن يقيموا بينهـا وبينه هذه الصلة الوشيجة التى فقدناها فى الطورين الأولين ، طور « الرواية المكثفة » وطور « القصة المقالة » صحيح أن الالحاح على هذا الواقع بدأ منذ الفترة الأولى ، ولكن « الواقعية » كانت تضيع بين الافتعال والاثارة فى قصة الصحف والمجلات وبين المغالاة والخيال المجنح فى قصـة المقالة الرومانسـية ، أما الآن فان الارتداد الى الواقع كان موقفا حضاريا ظهـر فيه الايمان بالوطن والأرض والتراب ، وبرز الشـعور بالذات والاعتصام بها ، وكانت محاولات للتفسير الموضوعى لكل الأمور ٠

واختلاف كتاب القصة القصيرة فى فهمهم لهذا الواقع الخارجى تبعه اختلاف آخر فى طبيعة العمل القصصى ، وربمـا كان هذان الاختـلافان هما أساس التفريق الذى

وقفنا عنده وميزنا بين القصة القصيرة التى تصور الواقع كما هو ودعوناها بالقصة (الصورة) وبين القصة التى تخضع الى عمليتى الاختيار والصنعة ودعوناها بالقصة (الفنية) واعتبرنا نتيجة ذلك أن القصة الأولى تمثل دور المحاولة ، أما القصة الثانية فتمثل دور الأصالة ، ومن الطبيعى أن تسبق المحاولة الأصالة ، لأن الأصالة ــ الصنعة الفنية ــ تحتاج أول ما تحتاج الى تهيئة اجتماعية وفكرية معينة ، ومجتمع متحرر ، وادراك كامل لمقومات وخصائص الأنواع الأدبية ، ووعى لسمات الشخصية الفردية ، وتحتاج أيضا الى جمهور قارىء مثقف ثقافة فنية ٠

ولكن ماذا نعنى بقصة (الصورة) هذه ؟ لقد أراد بها بعضهم قصة الجو ، ورأى أن أهم ميزة فيها هى كثرة الأوصاف الفيزيائية وانتفاء العقدة والحبكة ، ونحن نتحرز مؤقتا من مسألة العقدة والحبكة فانا نشترط فى القصة الفنية وجود الحبكة (على ما بينا من دلالتها فى مقال سابق) أما العقدة فوجودها أو عدمه سيان ، ومال بعضهم الى اعتبارها شيئا يختلف عن القصة لأن كاتبها يعنى بالمنظر أكثر مما يعنى بالحركة والسرد ، ونحن نقبل هذا النوع من القصص الوصفية والانشائية كما نقبل غيره من شتى أنواع القصص على أنه يمثل شكلا من أشكال القصة ، أو دورا من أدوارها ، ثم نتجاوزه لنتوسع فى دلالة القصة (الصورة) فالكاتب الذى يصور (الواقع) الخارجى تصويرا حرفيا ، ويلح على أن ما ينقله وقع (فعلا) انما يعطينا (صورة) لهذا الواقع ، والقاص الذى يقدم قصة قوامها تسجيل عادات وتقاليد اقليم ما أو بلد ما انما يقدم لنا (صورا) محلية ، والفنان الذى تخلو قصته ــ مهما كان شكلها ــ من الحبكة انما يسوق (صورا) مفتعلة لا تفى بالغرض ولو اداها فى أى اطار وصبها فى أى قالب أراد ٠

ومن المعروف ان أهم خصيصة من خصائص القصة (الصورة) ان تختفى ذات الكاتب وراءها ، أى ان تتسم بالموضوعية الكاملة ، ولكى تبلغ الموضوعية غايتها يجب أن تعرض القصة فى « أرض محايدة » خارج نفس الكاتب والقارىء معا ، غير أن هذه الخصيصة ان تجلت فى بعض (الصور) القلمية مثل الصور الانشائية وأوصاف الجو والمنظر ، فانها تتجاوز فى البقية هذا المحور أو المركز الى العناية بذات الكاتب وجعلها بؤرة التجربة الشخصية ٠

ومهما يكن من أمر الموضوعية وعدم الموضوعية فى أنواع قصة (الصورة) فان كثيرا من كتابها ذهبوا فى عنايتهم بالواقع الى التصريح بأنهم ينقلون عنه نقلا حرفيا وكأنهم فى كل لحظة يقولون : أليس هذا هو الواقع ، أليس هذا ما يحدث فعـلا ؟ وتحت تأثير هذا الاتجاه اتسعت القصة القصيرة للوحات الانشاء والوصف الطبيعى حتى أمكن لها أن تشكل حدائق فيها من أطايب الأزهار وأفانين الأشجار ما فيها ٠٠٠ وملئت القصة أحيانا أخرى بفضلات الواقع ودقائقه وتناقضاته ومفاجآته أيضـا ، وتحولت ثالثة الى العناية بالحادثة أو الخبر دون دلالات خلفية أو دون فهم واع لطبيعة العمل ولفن القصة القصيرة ٠

وفى الواقع لم تمتد فترة قصصية فى تاريخ الأدب السورى كما امتدت فترة المحاولة أو فترة القصة (الصورة) ، لقد وجدت فى أدب المهجر ومثلتها « حكايات المهجر » لعبد المسيح حداد منذ وقت مبكر ، ثم انتقلت الى البيئة نفسها فى أواخر العشرينات وبلغت أوجها فى الثلاثينات وأوائل الأربعينات وما تزال تمتد الى اليوم ، ومع هذا الامتداد الفسيح فى المكان والزمان تطورت القصة (الصورة) أيضا نحو العناية بالمادة الخام • كان كتابها فى البداية يلحون على انهم ينقلون فيها صورة طبق الأصل عن الحياة ، ويذهبون فيها مذهب النقد الاجتماعى الساخر أحيانا والفكاهى أحيانا أخرى • ثم تطوروا فيها الى أن خلصت من حكاية طبق الأصل هذه وأصبحت تمزج الخيال بالواقع ولا تعنى الا ذاتها ولكنها فقدت الحبكة الفنية التى تهبها الصنعة وتجعل منها عملا ذا بناء بارع ومحكم •

وبين هذين الحدين أو التطورين ، النقل المباشر ، وفقدان الحبـــكة كانت محاولات لكتاب مغمورين ولكتاب مشهورين ، وقد كثروا كثرة جعلتنا نقســمهم الى قسمين : القسم الأول الكتاب الجانبيون والقسم الثانى الكتاب الممثلـــــون للفترة والأولون اما أن يكونوا نشروا قصصا قليلة على مدى زمنى رحب ثم أصـــدروها فى مجموعات فى وقت متأخر ، خالصة من وضعهم أو ممزوجة بترجمات اعجبوا بها ، واما أن القصة القصيرة لم تكن شغلهم الشاغل ولا انتاجهم الذى شهروا به ، ونحن نعتقد من هذه الجهة أن العمل الأدبى حاجة ملحة فى النفس ، وليس مجرد نزوة وأن الفن نبع ثر ، وليس نزهة حول النبع ، ولقد كان أكثر هؤلاء هواة حاولوا ان يكتبوا القصة ولكن لم تكن عند أكثرهم قصة للكتابة ، ويمكن أن نمثل لانتاج هذا القسم بمجموعة « سامى الكيالى » « أنواء وأضواء ١٩٤٧ » التى يعترف صاحبها فى مقدمتها بانه ليس ممن عالج القصة ، وبمجموعة « طيف الماضى » لنسيب الاختيار (صـــدرت عام ١٩٥٢) وترتد قصصها الى ما قبل هذه الفترة بكثير ويعترف الكاتب بأن هذه المجموعة لا تمثله وأكثرها من جنس الحكاية أو (الحدوتة) ، وبمجموعة « خليـــل الهنـــداوى » الأولى «الحب الأول صدرت عام ١٩٥٣» «ثم صدرت له مجموعة ثانية تاريخية بعنوان « دمعة صلاح الدين عام ١٩٥٨ » وتضم الأولى عشر قصص ست منها مترجم والأربع موضوع ، وتتخلف هذه القصص كثيرا عن مفهوم صاحبها الأدبى ، والهنـــداوى على العموم يمكن أن يدرس ككاتب مسرح أفضل مما يدرس ككاتب قصة قصيرة ، وغير هذه المجموعات كثير •

أما القسم الآخر من الكتاب فنستطيع أن نرصد لهم اتجـــــاهات تغلب على مجموعاتهم واختلاف أدوارهم فى خدمة القصة القصيرة يضطرنا أن نرتبهم ترتيبـــا تصاعديا ، ومن حسن الحظ أن هذا الترتيب لايتعارض مع الزمن المجرد •

من هؤلاء (على خلقى) فى مجموعته « ربيع وخريف ٧ قصص صـــدرت عام ١٩٣١ » واستمد مادتها من نطاق خبرته ومشاهداته المبـــاشرة ، ومن حيـــاته البوهيمية المعذبة التى عاشها فى مطلع شبابه ، واستوت لديه فيها كل القيم ، ولكن

هذا الاستمداد غير مقصود لذاته ، فقد كان يستهدف الكاتب من ورائه شيئا آخر هو النقد (الاجتماعى) ليصفع المواضعات الاخلاقية الكاذبة ، ورياء المجتمع البشع الدميم ، ويكشف فى أعماله (وكلها قصص شخصيات) موقف الطبقات ومستويات المجتمع السورى المختلفة ، ومثلها فى ذلك مجموعة « محمد النجار » « فى قصور دمشق صدرت عام ١٩٣٧ ، ٣١ قصة » وان اتجه الكاتب فيها الى التركيز على ما يسمى (بالفضائح) يتخيرها من نوع خاص لايخرج عن نطاق (الحب المحرم) ، ويبدو ان النجار كان يملك حاسة قوية يشم بها رائحة هذه الفضائح لدى الطبقة البورجوازية التى تقلدت زمام المجتمع والتى يمكن ان نعتبرها فى ذلك الوقت الرسول والمجرم معا ، وقد هوجمت قصص النجار منذ أن خرجت الى الاسواق بمقاييس تشير كلها الى الاخلاقية الجنسية ، وخطايا هذه الأخلاق لاتتحملها المراة وحدها وانما يشاركها فى ذلك الرجل ، والجنسان على السواء هما نزلاء هذا الفندق (الدنيا) الذى يرتكب فيه العار والقتل والخيانة ، ومع ذلك تفتح ابوابه دائما لاستقبال ضيوف جدد ، والنجار يخلط كثيرا بين حقائق الجنس وبين الشذوذ الجنسى ـ تحت تأثير مفاهيم المجتمع ـ أو يخلط بصورة أخرى بين الانحراف فى السلوك نتيجة مكونات الشخصية وبين الانحراف الذى يسببه ضغط المجتمع ، وتتحمله العادات والتقاليد ، ونقدر من هذه الجهة أن نرجع أكثر صور الشذوذ التى عرضها الى أخطاء فى المجتمع الذى لم يتحرر من المفاهيم القديمة لارتباطات الرجل بالمراة لا الى مايسمى بالشذوذ بالدلالة النفسية للكلمة ، ومع حرص النجار على اقتناص شخصياته الشاذة فانه لم يبرز فيها العمق النفسى ، ولا الدلالة البعيدة أو العقد التى تتستر وراء السلوك الظاهر ، لقد كان يكتفى برصد القشرة الخارجية للشذوذ دون ان يقف عند معناه البعيد ، ولذلك جاءت شخصياته الشاذة لاتحمل أبعادها الذاتية كعينة (فردية) وان حملت دلالتها النمطية كعينة (فصيلية) وتفقد قصص النجار روح الفن الذى يرفع القصة من مقام (الحادثة) الصحفية اليومية الى المجال الانسانى ، وينقصها تلك الحرارة التى تشعرنا بان النجار يحس ما يكتب وليس متفرجا يصف الحوادث ويرصد الشذوذ فى السلوك ، انها ـ كقصص زميله السابق ـ مجرد (ريبورتاجات) صحفية ملخصة .

ونضم الى هذا القسم قصص « على الطنطاوى » فى مجموعته (قصص من التاريخ) و (قصص من الحياة) والطنطاوى فى كلتا المجموعتين ذو موقف واحد لايتغير هو موقف الواعظ ، فالروح الحارة التى دفعته الى تصوير أثر الدين على الرجال فى الأولى هى التى دفعته الى الدعوة للنهضة الاسلامية من جديد فى الثانية ، أى أنه كان صاحب هدف (وظيفى) فى قصصه ، وهذا الهدف كثيرا ما يحيل القضايا الاجتماعية التى يعرض لها الى رؤى (ميتة) لا تستقيم مع تطور الزمن ، واذا وقفنا معه عند قضية تكاد تكون القاسم المشترك الاعظم لاغلب قصصه وهى قضية « المرأة والاختلاط والخطيئة » هذا الثالوث غير المقدس ـ وجدنا أنه لايتعدى الفهم الرجعى القديم الذى جعل من المرأة مركز الخطيئة او صيرها متعة او رفعها الى مصاف الرياش وأفقدها طيلة قرون وضعها الانسانى الصحيح ، وجميع الموضوعات فى قصصه تدور فى عالمين عالم الخير وعالم الشر ولا تمازج بينهما والكاتب يحض على العيش فى الأول

وينهى عن العيش فى الثانى ، والخير والشر عنده بالدلالة الدينية لا بالدلالة النسبية وهو يعد الاسلام (اليوتوبيا) الفاضـــلة لكل زمان ومكان ، وهو فى مجموعته (مسجل) ، وهذه العقلية التسجيلية تحكم كل قصصه ، وتطغى على جميع اللمحات (الحكائية) فيها ، وهو يبدأ من الواقع القريب (الحياة) أو البعيد (التاريخ) ولكنه يحرص اولا على (الامانة) - بشكل أو بآخر - ثم ينطلق ثانيا فى أوصاف ونعوت لاتفيد هيكل القصة ولا عملية بنائها وان (مدت) فيه ، ثم يرتد ثالثا الى الأشـياء العادية كما بدأ منها ولم يصب قصة او لم يصب فنا ولا ما يشبه الفن .

ومن كتاب القصص الصور ايضا الكاتبة « وداد سكاكينى » التى مازالت منذ سنة ١٩٣٥ الى الآن تدفع بالكثير من القصص الى السوق وقد اختارت معظمها فى أربع مجموعات هى « مرايا الناس ١٩٤٥ »و (بين النيل والنخيل ؟ » و « الستار المرفوع ١٩٥٥ + ١٩٦٣ » و « نفوس تتكلم ١٩٦٢ » ويمكن أن نسقط المجموعة الأخيرة من الدراسة لأن خمسا من قصصها الست كان قد نشر فى مجموعتها الأولى والثانية بنفس العنوان أو بعنوان غيره ، وتعرض الكاتبة فى هاتين المجموعتين صورا من العادات والتقاليد الشعبية فى كلا الاقليمين السورى والمصرى ، ويحس القارىء لمجموعتها الثانية خاصة أنها مجرد « سائحة » لاتلفتها فى البيئة الجديدة غير المناظر الشعبية والتقاليد ، فتحاول أن ترسم لوحات لها ولمراسم الاحتفالات الدينية وغير الدينية ، ونحن نتساءل عن قيمة القصص التى تقتصر على تسجيل العادات والشعائر والتقاليد ؟ ان القصة القصيرة - كعمل ادبى - ليس من مهمتها أن تزودنا بمعلومات غير فنية ، والقصة التى تقصر غايتها أو تكون من مهمتها هذا التزويد أو التسجيل تصلح مادة لغير الفن ، قد تنفع فى علم الاجتماع وفى الدراسات الفولكلورية ولكنها لا تحمل أية قيمة فنية ، والسكاكينى عندما كانت تورد صور العادات والتقاليد كانت توردها لذاتها ، وتتعمد دائما اثباتها ، واشارت هى الى ذلك ، بحيث بدت مثل هذه الصور كأنها (رقع) فى نسيج القصة العام أضرت به كما أضرت بهيكل القصـة وبنائها ، وصورها تمتلىء بالدقائق والجزئيات ، بل تكاد تطفح دون ضرورة بكل تفاهات الواقع المباشر ولحظاته الميتة ، وتنقل عنه اخبارا لا علاقة لها بما ترويه ولا تساعد على تطور الفعل أو الحادثة وتنساق وراء الانشـاء فتقدم جملة من اللوحات الوصفية لا اهمية لها سوى ما أرادت الكاتبة من بيان مقدرتها على الصياغة الأسلوبية، وربما كان الفهم الكلاسى للقصة من أنها حكاية أولا ثم متانة فى الاسلوب ثانيا هـو الذى أصاب القصة عند الكاتبة بعقم لم يفدها شيئا .

ويتوج هذا القسم من القصة (الصورة) مجموعة « فؤاد الشائب » « تاريخ جرح ١٥ قصة » التى صدرت عام ١٩٤٤ ولكن قصصها تنسحب موزعة على مدى أربعة عشر عاما قبل هذا التاريخ ، والشائب فى قصصه القليلة والمنوعة فى الموضوع والاتجاه والمعالجة يذهب مذهب ارضاء النفس فهو لايكتب ما يكتب الا تحت الحاح تلك الساعات التى يشعر فيها المرء بالحاجة القصوى الى ارضاء نفسه فحسب ، ولعل من طبيعة هذا التفتيش غير المنتمى أن يكون عدو الالتزام ومن هنا تمرد الشائب على

مبدأ (الوجوب) فى الانتاج الأدبى ، والقصة كما يفهمها (قطعة من المحيط) أو (صورة) أن (سيرة نفس) ولا تحتمل عنده الموضوع (الفكرة والعقدة والغاية) وانتاجه القصصى كما يتجلى فى مجموعته ينطبق مع هذا الفهم تارة ويخالفه أخرى ، وهو يؤمن فى جميعها بالعفوية فى كتابتها ، ويكره الخطط المرسومة ، ومعظم قصصه (الصور) تحقق تلك (الموضوعية) التى طالما فقدناها فى قصص الفترة ، ويحاول الكاتب أن يعرضها فى أرض حيادية خارج نفسه ونفس القارىء ، وقد أفادت هذه الموضوعية الصور فتلقتها من (التقرير) الى (الايحاء) وليس من شك فى أن قصص الشائب تخلو من كثير منمساوىء القصص (الصور) وتستبدل بها حسنات الا أنها تقصر عن أن تبلغ مرتبة (حرفية) الفن لأنها تفقد الكثير من مقومات هذا الفن ، ولا يكفى أن يكون الكاتب صادقا مع موقفه النقدى أو غير صادق حتى تعد أعماله اعمالا فنية رائعة ، لأن الفن صنعة وتكاد القصة القصيرة تبلغ أعلى درجات هذه الصنعة ، أما الشائب فيرى فى تأليف القصة القصيرة ، عادة من العادات المشئومة باغرائها ، وليس جانبها ، وسهولة أخذها ، وسطحية تفكيرها على الغالب ، ثم باقبال القراء عليها واستزادتهم منها ، ويسمى هذا النوع من الأدب (أدب النفس القصير) ويعتقد أنه ليس تعبيرا عن هوى الكتاب وارادتهم بقدر ما هو أدب خلقته الصحافة اليومية المتادبة لقضاء الضرورة وحكم الحاجة ولذلك فهو شديد الحرص على أن يكافح الأدباء جهد الطاقة ذلك النوع من الاستنزال الأدبى ليخرجوا من كفاحهم ظافرين بخلق أدب رفيع ، عميق ، طويل الجلد ، يزرى بمشاغل الصحافة وحاجاتها.

ونعتقد ان هذا الموقف خاطىء من أساسه لأن القيمة الفنية للعمل الأدبى لاتقاس بمقدار ما له من حجم ووزن وانما بمقدار ما فيه من صنعة وبمقدار ما فيه من حقيقة انسانية راعشة بالحياة ، أى بمقدار ما فيه من فن ، ونحن نضع العمل القصير عند الحكم جنبا الى جنب مع العمل الطويل ، أما أن القصة القصيرة لينة الجانب ، سهلة المأخذ فكلام لا يقوله الا من يجهل خصائصها وطبيعتها ، انى أذكر فى هذه المناسبة كلمة لمارسيل بريفو يقول فيها « **أما أنا فاقول بعد التجربة الشخصية ان كتابة** قصة قصيرة تنبض بالحياة وتتوفر فيها جميع الشروط المطلوبة لضرب من البراعة وانى لأعترف بكل صراحة اننى أتهيب معالجة القصة القصيرة واحذرها خصوصا اذا كان على أن أكتب دائما ، وفى تصريح لسمرست موم قاله عندما زار مصر فى منتصف الخمسينات انه لا يستطيع أن يكتب قصة لأنه فقد القدرة على ايجاد قصة للكتابة .

على أن المهم فى رأينا ليس صعوبة القصة او سهولتها ولا أن يكتب الكاتب عملا صغيرا أو كبيرا وانما المهم أن يكتب فنا ، فهل استطاع الشائب فى قصصه القصير (النفس) والقليل أن يصنع هذا الفن ؟ لقد اعترف أنه فى مجموعته لم يجترح أية محاولة فى اصطناع الفن ، وأنه ترك صنع ذلك الى روايتين وعد بانجازهما ، ومعنى ذلك أن بين قصصه وبين الفن ذلك الخط الدقيق الذى لم يستطع أن يجتازه : خط الصنعة ، والقارىء المثقف يخرج من قصصه بلا شىء لأن الحرارة التى خدعته الى لحظات قد انطفأت ، وليس ثمة من أمر يذكر لا من ناحية الموضوع ولا من ناحية اللمسات الفنية فى التقنية ، ولا حتى من ناحية الرصيد الانسانى الذى هو أثمن ما فى العمل الفنى •

كان هؤلاء أهم من مثلوا القصة (الصورة) السورية ، وقد انصرف معظمهم عن كتابة القصة القصيرة بعد أن أصدروا مجموعة أو اكثر ، واستغرقتهم مجالات أخرى بعيدة كل البعد عن القصة بخاصة وعن الأدب بعامة ، فخلقى والنجار لم تعد تسمع لهم حسا فى أى وجه من أوجه النشاط منذ زمن بعيد ، والطنطاوى شغلته آخرته عن دنياه ، والشايب حظى به (اطاره الأخير) ـ الوظيفة الروتينية ـ ، ولم يتابع السير على الدرب منهم الا القليل .

والآن ما قيمة الشكل فى هذه القصص (الصور) على اختلاف درجاتها التى تنقل الواقع كما هو ، أو تمتلىء بفضلاته ودقائقه ، أو تحتشد باوصاف الطبيعة والجو أو التى تفتقر الى الصنعة ؟ .

ان الملاحظة الأولى فى هذه القصص أنها مزيج (كيماوى) ، من القصة ومن اللاقصة ، ففيها من الالتفاته الى الهيكل الروائى شىء ومن القالب المقالى شىء ، ومن شكل الحدوتة والاسكتش شىء ثالث ، ونحن نعلم أن القصة القصيرة الفنية ليست هذه الأشياء مفردة ولا مجتمعة ، بل انها أبعد ما تكون عنها ، انها مركب (فيزيائى) يتم بنسب معينة ، وهى انْ قامت على (السرد) الا انها لاتمت بصلة الى فن الرواية وان عبرت عن (موقف) معين الا أنها ليست مقالة ، وان اتصفت بصفة التركيز أو الايجاز الا أنها أخيرا ليست حدوتة ولا اسكتشا .

والأسلوب فى هذه القصص يتراوح هو الآخر بين الجزالة (الطنطـــاوى) ، والتلوين الجميل (الشائب) ويصل الى درجة السوقية والعادية (خلقى ونجار) ، ونحن نرفض فى كل هذه الأحوال وفى غيرها ان نعادل الشكل القصصى بالاسلوب نرفض أن يكون الاسلوب وحده ـ والانشائى منه بخاصة ـ كما يلح الكثير من كتاب الفترة . هو عماد حكمنا على القصة القصيرة وخلاصة تقويمنا لها ، ان ثمة فرقا كبيرا بين الأسلوب والشكل الفنى ، ان الاسلوب شىء شخصى يتعلق بالـــكاتب ذاته أما الشكل فشىء يتعلق بالعمل نفسه .

وتبدو الشخصيات القصصية غير ناضجة لم تستكمل بعد لمحاتها الانسـانية المفردة ، ولم تخلص من النموذجية والاصطلاحية والسطحية أى من ظواهر الشخصية البدائية ، ففيها الى جانب بعض السمات المميزة تناقضات فى التصرف لامبرر فنيا لها ، وفيها ذلك الانشطار ـ المزدكى ـ العنيف الى ظلام ونور ... والكثير منهـــا شخصيات بيوجرافية تناولها الكتاب على اتساع ورحابة ، والشخصية فى القصـــة القصيرة ان تطورت جزئيا من الداخل فانها لاتخضع للتطوير الكلى منذ بداية القصة حتى نهايتها لأن هذا العمل المحدود لايرسم لنا شخصية كاملة ولا يعطينـــا امتداد حياتها ، وانما يرسم شريحة من هذه الحياة او لحظة من لحظاتها .

وقد وقعت القصة تحت تأثير ارتباطها التسجيلى بالواقع المباشر ان تبدأ بلحن

وتنتهى بلحن غيره أو تختار الاخبار وما حول الأخبار ، وتكتفى فى الكثير من الأوقات بعرض الحادثة ، والشكل الفنى فى القصة القصيرة ترتبط نهايته ببدايته ، ويكون الخبر فيها منفصلا عما حوله ، ولا يرتكز عما قبله ولا عما بعده ، وتكون الحادثة — ان وجدت — ليست مقصودة لذاتها بل لدلالتها أو معناها .

وفى نوع معين من هذه القصص هو قصص الجو تفقد القصة حركتها فى منظر صامت يمتلىء باللوحات ، وبالطبع نحن لا نفرض على هذا النوع الحركة الديناميـة التى هى من سمات القصة الفنية ولكنا وقد قبلناه شكلا من أشكال القصة لا نستطيع أن نعده فنيا على الاطلاق .

والشكل — أخيرا — فى العديد من هذه القصص لايبنى بناء محـكما بعلاقات بين أجزائه سليمة ولا يتم تركيبه بنسب معينة ، ومع ذلك فهو لايخفق ولا يسقط كما أخفق وسقط فى الفترة البدائية والرومانسية عندما ارتبط بالرواية والمقالة وانما يظل يتأرجح فى غير توازن لأنه ضل طريقه الصحيح .

وليس من شك فى أن هذه القصص — على علاتها — تعد خيرا مما سبقها ، ان فيها بوادر الأمل بالمستقبل لأنها تملك العديد من المقومات وتتلامح على قسماتها هنا وهناك — كالنجوم — تجارب لم تتم — وسط الظلام — تبحث عن اليد الصناع .

أين أنت

بقلم

صوفى عبدالله



دقت الساعة عشر دقات ، وتململ مصطفى فى رقدته فوق الحشية المصنوعة من قش الأرز . وأحس لعظامه طقطقة كتلك التى تصدر عن صوت اخشاب مستهلكة صنع منها اثاث عفى عليه الزمن فى ليلة قائظة الحرارة ... وسرت فى بدنه قشعريرة رغم ان الوقت كان منتصف اغسطس والحرارة المشبعة بالرطوبة تكاد تزهق الانفاس، وحاول ان يفتح عينيه المتعبتين ولكن جفونهما أبت ان تنفرج الا قليلا

عجبا ! اين هو ؟ ان الحجرة ليست حجرته ولم تقع عينه على هذه الاشياء من قبل ! ...

ومد يده فى وهن شديد يتحسس الحشية عن جانبيه ، وانفرجت شفتاه على صوت ضعيف :

ــ أمى ... اين انت ؟

ولم يتلق جوابا على ندائه .. ولو انها اجابته لما امكنه ان يسمعها . فقد احس انه يسبح من جديد ... يسبح فى فضاء لانهائى . وقد تخفف من جسده وهو يحلق ويشرف على الكون من حوله ... وراعه منظر الخضرة والزهور والفاكهة تملأ الارض من تحته ...

هنا كان يحلم دائما ان يعيش .. طالما راوده هذا الاحساس فى احلام اليقظة وهو يقلب صفحات احد الكتب المصورة التى اعطاها له عادل . عادل زميله فى المدرسة ، وصديقه الطيب... وكان يقول له كلما راى فرحه الغامر بها : ان عمه احضرها له من سويسرا.. ففى سويسرا يعيشون فى فيلات جميلة،

وكل فيلا محاطة بالزهور والفواكه وكل ماتتمناه النفس ... وعادل من اسـرة كبيرة ، غنية . يأكلون على المـوائد الفخمة . ويسكنون فى منزل كبير . كبير جدا . فيه حجرات كثيرة . ولديهم تليفزيون وراديو. ولعادل حجرةمستقلة حجرة خاصة به وحده ، مع انه صغير مثله . فى مثل سنه تماما . فى الحادية عشرة من عمره . وله فيها سرير فخم عريض يتسع لأربعة اشخاص . وربما اكثر .. من يدرى ؟ ودولاب . ومائـدة للزينة . ومكتب عليه قرص من البـلور السميك . وسـجادة كبيرة . وعلى المكتب اباجورة . فضـلا عن مصباح مستدير كالكرة يتدلى من سقف الحجرة كالذى يراه فى المحال العامة .. ولديه العابكثيرة . لديه ميكانو ونرد ودومينو وقطار سكة حديدبسيمافوراته ومحطاته ولديه مكتبة خاصـة فى حجرته حافلة بالكتب المصورة التى احضرها له عمـه من سويسرا ومن البلاد الأخرى الكثيرة التى يسافر اليهـا دائما . وعمه رجل طويل . عريض . احمر الوجه.جهورى الصوت كان مصطفى يخافه كخوفه من والده تماما .

وعاودته رجفة شديدة مصـحوبة برعب واحس بأسنانه تصطك : ها هو والده بعينيه المفزعتين يحاول ان ينتزعه من بين احضان أمه وأمه المسكينة تصرخ بأعلى صوتها . وتبكى وتولول . ولكن صوتها ضعيف مكتوم فهى خرسـاء ، لا تستطيع الكلام . لن يسـمعها احد وهى تستعطفه ، وتجثو تحت قدميه كى يتركه لها ، لانها وحيدة وليس لها غيره فى الحيـاة ... ان اباه رجل قاس متوحش ... ها هو يرفسها بحذائه ثم يجذبه من ذراعه .. وذراعه يكاد ينخلع من جسمه ... ها هو يبصق فى وجهها ويتوعدها ويخرج مزمجرا صارخا وهو يسبها ويتوعدها بأنه حينما يحضر فى المرة القادمة لن يكون بمفرده بل سيعود ومعه شرطى لياخذه منها بقوة القانون . واحس بأمه الحبيبة امه المسـكينة .. أمه الوحيدة .. أحسـها تحتضنه بين ذراعيها بقوة ، وتبكى بمرارة فترة طويلة بعد خروج والده . لقد خرج وصـفق الباب وراءه وهو يرغى ويزبد بسباب لا حصر له ...

وتأوه مصطفى وفتح ذراعيه وضمهما حول راس امه لقد اسـتأثرت بذهنه المتفتح لمعرفة كل شيء كلمـة غريبة سمعها لأول مرة فى حياته بين سـيل الشتائم المألوفة التى تدفقتمن فم ابيه :

— ما معنى هذه الكلمة يا امى ؟

وبصقت امه على الارض بتقزز . لم تكن تتفاهم بالكلماتوضمته الى صدرها وراحت تمطره بالقبلات ودموعها تجرى على خديه ورقبته وتنحدر الى قميصه المشجر. القميص الذى اعطته له«الست شمائل» صاحبة البيت الذى يقطنان فى حجرة من حجرات الدور الأرضي فيه .. وكان يلبسـه مع البنطلون البلوجينز الأزرق البنطلون الجميل الذى اشـترته له امه من الاوكازيون . وهو يزهو به امام الزملاءمن تلاميذ المدرسة . انه مزين بازرار ذات خيوط حمراء . وجيوب من امام وخلف . وله حزام تتدلى منه مطواة للزينة . وفوق الجيوب زخارف .

... وتسـاقطت الدموع من عينى مصـطفى . لقد مزقه له والده وهو يحاول انتزاعه من بين احضان امه . تمزق جيب البنطلون .. وراح يبكـى

على البنطلون اكثر من بكائه على ذراعه « الملوخ » نسي آلام ذراعه وواسته امه . وخاطته له ، ولكنه لم يعد جديدا كما كان ... فيه رتق يبدو واضحا للعيان يداريه مصطفى باستمرار : يضع دائما يده عليه لكي يخفيه عن اعين التلاميذ حتى لا يشمتوا به ...

لقد سأله عادل يوما من اين احضره فاخبره . اخبر عادل فقط ، اما الآخرون فلم تخبرهم حتى لا يلبسوا مثله . ويوم رأى شهابا يلبس واحدا مثله تماما تملكته الحسرة ولكنه استطاع ان يجد فيه عيبا اراه للتلاميذ واكد لهم ان بنطلونه افضل . وصدقه التلاميذ . عادل على الأقل صدقه . رغم انه كان يعلم ان بنطلون شهاب افضل .. لقد وعد امه انه سيتفوق ويذهب الى سويسرا ويأخذها معه ، وهناك يسكنان فى فيلا جميلة حولها زهور وفواكه وخضره لن يعرف والده مكانهما ، هناك يعيشان فى سعادة ويأكلان على مائدة فخمة مثل اهل عادل . ويحضر لها ملابس جميلة خضراء وحمراء وصفراء . وتصبح اجمل امراة فى العالم ..

واشارت له امه اشارات بسبابتى يديها مجمعتين ، تريد ان تسأله وعيناها تضحكان :

— الن تتزوج يا مصطفى ؟

واقسم لها انه لن يتزوج بغيرها . سيتزوجها هى . اليس والده قد طلقها لماذا اذن لا يتزوجها هو ؟ .

فقالت له بالاشارة والنظرة المنكرة الضاحكة فى آن واحد :

— الابن لايتزوج امه .

وطمأنها قائلا بكل يقين .

— فى سويسرا يتزوج الابناء من امهاتهم اذا شاءوا ... فدفت صدرها صائحة باصواتها المبتورة ، فادرك انها تسأله :

— من قال لك هذا ... ؟

فأجابها وهو يهز راسه هزة العليم :

— لقد قرات فى الكتب . وكذلك اخبرنى عم عادل وهو يزور سويسرا كثيرا ومختلط باهلها ويقصون عليه كل اخبارهم ... الناس كلهم هناك يتزوجون امهاتهم ... !

وتضحك امه وتضمه الى صدرها وتقبله وتتمنى له ان يكبر ويتزوج ويسعد بزوجته وهى تربى له اولاده ... وينهرها غاضبا انه لن يتزوج من غيرها طوال حياته .

واحس مصطفى كانه يسبح فى بركة من الماء : وضايقه التصاق الملابس بجسمه ، فهم بالجلوس بيد انه لم يستطع . احس بتخاذل فى جسمه ، ووهن فى اعضائه ..

اين امه ؟! لماذا لا تأتى لتراه ؟! اين ذهبت ؟! ابدا لم تتركه قط ينام بمفرده ! ابدا لم تبتعد عنه ! .. كانت تأتى اليه قبل ان يطلبها ... كانت اول ما يفتح عليه عينيه فى الصباح . ولكن العتمة تملأ الحجرة . وليس من عادتها ان تترك الحجرة مظلمة فى الليل ، فهى تعلم انه يخاف العتمة .. اين ذهب المصباح الساهر الذى كانت تعلقه فى المسمار على الحائط امامه ؟! لقد كان يتبين كل شيء على نوره الضعيف فى حجرتهما الصغيرة . الدولاب . والكنبة العرجاء ،

والمنضدة الصغيرة التى كان يكتب عليها واجباته المدرسية . وكرسيه الخيزران . والطبلية التى يأكلان عليها هو وامه .. نعم انهما يأكلان الآن على طبلية لأن والده ليس معهما كوالد عادل . ولكنه حينما يكبر ويأخذها الى سويسرا سيأكلان على مائدة فخمة . وسيحضر لها حجرة نوم كحجرة والدة عادل .. انه لم يرها الا من بعيد ، وهو يعبر الدهليز الى حجرة عادل ... ولكنه لمح بها مرآة كبيرة جدا .. مرآة تغطى معظم الحائط موضوعة فوق زجاج بلورى كبير عليه زجاجات منجميع الاحجام والاشكال ... وام عادل لها رائحة جميلة ، رائحة شهية ... وسوف يحضر لامه زجاجات كتلك التى عند ام عادل . وثيابا أيضا مثل أم عادل . وامه حين تلبس وتتعطر سوف تصبح أجمل من ام عادل . وسيعلمها كيف تمشي وتتبختر كام عادل ...

ووالده . ربما عاد والده ليعيش معهما . ولكنه لا يحبه لانه قاس . كان طول عمره يحلم بأن يعود اليهما .. وكانت امه تقول له : سيأتى يوم يأخذك فيه والدك . وكان يبكى ويتعلق برقبتها ويتوسل اليها الا تتركه لوالده ... ثم يهدأ فوق صدرها ويسألها :

ــ وكيف شكل والدى يا أمى ؟

كان يظن ان والده مثل والد عادل . طويل نحيف ، ابيض الوجه ، طيب لطيف .. والد عادل كلما رآه يسأله عن دروسه .. فهو أول الفصل دائما ، وعادل الثانى من بعده . كان الفرق الذى بينه وبين عادل لا يقل عن عشر درجات ، واحيانا يزيد ... ووالد عادل يحبه ... وعادل أحيانا يعطيه من ملابسه الداخلية ويقول له ووجهه يحمر لا يدرى لماذا ؟

ــ خذ هذه يامصطفى لانى اريدك ان تلبس مثلى ...

انه يحب عادل ، ويحب أن يلبس مثله ومن ملابسه أيضا .. أما والده فمنظره مختلف كل الاختلاف عن والد عادل ... فهو قصير ، سمين ، داكن اللون ، له شفتان غليظتان وعينان قاسيتان ، وشعر اسود جعد . وحينما رآه منذ سنتين لأول مرة فى حياته لم يربت عليه ولم يأخذه فى حضنه كما تفعل والدته ... ولم يسأله عن دروسه كما يفعل والد عادل ... بل جلس يكلم والدته فى خشونة أرعبته وجعلته يتجمد فى مكانه من ركن الحجرة . ثم ضاق بها وانتفض يهجم عليه ! ففزع الى حضن امه فانهال على ذراعه يحاول انتزاعه بقسوة ... واستماتت يدا امه عليه ، ومزق له جيب بنطلونه الكحلى ... وخرج وهو يتوعد بأنه عندما يحضر فى المرة القادمة لن يكون بمفرده . سيكون معه شرطى ليأخذه منها بقوة القانون . لقد كرهه منذ هذه اللحظة وتمنى الا يعود ...

وان مصطفى انينا خافتا . وتنبه الى نفسه قليلا ... وعاد ينادى بصوت واه :

ــ امى ... اين انت ؟

وشعر بيد تتحسس جبينه . لابد انها يد امه . وحاول ان يرفع يده ليمسك بها . واراد ان يستدير على جنبه ليلتصق بجسد امه ، ولكنه لم يستطع ان يرفع يده ، ولا ان يتحرك من مكانه احس

يده بجانبه ككيس من الرمل ، اما جسمه فكتلة من الحجر راسخة على الارض .

لماذا لا ترد على ندائه ؟

ها هو يراها فى ملابس زاهية جميلة تخطر كلم عادل ، وتتضوع برائحة عطرة .. تنظر اليه من بعيد ولا تقترب منه ، وراح يشير اليها ويناديها ولكن صوته احتبس فى حلقه ولم يصل الى شفتيه ! .. العلها لا تراه ؟ انها مزهوة بنفسها وبملابسها وجمالها تذهبوتجيء كانها تطير فوق الارض ! دون ان تعنى نفسها بالقاء نظرة عليه ! ..

اتكون قد نسيته ؟ العلها نسيت ان لها ابنا اسمه مصطفى ؟! لماذا تتحاشي النظر اليه ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

وجمع كل قوته وصاح بقدر ما اسعفته حنجرته !

— امى ! الا ترينني ؟!

ونبههصوته ، ففتحعينيه فاذا بصيص من نور خافت يتسلل من فرجة باب يفتح على مهل وفى حذر شديد. .واطل راس أشعث داكن يتبعه جسم ضخم انحشر فى فرجة الباب ، وامتدت قدم الى داخل الحجرة وانفرج الباب ليسمح للجسم بالدخول . وفتح مصطفى عينيه على سعتهما وقد اطل منهما ذعر شديد وهو يرى والده بشعره الاشعث ، وجسمه الضخم ، كانما سينقض عليه . وصرخ صرخة مروعة واغلق عينيه وانتابته رعشة :

ها هو قد عاد مرة أخرى ... عاد فى هذه المرة ومعه الشرطى ... عاد لياخذه منامه بحكم القانون...فالقانون يحتم عليه ان يذهب الى والده فى سن التاسعة ، ولكنه تركه حتى بلغ الحادية عشرة . تركه ينعم بحضن أمه هاتين السنتين ... لقد توعدها وها هو يبر بوعيده ...

ورفع يديه فى ذعر . وتعلق بعنق امه ... كانت ترتجف .. لم تتكلم... البسته افضل ما عنده : قميصه المشجر وبنطلونه الأزرق المحلى بالرسوم والازرار والمطواه . كان يخلعهما عند ما يعود من المدرسة وتضعهما — بعد ان تنظفهما جيدا — فى الدولاب ، وتلبسه جلبابه . وفى هذا العام فكت ثنية البنطلون واصلحته له لانه كبر ... ووضعت له ملابسه الباقية فى بقجة امسكتها فى يدها وامسكته هو باليد الأخرى ... كان الرعب يملؤه وهو يتشبث بيدها لا يستطيع النظر الى وجه والده .. وخرجت به وفى اثرها خرج والده .. والشرطى .. ومشوا ... مشوا حتى وصلوا الى محطة الرمل ..

وهناك ... هناك عند اشارة المرور مد والده يده لياخذه منها وركعت امهعلى الارض واحتضنته وجعلت تقبله فى صمت فى راسه ووجهه وعينيه وفمه وخديه وهو متشبث بها .. يبكى فى حرقة . وضاق والده بهذا العناق الذى لن ينتهى ، وأثارته نظرات الناس المتجمعين فى فضول ، فمد يده وانتزعه منها فصرخت بصوتها الاجم .. وهى تشير بيديها تستعطفه ، ولكنه كان قد فقد صبره امام نظرات الاستياء التى يرشقه بها الناس فهوى بيده على راس مصطفى ليترك يد أمه التى تشبثت به ، وصرخ مصطفى ، وولولت الام ، وخطا الاب خطوتين وهو يجره جرا ليعبرا الشارع بينما كان يتملص من بين

يديه .. وفتحت اشارة المرور وظهر النور الاحمر ، وتوقف المارة لعبور السيارات . ولم يأبه والد مصطفى لرتل السيارات . ولم يأبه والد مصطفى لرتل عسكرى المرور وهو يأمر بالتوقف ... واخترق الشارع وهو ينتزع مصطفى من الارض انتزاعا ويجرجره خلفه وهو يصرخ بأعلى صوته ويتوسل لأمه ان ترحمه ... والام تولول على الطوار والشرطى يمنعها من اللحاق به ... والسيارات تطلق ابواقها وتمرق فى جنون ...

وهوى والده بكل قبضته على أم رأسه ، واتبعها برفسة قوية من حذائه الضخم فى وسط ظهره ... ولم يستطع مصطفى ان يصرخ لان الدم انبثق من انفه وهوت ركبتاه على الارض وقبل ان تبتلعه دوامة الغيبوبة سمع أصواتا من حوله تقول باستفظاع !

ــ ابوه ؟ مستحيل !! لا يمكن ان يكون أباه !

وشعر بنار تلسع وجهه . ثم احس بشيء رطب على جبهته ، ومن خلال اهدابه المنفرجة رأى والده بجسمه الضخم يجثم بجانبه على الحشية ، ويغمس خرقة فى طبق به سائل له رائحة الخل ... ثم وضعها على رأسه وغمس الأخرى فى الطبق ... واخذ بيده المحلول وراح يدهن كفيه وذراعيه ، ثم تحول الى رجليه يدلكهما ببطء وحنان بالمحلول .. !

واطبق مصطفى اهدابه وهو يستمرىء اللمسة المترفقة : انه ليس رهيبا جدا بعد كل شيء ...

وتمتم والحذر يزحف الى جفنيه مرة أخرى :

ــ سأخذه معنا الى هناك ... سنكون ثلاثتنا معا ...

العهد



تأليف : مورلى كالاجان

ترجمة : رمزى يسى

فى ذلك الصيف قدم لوك بلدوين الى منزل عمه هنرى لكى يعيش معه ، ولم يكن آنئذ قد تجاوز الثانية عشرة من عمره . وكان بيت عمه يطل على مجرى ماء صغير بالقرب من طاحون هوائى لقطع الاخشاب ، ولم ينس « لوك » انه وعد والده قبل موته انه سيحاول أن يتعلم من عمه أشياء كثيرة ، ولذا عكف على ملاحظته ومراقبة طريقة حياته وتصرفه بكل دقة .

وكان العم هنرى الذى يدير هذا الطاحونة ضخم الجسم ، يزيد وزنه على مائتين وثلاثين رطلا ، ذو بشرة سميكة ووجه داكن ضارب الى الحمرة، تبدو عليه مظاهر القوة وان كانت صحته ليست على ما يرام ، فقد كان يشعر بآلام فى عنقه وظهره حيرت الأطباء . وكان أول شىء عرفه لوك عن العم هنرى انه موضع احترام الجميع، وكان الرجال الأربعة الذين يستخدمهم فى أعماله بالطاحون يمتازون بأخلاق حميدة ويصدعون لأوامره وارشاداته. أما زوجته العمة هيلين ، فقد كانت سيدة صريحة عادلة فى معاملة لوك ، ولم يحدث أن لجأت مرة واحدة الى الثرثرة معه أو مناقشته مناقشة جافة .. كانت تنصحه دائما بان يحذو حذو عمه ويتشبه به ، فتقول له فى كثير من الأحيان : انه رجل عملى الى أقصى حد ، يعنى بكل شىء بطريقة واقعية بسيطة .

وكان لوك يسير وراء عمه فى تجواله حول الطاحون لا لرغبته فى التمتع برائحة الخشب الحديث القطع

وحسب ، بل كان يحب أيضا أن يستمع الى لهجة عمه الموجزة الحاسمة مع عمال الطاحون ، والى نصائحه التى يسديها اليه بين الحين والحين ، كان يقول له وهو يمسك بقطعة من الخشب: « حاول دائما يابنى أن تعرف الحقائق الضرورية عن كل شىء وبذلك تستطيع فى يسر أن تميز بين الصالح منها وغير الصالح فلا يستطيع أحد أن يخدعك » ويعزز رأيه هذا بأنه يعرف النافع من بقايا الخشب وغير النافع ، وهو أمر لا يتقنه الا القليل من الناس . وانه وحده الذى يعرف الأغراض التى تستخدم فيها كل قطعة من الخشب مهما كانت صغيرة . ولقد ادرك العم هنرى ان لوك محتاج الى دراجة يذهب بها الى المدرسة ولذا اشترى له واحدة متينة ، كما اشترى له ملابس قوية الاحتمال . وكان يعرف ماتحتاجه العمة هيلين من مال لادارة شئون المنزل ، واثمان كل شىء من مطالب الحياة اليومية ، حتى اجرة غسل الملابس . ويحمل فى سترته دائما كراسة سوداء يسجل فيها كل مساء جميع ما يصرف فى المنزل أثناء النهار.

قطع لوك على نفسه عهدا أن يكون على غرار عمه حين يكبر ، موضع تقدير الناس واحترامهم نتيجة لحسن تدبيره وتقديره للأمور ، ولكنه لم يستطع بطبيعة الحال أن يظل دائما ملتصقا بعمه هنرى ليراقبه عن كثب ، فكثيرا ما كانت ذكرياته الأولى عن والده تصرفه عن ذلك ، ويلوذ بالوحدة والعزلة ويحيا حياة أخرى باطنة ، حياة خاصة به تدور حول كلبه « دان »

... وهو كلب صيد عجوز أعور ، برجله اليسرى الخلفية عرج خفيف ، وقد تقدمت به السن فأصبح بطىء الحركة كسولا ، ولكنه كان ودودا الى أبعد حد ، وعينه الوحيدة فى لون الكهرمان ، وكذلك كان لون شعره . وهو يتبع « لوك » كلما ذهب الى المدرسة صباح كل يوم مسافة نصف ميل أو نحو ذلك . واذا ما عاد لوك من المدرسة وجد صديقه العجوز فى انتظاره عند باب المنزل .

كانا يلعبان أحيانا حول بركة الطاحون أو ينحدران الى أدنى المجرى حتى يصلا الى البحيرة . وكان هناك زورق قديم يركبانه معا ليمثلا دور القرصان فيصيح لوك بأعلى صوته حين يصدر تعليماته الى الكابتن «دان» فكان الكلب يبصبص بذيله فى حماسة كأنه فهم كل شىء ... ويكاد يبدو هذا فى عينه الكهرمانية التى تشع ذكاء ويقظة . ثم يوغلان فى حرج من الأحراج على الجانب الآخر من المجرى ليمثلا دور صيادى الوحوش اذ لم يعد العم هنرى يستخدم « دان » فى صيد الأرانب البرية أو غيرها بعد أن ادركته الشيخوخة . فاذا ما خرجا من الغابة رقدا سويا على الشاطىء الرطب المعشوشب يتبادلان المزاح . وكان لوك يتحدث اليه فى لهجة جادة أحيانا ويخيل اليه ان الكلب يهش له بعينه التى تعبر عن الطيبة والود ، ويقص على «دان» أشياء كثيرة لا يستطيع ان يحكيها لعمه أو زوجة عمه ... لم يكن ما يقوله شيئا ذا بال ، بل حديثا عاديا ربما كان يقوله لوالده أو والدته

لو كانا على قيد الحياة . فاذا ما حان وقت العشاء عادا الى المنزل ليخرجا ثانية بعد الأكل الى منزل مستر « كمب » العجوز ليصحباه اثناء نزهته مع بقراته الأربع فيسر لرؤيتهما وهما يدوران حول بقراته كأنهما يرعيان قطيعا كبيرا على سفوح جبال (روكى)

لم يعد العم هنرى يعير الكلب اهتماما قط ، بل قال مرة وهو يجلس فى شرفة المنزل : « ياله من عجوز مسكين .. ، لقد أصبح كما مهملا لا فائدة منه على الاطلاق ... انه يأكل وينام ويتسكع فى الطرقات وحسب »

وفى يوم من أيام الأحد ، اثناء عطلة « لوك » الصيفية خرجوا جميعا الى الشرفه وكان « دان » نائما هناك ، فجلس « لوك » على السلم متكئا على عمود الشرفة ، وجلس العم هنرى فى مقعده الهزاز . أما العمة هيلين فقد تمددت فى أرجوحتها وأخذت تغنى فى رضاء وحبور . وعندما وقع نظر « لوك » على الكلب ضرب الأرض بكفه ثلاث ضربات اشارة للكلب الذى رفع رأسه على الفور ثم نهض متثاقلا وهو يبصبص بذيله كأنه عرف كلمة السر ، واخذ يعبر الشرفة متجها الى لوك ، وكانت عينه العوراء ناحية المقعد الهزاز وهو يسير شبه نائم ، فداس الكرسى الهزاز قدمه اليسرى العرجاء ، وعوى المسكين عواء الألم ، وأسرع الى أحد اركان البناء وهو يتلوى ، ثم توقف عن السير حين سمع وقع اقدام « لوك » فى أثره ، ولم يكد يربت رأسه مواسيا حتى أخذ المسكين يلعق يده بحركة رتيبة كأنه يعتذر اليه .

ونادى العم هنرى بصوت جاف : « لوك ! هات هذا الكلب »

وعندما قاد لوك « الكلب » الى الشرفة تنهد العم هنرى وهو يقول : « شكرا يالوك » ثم أخرج سيجارا ضخما فأشعله ،ووضع يديه المكتنزتين الثقيلتين على فخذيه ، وأخذ يهز مقعده دون أن يحول نظره عن الكلب ... ولا شك أنه كان يعد قرارا هاما بشأنه .

وسأله لوك فى قلق : « ماذا تريد ياعم هنرى ؟ »

فقال : « ان هذا الكلب لم يعد يرى شيئا قط »

فأجاب لوك بسرعة ولهفة : «حقيقة لم يكن بوسعه أن يرى لأن عينه العوراء كانت ناحية المقعد ... هذا كل ما فى الأمر ياعم هنرى ! »

وأضاف العم هنرى دون أن يكترث لاجابته ! « وقد ذهبت أسنانه أيضا» ثم التفت ناحية الأرجوحة وقال : توقفى لحظة من فضلك عن الاهتزاز يا هيلين » فلما نهضت ووقفت بجانبه تابع حديثه قائلا :

« كنت أفكر فى أمر هذا الكلب العجوز منذ حين يا هيلين ... انه ليس على وشك العمى وحسب ، بل انك لتلاحظين انه لا يكاد ينبح »

« حقيقة ياهنرى ، انه لا يفعل »

« وهو لا يصلح الآن حتى لمجرد الحراسة »

« انه عجوز مسكين ... أليس كذلك ؟ »

« وهو لا يصلح كذلك للصيد ، كما انه ياكل كثيرا ، ولذ أعتقد ... »

« انه يأكل كما كان ياكل دائما ياهنرى !! »

« الحقيقة الواضحة هى أن هذا الكلب العجوز لا يستحق الاحتفاظ به اكثر من ذلك ، وقد حان الوقت لكى نتخلص منه »

« ولكن طريقة التخلص من الكلاب صعبة جدا يا هنرى »

« لقد كنت أفكر فى طريقة ما منذ حين ... ان بعض الناس يرون ان خير طريقة للتخلص من الكلاب هى رميهم بالرصاص ، غير أن بندقيتى عاطلة من الرصاص منذ اكثر من عام واستخدام السم طريقة قاسية بالنسبة للكلب ، وقد يكون اغراقه فى النهر أيسر طريقة ....اننى سأتحدث فى هذا الشان مع عمال الطاحونه لكى يقوموا هم بهذه المهمة »

وصاح لوك وقد أحاط عنق الكلب بذراعيه : « ان دان كلب مدهش ياعم هنرى ! وأنت لا تدرك مقدار ما فيه من وفاء ورقة وذكاء ! »

وأجاب العم هنرى بهدوء : « لقد اصبح عجوزا جدا يا بنى ، وقد حان الوقت للتخلص من أى كلب عجوز .. يجب أن يكون موقفنا منه واقعيا ، وسأحضر لك جروا يابنى ... كلبا لطيفا يستحق الرعاية ...جروا يكبر معك »

وصاح لوك وهو يشيح بوجهه : « لا أريد جروا »

وبينما كان لوك يحيط الكلب بذراعيه ، كان الكلب ينبح ويلعق بلسانه الأحمر عنق لوك . أما العمة هيلين فحين تطلعت الى وجه زوجها اشارت عليه بالصمت فلا يتابع حديثه أمام الصبى وقالت له !

« ان كلبا عجوزا كهذا من عادته ان يلوذ بغابة أو حرج من الأحراج حيث يجد هناك مكانا يموت فيه حين تقترب نهايته ، أليس الأمر كذلك يا هنرى؟»

فأجابها بسرعة : « حقيقة ، حقيقة ... لقد ظننت أنه فعل ذلك حين غاب عن المنزل منذ أيام » ثم تنهد وبدأ عليه كأنه نسى كل شىء عن الكلب .

ولكن لوك أصيب بهلع شديد لأنه يعرف من هو عمه ، وأى طراز هو من الناس . لقد عرف أن عمه اذا ما قرر أن الكلب غير ذى نفع فانه لن يتراجع أمام أى اعتبار انسانى أو عاطفى... وتأكد انه لن يستطيع أن يصرف عمه عن عزمة وأن غاية ما يستطيعه هو ان يبعد الكلب عن عمه ويحتفظ به فى مكان بعيد عن المنزل حيث يقدم له الطعام ويرعاه .

وفى ظهر اليوم التالى رأى لوك عمه يسير نحو المنزل عائدا من الطاحونة وبرفقته « سام كارتر » أحد العمال الذين يستخدمهم فى نشر الخشب ، وهو رجل أبله قبيح الخلقة ، محنى الظهر يناهز الستين من عمره ... ذو لحية رمادية ويرتدى لباس العمال الأزرق ، وهو قلما يتحدث الى أحد من الناس . وقد لا حظ لوك وهو يشاهدهما من شرفة المنزل أن عمه

قدم لسام سيجارا فتناوله ودسه فى جيبه ، ولم يحدث من قبل أن قدم العم هنرى سيجارا لسام فى اى وقت من قبل ، أو حتى يعيره أقل اهتمام .

وبعد تناول طعام الغذاء طلب العم هنرى الى لوك فى شىء من التراخى وعدم الاكتراث أن يركب دراجته ويذهب الى المدينة لشراء بعض التبغ فقال لوك :

« سآخذ دان معى »

واجاب العم هنرى : « خير لك الا تفعل ،لأن هذا سيؤخرك بضع ساعات وانا أحوج ما اكون الى هذا التبغ »

وكانت لهجة العم هنرى غاية فى البساطة بحيث حاول الا يشك فى انه يرغب فى ابعاده عن المنزل وحسب ، هذا الى أنه لم يملك الا تنفيذ رغبة عمه ، وهو الذى لم يجسر قط على معارضته فى اى شأن من الشئون . ولكنه حين ركب دراجته وانطلق الى المدينة ، سار بمحاذاة المجرى وقطع ربع ميل أو نحو ذلك وهو لا يزال يفكر فى ذلك السيجار الكبير الذى اعطاه عمه « لسام كارتر » .

وانحدر مع الطريق على مهل متعبا مهموما ، ثم ترجل من على دراجته ووقف هناك يفكر فى حيرة وارتباك تحت أشعة الشمس المحرقة ... ان كارتر رجل عجوز لاضمير له ،ولايمكن أن يشعر بعطف على الكلب . وعندما ساورته هذه الأفكار لم يستطع أن يتقدم خطوة قبل أن يتأكد من ان الكلب سوف لا يناله سوء أثناء غيبته، وكان يرى منزله بسهولة هناك على الجانب الآخر من الحقول .

وترك دراجته فى حفرة ، وأخذ يعبر الحقل تكى يقترب من المنزل بحيث يستطيع « دان » أن يسمع صفيره ، ووقف على مسافة خمسين خطوة من المنزل واخذ يصفر وينتظر ، ولكن لم يبد هناك ما يدل على وجود الكلب... قد يكون نائما أمام البيت أو بالقرب من الطاحون فلم يسمع صفارته الخافتة !! وظل لوك بضع دقائق لا يعرف ماذا يفعل ، ثم قرر الرجوع الى الطريق ،حيث ركب دراجته وسار الى المكان الذى يلتقى فيه النهر بهذا الطريق ، فهناك يستطيع أن يترك دراجته بين الأشجار ويتقدم صوب المنزل والطاحون دون أن يراه أحد .

وسار مع النهر نحو مائة ياردة ، ووصل الى المكان الذى ينحنى فيه النهر انحناءة شديدة أمام المنزل ، فأخذ قلبه يدق دقات شديدة متلاحقة وشعر كأن ساقيه لا تقويان على حمله ... لقد رأى الزورق يتجه الى أعمق مكان فى المجرى ، ورأى سام كارتر والى جانبه الكلب التعس .

كان الرجل العجوز ذو اللحية واللباس الأزرق يدخن السيجار ويمسك بطرف حبل سميك التف طرفه الآخر بعنق الكلب الذى أقعى بجانبه فى دعة وود يلعق بلسانه الأحمر اليد التى تمسك بالحبل .... رأى ذلك كله كأنه حلم مجنون .ولكنه حين صاح بأعلى صوته : « دان .. دان.. تعال » قفز الكلب مسرعا الى الماء ، وعندئذ ترك سام كارتر الحبل من يده اليسرى ، وكان فى نهاية الحبل حجر

ضخم ألقاه سام الى الماء لساعته ... وصاح لوك فى صوت محموم :

« بالله لا تفعل ، لا تفعل » ولكن صيحاته وصلت بعد فوات الوقت.. وحملق كارتر بغباء فى الجانب الآخر من النهر ثم أحنى رأسه وأعمل مجدافيه بسرعةفى الماء صوب الشاطىء.

كان لوك يراقب الكلب وهو يقفز الى الماء ،ويرى ساقيه الخلفيتين وهما ترفسان الماء رفسات متتالية يائسة فاخذ ينتحب فى مرارة ويهتز جسده اهتزازا شديدا كأن شطرا هاما من حياته الخاصة فيما بين منزله والطاحون قد تمزق وأفلت منه الى الأبد ... ولأمر ما لايدرى كنهه كان يدور فى عقله أثناء مراقبته للكلب... كانت يده تبحث دون وعى فى جيب معطفه عن مديته التى يحملها اينما ذهب ... ثم يفتح سلاحها ، ويسرع بخلع سترته ويرمى حذاءه وهو يتمتم ويدعو الله أن يرحل سام كارتر عن هذا المكان بسرعة .

واستجابت السماء لدعائه البرىء فبلغ عامل الطاحونة البغيض الى الشاطىء فى نحو دقيقة ثم غاب فى منحنى النهر بالقرب من الطاحون اذ كان يتوجس من تتبع الصبى له ،ولكن عينى الصبى لم تغيبا لحظة عن البقعة التى اختفى فيها الكلب ، فأسرع بالقاء نفسه فى الماء ، وكانت أشعة الشمس تنسكب على جسده النحيل ، وكانت عيناه تشعان بالخوف والقلق وهو يغوص الى الأعماق ، وسرعان ما اعتاد الرؤية تحت الماء الأزرق وبين الصخور الصفراء وشعر برئتيه تضيقان بالتنفس وتؤلمانه ، ثم رأى ظل كلبه يطفو فى نهاية امتداد الحبل ، فهجم بمديته وقطع الحبل ، ورفع الكلب بذراعيه المكدودتين واخذ يدفعه أمامه حتى بلغ الشاطىء ... وكم كانت حيرته وفجيعته حين وجده لا يبدى حراكا.. كان كتلة جامدة . وهنا رأى أن يقوم بدور رجال الانقاذ فسحب الكلب الى منبسط من الأرض فأفرغ الماء من جوفه وعالجه بالتنفس الصناعى مدة طويلة حتى تحركت عيناه ودبت فيه الحياة .

وناداه لوك بصوت رقيق مستعطفا: «هيا ، هيا ياصديقى العجوز» وتحرك الكلب ، وقفز قلب لوك فى صدره من شدة الفرح وأخذ يتمتم : « انك لاتستطيع حتى أن تموت يادان ! لاتستطيع ! لا تستطيع ... وانا لا استطيع ان اتركك تموت ياصديقى» وظل لوك يفرغ الماء من جوفه ويعاونه بالتنفس الصناعى حتى عاد الكلب الى حالته الطبيعية ،فاخذ يتمتم فى حبور: « انك حى يادان ... هيا بنا يا صديقى »

وسعل « دان » فجاة وحرك رأسه، وفتح عينه العنبرية وتبادل مع صاحبه النظرات ، ثم تمطى عدة مرات ، واستطاع فى النهاية أن ينهض فى تكاسل ويهتز هزة عنيفة لينفض الماء عن جسده ، ثم التفت الى لوك واخرج لسانه الأحمر وأخذ يلعق وجهه ببطء .

وقال له لوك : « أرقد يادان » .

ورقد لوك بجوار الكلب ، وأغمض عينيه ودفن رأسه فى فراء الكلب المبلل، وقد شعر بآلام شديدة فى ذراعيه

وساقيه بعد أن انقذ صديقه ، ثم قال له بصوت رقيق وهو ينهض لاحضار ملابسه التى تركها على الشاطىء : « يجب أن تبقى هنا » وعاد لوك بملابسه فارتداها وهو يتمتم : « اظن من الخير الابتعاد عن هذا المكان ، انهض الآن يا صديقى لننصرف » وسار مع الكلب موغلا فى الحشائش الكثيفة الطويلة حتى أصبح على مسافة ثمانين ياردة من المكان الذى خلع فيه ملابسه ،حيث قبعا معا يتمازحان ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى سمع صوت العمة هيلين تنادى : « لوك ، لوك ، تعال يالوك »

وهمس لوك قائلا : « لا تتحرك يادان » ومرت لحظة قصيرة ، ثم سمع العم هنرى ينادى : « لوك ، لوك » ثم انحدر الى الممر ، وكان لوك يراه بسهولة بجسمه الضخم وهو يضع يديه فى خصره يمينا ويسارا ، ثم لا يلبث ان يرجع أدراجه الى المنزل . وبينما كان لوك يرقب أشعة الشمس المنعكسة على ظهر عمه ، انقلبت الطمأنينة التى شعر بها حين أصبح الكلب فى حوزته فتركته آمنا الى نوع من اليأس العميق اذ أدرك ساعتئذ أن عمه وان صفح عنه لانقاذه الكلب من الغرق فانه لن يغفر له احباط الخطة التى رسمها ، ولا بد سيفكر فى طريقة أخرى يتخلص بها من الكلب فى يوم قريب ، كما يتخلص دائما من أى شىء لا يرى فيه فائدة أو يكلفه بعض المال . وحين استلقى على الأرض وأخذ يراقب السحب التى تتحرك ببطئة من فوقه انتابه الخوف ، فهو لا يستطيع العودة الى المنزل ولا يستطيع ترك الكلب فى الغابة دون أن يربطه الى شجرة ، والا فلا بد ان يلحق به مسرعا .

وهمس فى حزن وأسىء : « لست أجد مكانا نأوى اليه يادان ، حتى لو تسكعنا فى الطرقات ، فسيرانا الناس»

ولكن « دان » كان مهتما فى تلك اللحظة بمراقبة فراشة تحوم فوقهما. ورفع لوك راسه ، وتطلع الى المنزل من خلال الاشجار ، ثم التفت الى الناحية الأخرى حيث البحيرة الفسيحة الزرقاء ، ثم عاد الى رقدته الأولى وهو يزفر حيرة وكمدا . وظل كذلك عدة ساعات حتى توقفت الطاحونه عن الضجيج وخمدت أصوات الآلات والعمال ، وحتى انحدر قرص الشمس الى الغروب .

واخيرا قال لوك : « حسن ، لن نستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك ، ولابد لنا من الابتعاد عن هذا المكان قدر ما نستطيع » ثم أخذ يزحف بين الحشائش مبتعدا عن المنزل حتى أصبح بمنأى عن العيون نهض وأخذ يجرى عبر الحقل حتى بلغ الطريق المؤدى الى المدينة .

وكان الكلب أثناء الطريق بين الفينة والفينة مندهشا لسير صاحبه فى هذا الطريق يجر قدميه من التعب والاعياء . وكان لوك أراد أن يشرح له الموقف فتمتم قائلا : « اننى فى حيرة يادان ، ويبدو اننى لم أوفق بعد الى مكان آمن أضعك فيه » .

عندما بلغ لوك منزل المستر كمب رآه جالسا فى الشرفة فتوقف عن السير ، وتمنى لو ان مستر كمب العجوز

استضافه مع كلبه ليساعداه فى رعاية بقراته الأربع وحراستها فى المساء . واخذ يتطلع فى وجه الرجل العجوز الجالس فى الشرفة ليتاكد أنه لم يخطىء فى معرفه الرجل ، ثم قال فى لهجة مضطربة : «ان من لا يعرف قدرك يادان لابد أن يكون مصابا بالعمى والصمم .. هيا بنا يادان » ثم فتح باب الحديقة بكل ما أوتى من شجاعة ، ولكنه سرعان ما شعر بالخجل .

وناداه مستر كمب من أعلى الشرفة: « مرحبا يابنى ، ماذا بك ؟ » وكان مستر كمب رجلا نحيلا صلب العود يرتدى قميصا متعدد الألوان ، أشيب الشارب مشعث الشعر ، مغضن البشرة ، ولكن عينيه تفيضان طيبة ومودة .

وسأله لوك حين اقترب من مكانه بالشرفة : « هل استطيع ان اتحدث اليك قليلا يامستر كمب ؟ »

« نعم ، تحدث كما تريد يابنى »

« أريد أن اتحدث اليك بشأن دان ، انه كلب عظيم ! واعتقد أنك تعرف عنه بقدر ما اعرف انا ، فهل تستطيع ان تحتفظ لى به فى منزلك ؟ »

« ولماذا احتفظ بدان هنا يابنى ؟ »

فقال لوك وقد عراه الاضطراب وتعثرت الكلمات على لسانه :

«حسن ان عمى لا يريد الاحتفاظ بدان فى منزله بعد الآن ، ويقول انه أصبح عجوزا » ثم اخذ يرتجف وهو يروى بقية القصة ..

وقال مستر كمب فى بطء : « لقد فهمت ، فهمت كل شىء» ثم نهض واتجه ناحية الكلب ثم جلس وأخذ يربت رأسه وهو يقول : « لا شك ان دان اصبح مسنا يابنى » ثم اضاف : « ولابد أن تتخلص ان آجلا أم عاجلا من كلب عجوز كهذا، وعمك هنرى يدرك هذه الحقيقة. فهو لا يستحق الاحتفاظ به بعد الآن »

« ولكنه لا يأكل كثيرا يامستر كمب .. انه يتناول وجبة واحدة فقط طوال النهار »

فقال مستر كنت : « لا اود ان تظن فى عمك يالوك القسوة وبلادة الشعور ، بل انه رجل لطيف .. ولكن ربما يكون رجلا عمليا الى حد ما » ..

ووافقه لوك على رأيه ، ولكنه كان فى الواقع ينتظر ان تكشف عينا الرجل العجوز عن شىء من نواياه. وتابع الرجل حديثه قائلا :

« يمكنك أن تقدم له اقتراحا عمليا»

« اننى ، اننى لا أعرف ماذا تعنى يا سيدى »

« فقال مستر كمب وهو يبتسم : « اقتراحا شبيها بالاقتراح الذى جئت تعرضه على الآن ، وهو حراسة بقراتى اثناء نزهتها المسائية ، فان فعلت فانك لن تحتاج الى أن أذهب اليه معك ، ولتفترض الآن اننى سأمنحك خمسة وسبعين سنتا فى الأسبوع ، فهل ستصحب بقراتى الى النزهة كل مساء ؟ »

« لاشك فى هذا يامستر كمب ، اننى راغب فى القيام بهذا العمل فى كافة الظروف »

« حسن يابنى ، انه عمل شاق ،
وسأرشدك الى ما يجب عمله .. ارجع الى عمك وقل له قبل ان ينفجر بتعنيفك أنك جئت اليه تحمل اقتراحا « عمليا » قل له ذلك كرجل ناضج ، قل له انك مستعد لدفع خمسة وسبعين سنتا فى الأسبوع فى مقابل الاحتفاظ بالكلب»

فقال لوك فى ضجر : « ولكن عمى ليس بحاجة الى خمسة وسبعين سنتا يا مستر كمب »

ووافقه مستر كنت على ذلك قائلا : « انه ليس بحاجة الى هذا المبلغ بطبيعة الحال ، ولكن هذا لا يعدو أن يكون مبدأ وحسب » ثم أضاف : « كن واثقا من هذا يابنى ، وتذكر انه لا يحقد على الكلب فاذهب اليه ، واخبرنى بالنتيجة التى تصل اليها » ثم قال وعلى وجهه ابتسامة هادئة : « اننى اعتقد — وفق معلوماتى عن عمك — انك ستنجح »

فقال لوك : « سأحاول ، واشكرك كثيرا » لم يكن لوك يؤمل خيرا فى مهمته وان كان يعتقد أن مستر كمب رجل مسن مجرب ولا يمكن بحال ان يخدعه. غير انه لم يصدق فى نفس الوقت ان خمسة وسبعين سنتا فى الأسبوع تكفى لاقناع عمه بالاحتفاظ بكلبه العزيز . ونادى لوك كلبه فى بطء واتجه الى المنزل وقد خامره الخوف واليأس .

وبينما كانا يسيران فى الممر سمع زوجة عمه تصيح من نافذة مفتوحة : « هنرى ، هنرى تعال بحق السماء . لقد عاد لوك بالكلب »

ووقف لوك على مسافة عشر ياردات من الشرفة وانتظر فى شىء من الاضطراب خروج عمه من باب المنزل . وخرج العم هنرى مندفعا ، ولكنه حين رأى الكلب مع لوك تسمر فى مكانه وشحب وجهه وفغر فاه مندهشا ، ثم قال فى صوت خفيض :

« لوك .. لقد كان حول عنق هذا الكلب حجر ثقيل !! »

وقال لوك : « لقد أخرجته من المجرى »

وقال العم هنرى وقد ذهب عنه شحوب لونه تدريجيا : « آه ، آه !!! لقد أخرجته ، اليس كذلك ؟ » .. ما كان ينبغى أن تفعل هذا ، فانت تعلم اننى طلبت من سام كارتر أن يتخلص من الكلب »

وحاول لوك الا يثير عمه ، وقد استعاد شجاعته عندما ظهرت العمة هيلين ووقفت بجانب زوجها وقد بدا فى عينيها كثير من العطف والرقة ، فقال : « امنحنى دقيقة واحدة فقط ، لأننى أريد أن أعرض عليك حلا عمليا يا عم هنرى »

فسأله العم هنرى وكان لا يزال مغضبا : « ماذا ؟ »

فاجاب لوك بسرعة : « حلا عمليا .. فانا اعرف أن دان غير جدير بالاحتفاظ به الآن ، وانه لايساوى شيئا بالنسبة لأحد سواى انا فقط ، ولذا فاننى سأنقدك خمسة وسبعين سنتا كل اسبوع نظير الاحتفاظ به »

فسأله العم هنرى : « ماذا تقول بالوك ؟ ومن أين لك الخمسة والسبعين سنتا هذه ؟ »

« سأذهب كل ليلة لأعود ببقرات المستر كمب من الحقل »

وقالت العمة هيلين مستعطفة : « بحق السماء ياهنرى دعه يحتفظ بالكلب ! » ثم اسرعت بدخول المنزل.

وناداها العم هنرى قائلا : « لا أحب سماع مثل هذا الحديث انه يثيرنا » وكان يرتعد من شدة الانفعال ، واستولى عليه اليأس وبدا كمن انهارت آماله ، وسار نحو مقعده الهزاز فى تراخ وهو يقول : « حسن ، احتفظ بالكلب » ولكنه كان خجلا من اظهار استسلامه ، أو الكشف عن استجابته لنداء العاطفة الانسانية ، وحاول فى يأس أن يستردهذا الشعور بأشياء أخرى كمراعاة الذوق والحرص على تدريب الطفل على الاستمساك بالأهداف العملية فى حياته . وظل يهتز فى مقعده دون اكتراث ثم ابتسم فى النهاية وقال ببطء : « اننى أميل يا لوك الى الأخذ باقتراحك » .

« شكرا ياعم هنرى »

« لقد وافقت على اقتراحك لأننى واثق من أنك ستتعلم شيئا جديدا مما حدث »

« حسن ، ياعم هنرى »

« سوف تعرف أن الاحتفاظ بأشياء تافهة يكبد أذكى الناس كثيرا مما كسبوه بجهدهم وعرقهم »

« اننى لا أهتم بذلك ياعمى »

« حسن ، هذا شىء يجب أن تدركه، ولابد أن تدركه فى يوم ما ، لأنك لاشك تحمل بالوراثه النزعة العملية التى أحب أن أجدها فى كل صبى ... لا بأس ، لا بأس ، يابنى »

قال ذلك ثم ابتسم بارتياح وانصرف الى المنزل .

وهمس لوك وهو يلتفت الى دان : « حسن ، ماذا تعرف عن ذلك يادان؟»

وبينما كان جالسا على سلم الشرفه وكلبه بالقرب منه سمع عمه هنرى يتحدث الى زوجته وشعر بحبور عميق وتهلل وجهه فرحا ، ولكنه . مالبث حبوره هذا أن تحول الى تفكير عميق واعجاب بالمستر كمب الذى استطاع أن يفهم طباع عمه على حقيقتها ، وتمنى أن يصبح فى يوم ما فى مثل حكمة المستر كمب وحصافته وطريقته فى معاملة الناس .. وقال فى نفسه ان بلوغ ذلك ليس بالأمر العسير ، مادام قد استطاع أن يعرف أشيئا كثيرة عن عمه كان والده يريده أن يعرفها

وعندما انحنى على عنق دان يقبله أخذ على نفسه عهدا أن يحتفظ دائما بقدر من المال يستطيع به أن يحتفظ بالأشياء العزيزة الثمينة ، ذات القيمة الحقيقية التى لا يعبأ بها الناس « العمليون » فى هذا العالم المادى .

الإتجاهات الحديثة فى القصة السوفياتية

بقلم : خيري حماد

كثيرا ما نسمع ، ويسمع القراء معنا ، بعهد « ذوبان الجليد » فى الأدب السوفياتى الحديث ، وهو اصطلاح ، ان دل على شىء ، فانما يدل ، على أن أوضاع الحياة المادية فى الاتحاد السوفياتى اليوم ، واجواءه ، وامزجته ، هى غير تلك التى كانت قائمة فى عهد ستالين ، وان الاختلاف كبير بين العهدين ، الى الحد الذى لا يستطيع المرء أن يصدق ، ان هذين العهدين يمتان الى نظرة مذهبية واحدة ، تتناول كل جانب من جوانب الحياة • فلقد تبدلت هذه الحياة تبدلا كبيرا نحو الافضل ، فى كل شىء • ومازالت تسير فى هذا الطريق من التحول • متحدية كل مايعتور طريقها من عقبات وموانع ، ومتغلبة على كل ما قد يظهر أمامها من كوابح ، ولا سيما فى ميدان الادب ، الذى تؤلف القصة اليوم أهم ناحية من نواحيه •

فقد مرت القصة السوفياتية فى السنوات التى انقضت منذ وفاة ستالين ، فى مراحل من التبدل البطىء الذى يتميز بالاثارة احيانا ، ويفتقر اليها احيانا كثيرة أخرى ، وأخذ عدد من كتابها ينشطون كل النشاط ، فى التركيز على أحداث الحياة العاطفية بعد ان كانوا فى ايام ستالين ، لايكترثون الا بالمواضيع السياسية او الاجتماعية ، والا بعوالم الصناعة والزراعة وآفاتهما • وهكذا استعادت الحياة الوجدانية الخاصة ، فى عهد خروشوف جزءا من الارض التى كانت قد فقدتها فى عهد ستالين •

فمنذ انتهى عهد ستالين ، راح الكتاب يشرعون فى معالجة اوضاع الحياة على صعيدها الانسانى ، وأخذ النقاد • وفى طليعتهم تراشينكو ، يمجدون البحث عن الحقيقة من اجل الحقيقة ، كما وجه ناقد اخر • لعله بستوفسكى • نداء الى جميع الكتاب السوفيات ، ناشدهم فيه ، ان يغوصوا فى أعماق أفئدتهم • وأن يحاولوا

استجلاء غوامض النفس الانسانية ، ومعرفة مكنوناتها ومعمياتها · واعلن ننجالكوف ان جمهرة القراء ، تعودوا ان يقرأوا ، فى عهد ستالين ، كل ما يبعدهم عن حقائق الحياة ، وواقع متاعب الناس وآلامهم ، وأفراحهم · كما هاجم لافرنيف الذى لم يقدر له أن يعمر طويلا ، القصص التى تستبدل صراعات العواطف الانسانية بالمخططات ، والناس بالشخصيات الآلية ، واضاف ان هناك قصصا لايستطيع القارىء فهمها ، وان هناك مسرحيات لايستطيع النظارة استيعابها ، الا اذا حمل وحملوا كتب المراجع التقنية فى جيوبهم يرجعون اليها فى حل مايرونه أمامهم من طلاسم ·

ولعل أروع صورة لعصر « ذوبان الجليد » هذا فيما كتبه ايليا اهرنبورغ الكاتب السوفياتى المشهور ، وصاحب القصة المشهورة بهذا الاسم ، عندما لخص المعركة من اجل الحقيقة الانسانية ، واحداث المرحلة الأولى من هذا التحول الضخم فى اتجاه القصة السوفياتية ، بقوله ··· « ليس الكاتب آلة تسجل ، وهو لايضع كتابه لانه يعرف كيف يكتب ، أو لان عليه ان يكسب عيشه عن طريق ما يكتبه ، وانما يضعه ، لانه يجد أن من الضرورى أن ينقل للناس شيئا من نفسه · فهو كالمرأة الحبلى ، التى لابد وان تضع وليدها · وهو يرى الناس وما حوله ، وما يحس به ، ثم يجد نفسه مضطرا الى ان يصف ما يرى وما يحس به · »

وسرعان ما انعكست فى السنوات الاربع التى تلت وفاة ستالين ، الصور القديمة الجامدة للحياة السوفياتية ، وانقلب كبار الموظفين الذين كانوا موضع التمجيد فى أيام ستالين الى اشرار ، كما فى القصة التى وضعها دودنيتسيف فى عام ١٩٥٦ ، والتى احدثت دويا فى الاتحاد السوفياتى كله ، والتى حملت اسم « ليس بالخبز وحده » ·

وقد لاتكون هذه القصة من الروائع ، ولكنها تعكس التيار الجديد الذى اجتاح القصة السوفياتية ، واعتبر بعثا هاما للتقاليد الادبية الروسية العريقة ، باتجاهات تشيخون وتيرجنيف وبوزنين · فهى تعكس حاجات اللحظة التى كتبت فيها · فقد كان الناس لايتحدثون فى طول الاتحاد السوفياتى وعرضه فى ربيع عام ١٩٥٦ وصيفه الا عن خطاب خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب ، وهو الخطاب الذى حمل فيه على عبادة الفرد · وما خلقته من شرور اجتماعية ، فى مجالات الحياة العامة ·

يعيش بطل القصة « لوباتكين » ، وهو مخترع عبقرى ، وحيدا · وسرعان ما يصبح الضحية لتعسف دروزدوف ، مدير المصانع الفاسد والمتفلسف ، والقصة هى تاريخ الصراع بين الرجلين ، بين الانسان المثالى ، والشرير المتفلسف · وكانت الطريقة المألوفة فى القصة السوفياتية حتى ذلك الحين ، ان يصور البطل ، محاطا بحب العمال واحترامهم ، وتضامنهم معه ، الى ان يجىء سكرتير الحزب الواعى ، فينجده وينقذه من غضب رئيسه المتفلسف · لكن دودينتسيف ، لم ينح هذا المنحى ، وانما راح يصف مجموعة من الدسائس والمؤامرات الشريرة التى تقع فى داخل المصنع ، وتؤدى الى اعتقال البطل وارساله الى أحد معسكرات الاعتقال · ولكن يجىء عهد الانفراج ، وتتحسن الاوضاع ، فيطلق سراحه ويؤخذ باختراعه ،

ويطلب اليه ان يحتل مركزه فى المؤسسة فيرفض لانه يؤثر ان يظل مناضلا طيلة حياته ، ضد البيروقراطية ٠

وهكذا أخذ هذا الاتجاه الجديد ، يعنى بالامور الموضوعية ، ويركز على التفاصيل والحوادث الصغيرة ، والانطباعات اليوميـــــة ، واخذت القصص الجديدة ، تعكس الابتسامات والعواطف والتنهدات ، وبرزت قصص التحليل النفسى ، كما ظهرت لأول مرة منذ نحو من أربعين عاما ، قصص العواطف الغرامية ، التى تنشأ بين الرجل والمرأة ، ولكن بصورة نقية وكاملة ، لا أثر فيها لاسفاف الجنس الذى يبدو فى اتجاهات القصة فى العالم البورجوازى ٠

قصصيان نموذجيان

وبرز فى الحقبة الاخيرة ، قصصيان شابان من طلائع هذه المدرسة الحديثة هما كازاكوف وناغيبين ٠ وقد لايكون هذان الكاتبان من المقروئين جدا فى الاتحـــاد السوفياتى ، ولكن جميع الذين يعنون بالشؤون الادبية ، ولا ســـيما اذا **كانوا من النقاد ، يولونهما اهتماما زائدا ، لانهما يمثلان شيئا جديدا ، قد لايتفق مع القيم العامة للحزب ، ولكنه لايخرج عليها ، خروجا صريحا ، فهما لايعبران عن مخالفتهما لهذه القيم بحوار مباشر ، وانما باهمالها ، وتجاهل تصويرها ، وتعهد ما يعتبرانه دنياهما الخاصة ، بالعناية والاهتمام ، ولو قرأ الانسان قصة لاحدهما دون ان يعرف هويته ، لما استطاع ان يحكم على صاحبها بأنه من كتاب القصة فى الاتحاد السوفياتى، هذا اذا تبدلت الاسماء الروسية فيها بغيرها ، ولكنه يستطيع ان يتميز فيها مشاعر انسانية تسمو على الابتذال والاسفاف ٠**

ولد أولهما يورى كازاكوف فى مدينة موسكو فى عام ١٩٢٧ ، فهو اذن من الذين ولدوا ونشأوا ووعوا الحيـاة فى عهد الثورة ٠ درس الموسيقى فى صباه ، ثم عمل عازفا فى احدى الفرق الموسيقية ٠ ولم يبدأ الكتابة الا فى عام ١٩٥٧ عندما أخذ ينشر بعض قصصه القصيرة ، فى المجلات الادبية الشهرية ، ليجمعها فى مجموعتين نشر اولاهما فى كتاب باسم « مانكا » ، فى عام ١٩٥٨ ، وثانيتهما فى كتاب آخر باسم « فى محطة القطار » ، فى عام ١٩٥٩ ٠

وتتركز معظم شخصيات قصصه ، على مخلوقات قدر لها ان تواجه الحياة وهى مشوهة ، أو مصابة باحدى العاهات ٠ ومن هنا يكون عنصر الاشفاق على بطل القصة المشوه ، الصورة الغالبة على القصة كلها ٠

والبطلة فى قصة « مانكا » ، فتاة يتيمة فى الرابعة عشرة من عمـرها ، نحيلة الجسم ، دميمة الصورة ، تعمل فى توزيع البريد ، فى منطقة قطبية نائية ، تقع على ساحل المحيط ، وقد تباعدت مساكنها وانتشرت ، بحيث باتت الابعاد عبئا نائـــا عليها ٠

وتقع « مانكا » لسوء حظها فى هوى « بيرفيلى » وهو أجمل شباب المنطقة ، واكثرهم جراة واقداما • مما جعله محط انظار الفتيات جميعا • وهو يجهل بالطبع، ما تكنه له هذه الفتاة الدميمة من حب • لاسيما وانه مشغول بحب « لنيكا » ، اجمل فتاة فى المنطقة كلها •

ويقع الخلاف بين الحبيبين ذات يوم ، ويحس بيرفيلى ، بشىء من الامتهان من جانب حبيبته ، فيستقل زورقا ، يقتحم به المحيط الذى تعلو فيه الأمواج ، من جراء عاصفة هوجاء • وتحاول « مانكا » ان تثنيه عن عزمه ، فلا تستطيع ، وتتوسل اليه بأن يعود فلا يلين • فتستقل الزورق معه ، وتتلاعب بهما الامواج ، وينقلب القارب ويكادان يغرقان • لولا أن تتداركهما عناية الطبيعة ، فتقذف بهما الامواج على ساحل لا أثر للحياة فيه • وفجاة ، تقع عيونهما على كوخ منعزل ، وحيد ، فيؤمانه ليجففا ثيابهما ، وليبحثا عن بعض « الفودكا » • ويتحقق لمانكا حلمها ، فيحس بيرفيلى اخيرا بوجودها كامرأة • ويشرع فى عناقها • وهنا يقع مالا يحسبه احد • اذ تصده الفتاة عنها ، وتخرج من الكوخ مخلفة اياه فيه •

وتنتهى القصة عند هذا الحد ، دون ان يوضح لنا كازاكوف ، لماذا تصرفت الفتاة على هذا النحو ، ودون أن يلمح بشىء الى أى من احتمالات المستقبل • فهو يترك للقارىء أن يتوقع احتمال عودتهما الى اللقاء • ملقيا ستارا من الغموض والابهام على حالة مانكا العقلية ، التى يصدرها ، بانها مزيج من الفزع والسرور والشعور بالنقص والعار •

فهى ليست فى الصورة التى يرسمها ، منطقية ، أو معقولة ، بل ان من العسير حقا تحليل تصرفها فى ضوء العقل والمنطق • فهى تحبه ، وهى تتحرق شوقا الى لقياه ، وعندما تتحقق لها امنيتها ، تصاب بالفزع والخوف ، لتحس بعدهما بمزيج من الرضا والسخط والرغبة فى الانتقام • انها تمثل الحياة لكازاكوف ، الذى يرى انها شىء لايمكن فهمه ، غنى بالمفاجآت • أما القلب الانسانى ، فمتغير ومندفع • وهو يريد ان يسرد القصة بعواطفه التى لاتخطئها العين ، ولكنه يرى ان اصدار الاحكام الخلقية شىء يتعدى حدود ما يريد •

وكثيرا ما اتهم كازاكوف لقصته هذه وغيرها ، بالتشاؤم • فهو يصور كثيرا فشل الانسان فى تحقيق رغباته • وهو فى قصة « بيت تحت الهاوية » يصور شابا • اكتشف وجود الشر الى جانبه ، ومع ذلك ، فقد استسلم له ، بالرغم من احساسه بان الواجب يدفعه الى ان يعمل شيئا لدرء هذا الشر •

يوفد البطل « بلوخين » فى موسكو ، الى بلدة صغيرة ، ليعمل فى مكتبتها العامة ويدرس عادات اهلها فى القراءة ، والاساليب التى تتبعها المكتبة • ويكون الفندق الوحيد فى البلدة عند وصوله اليها مكتظا بالنزلاء • وينشد المعونة فى العثور على مأوى من موظفى المكتبة ، فيبعث به هؤلاء الى سيدة تؤجر غرفا فى منزلها •

والسيدة ، انسانة عادية ، وفي منتهى القبح والشراسة ، لكن ابنتها جميلة ، ومظلومة • انها سجينة أمها ، اذ لا تعرف شيئا عن العالم • وتحس الفتاة بما تسيرها اليه ، فتكثر من سؤالها عن الحياة في موسكو ، مما يضايق امها ويغضبها • وتبالغ السيدة في مطالبته باجر عال ، كما ترفض القيام له بالخدمات العادية •

ويحس الشاب بالشر حوله ، ولكنه لايعمل شيئا لدرئه ، وانما يكتفي بالرحيل عن المنزل • انه يرى الواجب يدعوه الى انقاذ الفتاة من سجنها الذي يعرف انها لن تتحرر منه الا بمساعدته ، ولكنه يعجز عن اداء واجبه ، ويكتفي بالجلوس في المكتبة واعداد القوائم ، وسجلات القراء ، وما شابه ذلك ، مخليا ، بين تلك الروح البشرية الشقية وبين الدمار •

ولعل القيمة الايجابية الوحيدة للقصة ، بالاضافة الى الصـور المشرقة الرائعة التي يرسمها كازاكوف للبلدة والمكتبة ، والشارع الذي يقبع فيه البيت الذي اقام فيه والذي يؤلف عالما مظلما رهيبا ، هي تلك الومضة الخاطفة التي يلمح بها الشاب وجود الفتاة ، والصورة التي رسمها الكاتب ، لما اعتمل في نفس البطل من خلجات وعواطف فيها التصارع ، والتضارب • مما يذكرنا الى حد ما ، بتلك الصـور التي تسيطر على قصص تشيخوف •

وهناك قصة ثالثة ، هي قصة « الازرق والاخضر » ، وقد روى فيها كازاكوف ، تاريخ حب اليوشا لفتاة هي ليليا • منذ كان بينهما اللقاء الأول ، في موعـد فرصـة القدر ، عابرا قبلتهما الأولى ، والمراحل التي تلتها ، الى ان التقت رجلا آخر ، تزوجته ، وارتحلت معه الى الشمال •

وفي هذه القصة ، يروي كازاكوف ، على لسان البطل ، وفي صيغة الحـاضر ، تاريخ هذا الحب ، ولكنه كثيرا ، ما يشطح هنا ، وهناك ، شطحات لا معنى لها ، الا ساعة وقوعها ، وكثيرا ما يلاحظ ادق تفاصيل العالم الذي يحيط به ، ويفكر في قضايا قد تبدو في منتهى التفاهة ، كقوله وعندما نمر باللافتات أقرؤها بعناية ، وفي وسع الانسان ان يقرأ اللافتات في طريق العودة ايضا ، فتظهر امامه ، وكأنهـــا اصوات مضحكة تدق اذنيه » •

فالقصة اذن ، هي كل ما يدور في خلد اليوشا ، من افكار ، وما يسمعه من احاديث ، وما يراه من صور • فليست فيها احداث مثيرة ، او غير عادية ، وانما هي حوادث صغيرة ، يمر بها ملايين المحبين • لكن كازاكوف عن طريق ابراز أثر الواقع اليومي على وعي اليوشا ، ينجح في اعطائنا صورة واضحة ، عن نمو حب عنيف ، ينتهي الى حزن عميق ، عندما يفقد العاشق فتاته ، عاكسا الينا الاضواء والظلال كما يراها فؤاد بسيط ساذج كفؤاد اليوشا •

وننتقل الآن الى قصة اخرى من قصصه • انها قصـة « في الجزيرة » ، وهي تصور حبا ، لا يقل في شقائه عن حب اليوشا ، ولا سيما في نهايته • فزابافين ، بطل القصة ، رجل متزوج ، في الخامسة والثلاثين من عمره • وهو رب اسرة ، وله

ولدان • يوفد فى مهمة رسمية ، الى جزيرة فى الشمال ، حيث يلتقى بامرأة شابة، فى السادسة والعشرين من عمرها ، تدعى غوستيا ، وتعمل مديرة لمحطة الارصاد الجوية فى الجزيرة • وتتعدد اللقاءات بين البطلين ، وتزداد الألفة ، فيشرع فى الحديث اليها عن السعادة والحب ، والحياة والشيخوخة • وتتحـــول الالفة الى حب جارف يسيران فى طريقه اشواطا طويلة ، تنتهى ، بالفراق • انهـــا الليلة الأخيرة ، اذ سيستقل زابافين • مركب الصيد عائدا الى البر الروسى •

وتسأله غوستيا ، وهو يهم بالرحيل ••• « ما هذا ؟ أهذه هى السعادة » فيرد عليها بألم ظاهر ••• « اجل ، اجل ، انها السعادة » • فتقول والدموع تملأ عينيها ••• « آه ياالهى ، » ••• وعند يصبح فى زورقه بعيدا ، وهو يقطع عباب البحر ، يعود بفكره اليها ••• فيقول مناجيا نفسه ••• « اذن هى السعادة ، وهذا هـــو الحب !! ما اغرب ••• الحب !! » •

ومثل هذه القصة مطعون بها من الناحية الخلقية العقائدية • فهى تعرض عرضا لاحكم فيه ، الشرك العاطفى ، الذى وقع فيه رجل ، كان عليــــه ان يتصرف تصرفا مغايرا • ان البطل رجل لايشعر بالمسؤولية ، ولكن كازاكوف لايدينه ، لانه لايهتم باصدار الاحكام ، وانما كلما يهمه ، هو ان يعرض ما يحس به رجـــل وامرأة ، فى عزلة حب عابرة ومستحيلة •ولم يكن يهدف الا ان يرسم لوحة لاختـــلاطات الحب والسعادة والمرارة والألم • انها صورة اخرى من صور الحياة ، بما فيهـــا من غموض وتعقيد وأسرار ••••

الكاتب الثانى

وننتقل الآن الى زميله يورى ناغيبين • ولد هـــذا فى عام ١٩٢٠ ، ودرس فن التصوير السينمائى • وعمل ابان الحرب العالمية الاخيرة فى الجهاز السياسى للجيش ، ثم تحول بعد ان اصيب بالجراح ، الى مراسل حربى •

وقد اصدر حتى الآن اكثر من ست مجموعات قصصية ، تتركز معظمهـــــا على نفس الافكار التى اهتم بها كازاكوف ••• انها افكار الحب الذى يحمل طـــابع الشقاء والألم ، ويظهر فى صورة غيرعادية •

ويرسم ناغيبين فى قصته « الحب » ، صورة حب برىء يحمله ، صبى ريفى اسمه ايفور • لفتاة تكبره سنا تسمى ناستيا • وقد نشأ هذا الحب منذ كان ايفـور فى التاسعة من عمره • ثم يغادر الفتى قريته الى المدينة ليستكمل دراسته • وينقطع أمدا طـويلا عن القرية وأبنائها ، فاذا ما عاد اليهـا بعد سنوات ، وجـد أن حبيبته ناستيا قد هجرت القرية • ويسأل عنها ، فيقال له ، انها ، أحبت رجلا له مكانتـه فى المجتمع ، ولكنه مالبث ان تخلى عنها •

ويلحق ايفور بالفتاة الى المدينة ، باحثا عن فتاته ، ولا يترك زاوية فيها الا

ويطرقها ، لعله يلقاها ، وأخيرا يجدها ، تعمل فى غسل الأطباق فى أحد الفنادق ، ويتحدث اليها ، فيكتشف انها قد غدت امرأة متبذلة ، بعد أن فقدت عذارها ، وتتهاوى الصورة البريئة التى اقامها لها فى اعماق نفسه • فهى تتحدث عن الحب ، عارضة آراء جماعها التشاؤم ، وهى تعكس له ، صورا فيها الكثير من الغموض الذى أبعدها عن براءة الفتاة الريفية الساذجة • وهى تقول له •••• آه ، يا ايفور ، كيف يعيش الناس ، ان الانسان لايكاد يتصور ذلك الحلم ، » فيرد عليها يقول •••• « ان الناس يحبون حياة جدية حافلة بالمتاعب والمصاعب » •

وتتضارب الانفعالات فى نفس ايفور ، التى يعرضها ناغيبين بمنتهى الدقة ، مبرزا تقلبات مشاعره وتأثراته • فالفتى يكتشف انه لم يعد ، لاسباب لايستطيع ان يفهمها ، يحب فتاته التى فقدها ، اذ ان هذه المرأة التى عاد فاكتشفها ، غريبة عنه ، مجهولة لديه • لكن الوفاء يحمله على أن يطلب اليها العودة معه • فتهزأ منه ساخرة ، مستهترة ، وتتكشف له على حقيقتها الجديدة المنحطة ، امرأة مغرورة ، وضيعة • ويسمعها هى تتحدث الى رفيقة لها ، عن حبه ، هازئة به • وبعد شد وجذب ، وأخذ ورد ، ترجع الفتاة الى عاشقها القديم •

ويرفض ناغيبين فى قصة هذه ، كما رفض زميله كازاكوف ، الاستجابة لاغراء البساطة فى تصوير الاوضاع • فهو يعرض الصورة الكاملة ، التى لا تشويه فيها لطيش ناستيا واعوجاجها ، دون ان يزخرفها أو يزوقها ، لانه يريد ان يرسم الطبيعة البشرية ، وكانها شيء معقد ، أو مختلط ، لانها تجمع بين العوامل المتضاربة (•)

ويصور ناغيبين فى قصة « المنصة الصخرية » ، حب فتاة تحيا حياة اكثر عزلة من حياة غوستيا بطله كوزاكوف فى قصة « الجزيرة » • فالبطل عالم من علماء طبقات الارض • يذهب فى بعثة علمية الى البقاع الجبلية النائية الواقعة على حدود أفغانستان • وهناك يلتقى كاتيا ، المرأة الشابة التى تعيش وحيدة فى محطة التجارب النباتية التى تتولى ادارتها • وتتوثق الألفة بين البطل والبطلة ، ويعرف منها عرضا ، انها أحبت فى الجامعة فتى كان يتميز بالضعف وعدم الاحساس بالمسؤولية • وعندما عينت فى هذه المحطة ، سعت فاستقدمته ليعيش معها فى عزلتها • ولكنه لايلبث ان يحس بالملل بعد بضعة اشهر • فيفر منها ، ومن وحدتها •

وتلجأ الفتاة الى مختلف الوسائل لمعرفة عنوانه ، الى ان تعثر عليه ، فتكتب اليه مستعطفة ، ومتوسله ، ولكنه يرفض العودة ، ويكون هذا الرفض فى رسالة ، حملها العالم اليها منه •

ويفترق العالم الشاب عن كاتيا ، تاركا اياها فى محطتها النائية ، تبكى وحدتها فى الليل ، وقد فقدت كل أمل ، ولا رفيق لها هناك فى مزرعتها الا كلب صغير ، وسلحفاه ، وبعض صغار الفراخ والخنازير • وهى تتحدث الى حيواناتها العجماء هذه ، بائة اياها لواعج حبها وأساها •

لكن القصة ، تختلف عن قصص كازاكوف ، فى انها ليست كلها من الطراز المعتم المتشائم • فكاتيا امرأة باسلة ، وهى تسعى جاهدة لاخفاء الامها ، واحتمالها ، مواصلة عملها وكفاحها فى جد ومثابرة وشجاعة • والكاتب يرسم كل هذه العواطف المتناقضة والمتشابكة ، وكأنها حالات نفسية قائمة بذاتها ، جديرة بالدرس والتعمق فى البحث ، وان خلا اسلوبه الادبى ، من التعبيرات الغنائية التى تميز بهـــا زميله كازاكوف •

وكان « الصيد » من المواضع التى اكثر ناغيبين من طرقها ، ولعله كان مقلدا لتورجينيف ، ومتأثرا به • وتعتبر قصة « الصيد الاخير » من اروع القصص فى هذا الموضوع ، وكثيرا ما قارن النقاد بينها وبين قصة « العجوز والبحر » للكاتب الامريكى ايرنست همنجواى ، واكدوا ان قصة الكاتب الامريكى متشائمة فى خاتمتها ، بينما كانت قصة ناغيبين اكثر اشراقا واوسع تفاؤلا •

وتدور أحداث القصة حول رجل ألف الصيد ، حتى شاخ ، وأضحت امرأته ، تخشى عليه ، فى المضى اليه كعادته • وتخفى الزوجة بندقيـة رجلها ، ولكنها عنـدما رأته يبكى لضياع بندقيته ، تعود فتردها اليه • ويخرج الى الصـــيد من جديد • ويتعمق الكاتب فى وصف مغامرة الصيد ، وينتهى من وصفه الى الايحاء لنا ، بأن الرجل العجوز سيموت • وينحنى الصياد ليلتقط ، أشياء له ، فيشـعر بالدوار ، وبطنين فى اذنيه ، ولكنه يتغلب على ضعفه ، وينتصب واقفـا على قدميه ، ثم يمضى الى الغابة وقد سيطرت عليه حالة نفسية غريبة ، هى جماع من العواطف المتضـــاربة وبينها الاحساس بالموت •

وقـد يطول بنا الحديث ، لو اننا تابعنا قصص ناغيبين كلهـــا ، بالتلخيص والايضاح • ولكننا سنكتفى هنا بالحديث عن قصة اخيرة نشرها بعنوان « حوار » • وبطل القصة « ستريزه » ، انسان عادى • ما لبث ان ادى خدمة عامة ابدى فيهـــا امتيازا متفوقا ، فكافأه ، رفاقه ، بمنصب له قيمته فى حيـاة القرية ، وهو حارس اراضيها • ويصل كاتب معروف من موسكو ، للصيد فى هـــذه الارض • ويلتقى ستريزه ، ويجلسان الى الشراب ، ثم يغرقان فى حوار • ويحس الـكاتب بالزراية لهذا الانسان الذى يقطع عليه حبل تفكيره فى القصة الجديدة التى يكتبها ، فيدفعه الى الافراط فى الشراب ، ليشمله ، ويضمن سكوته •

وتتولد عند ستريزه الرغبة القاهرة • فى ان يحدث الكاتب عن اهم ما علمته اياه الحياة ، وهو الثقة بالآخرين ، ولكنه لايستطيع الافصاح عن افكاره بعد ان ثمل ، ويدخل فى احاديث لارابط بينها ، ولا صلة • ويتبين للغريب القادم من موسكو ان ستريزه ليس الا انسانا تافها • وهكذا يكون من المفارقات ، ان الرجل الــذى تعلم قيمة الثقة بالآخرين ، واراد ان ينقل ثمار تجـــاربه الى غيره ، لايلقى الا الزراية من الكاتب المعروف •

ويعرض لنا الحوار بين الرجلين ، صعوبة الفهم والتعبير بين الناس ، كما يعرض لنا اهتمام ناغيبين بتصوير ما يحس به المرء من مرارة عندما يفشـــل فى ان ينقل الى

انسان آخر ، شيئا من افكاره ، فينساق فى طريق آخر ، يعرف ما يحدث له فيه ، ولكنه لايستطيع التوقف ، متحدثا باشياء واشياء ، لاتمت بصلة الى ما كان يريد ان يقوله • وهو يصور لنا أيضا ، ودون أية لمسة من لمسات الحقد أو السخرية شخصيات أولئك الذين يفقدون السيطرة العقلية على أنفسهم •

قصص جديدة

واذا ما أقبل القارئ على مطالعة ما تنشره الصحافة الادبية السوفياتية من قصص لغير هذين الكاتبين ، تبين له ان بعض الكتاب يحاولون اجتذاب قرائهم ، بسرد الوقائع المثيرة التى تدور أحداثها ، فى اماكن غريبة ، يحاولون عن طريقها اخراجهم عن الرتابة التى ألفوها فى قصص العهد الستالينى • وليست قصة كورابينوف « الملجأ السرى فى الغابة » ، الا صورة تجريدية رائعة لحروب العصابات ضد الألمان ، كما ان قصة ليونيد بيرونيايسكى ، « قهوة على طريق بودابست » ، ليست الا لوحة لنضال الشيوعيين فى المجر ، ضد الحكم الديكتاتورى السابق ، وتتحدث قصة افريموف « افاينور ابنة خارخيلين » ، عن حملة عالم أثرى فرنسى فى الصحراء الكبرى وهى تجمع بين متعة • الطرافة والحملة على الاستعمار والتجارب النووية ، بينما تتحدث قصة ميتر « موارث » عن حياة كلب من الكلاب البوليسية •

وهناك طراز ثالث من القصص الجديدة فى الادب السوفياتى ، وهو الطراز الذى يثير المشاكل الاجتماعية والاخلاقية • وقد اكتسب فورونين الشهرة الداوية بقصتين من هذا الطراز تحدث فى اولاهما « الدانوب الازرق » ، عن الصداقة بين رجلين ، تنقلب الى عداء مستحكم • ينتهى بالشجار الذى يطوح بأحدهما الى السجن وبالآخر الى المستشفى ، وتحدث فى الثانية ـ وهى قصة « العودة الى البيت » عن مشكلة الخيانة للوطن •

ويعرض فورونين فى الاولى ، قصة رجلين صديقين ، ينقلبان الى عدوين ، ثم يتشاجران ، فيحطم احدهما فك الآخر ، ويقضى عليه بالسجن عاما ونصف عام • وعندما يطلق سراحه ، يقصد صديقه ليعتذر اليه ، فيبادره هذا بطعنة مدية ، تودى به الى المستشفى كما تؤدى بالغريم الى السجن • وتصور الكاتب فى قصته هذه ، العداء بين الرجلين ، على انه شىء يخلو من المنطق ، والعقلانية ، ولكنه لايستطيع ان يقرر أيا منهما هو المخطىء ، أو أين تقع الخطيئة حقا ، وانما يحملها الى القدر ، أو الى تلك القوة الشريرة التى لاتقاوم فى الطبيعة الانسانية •

أما فى قصته الثانية ، فهو يثير موضوعا اكثر تعقيدا • فالبطل جندى سوفياتى ، عاد الى قريته من أسر الالمان ، ليجد فاسيلى ، يعيش هانئا فى بيته مع زوجته واطفاله • ويتذكر الاسير العائد • انه كان قد رأى هذا الشخص أو من يشبهه ، حارسا يخدم الالمان • ويتحدث الرجلان ، فيعترف فاسيلى بالحقيقة ، قائلا ••• « لقد أردت أن أعيش » • ويتوسل الى البطل ألا يشى به ، عارضا قضية تستفز

الاشفاق على أولئك الذين ضعفوا عندما واجهوا الموت ، فخافوا وطنهم ، ثم أفلحوا فى العودة الى صفوف الشرفاء بعد أن أخفوا خيانتهم .

وكان على ايفان ان يقرر ، هل ، يحطم حياة فاسيلى وعائلته ، او يترك القرية دون ان يشى به . ويحدث نفسه قائلا « لقد انتهت الحرب منذ سنوات طوال ، ولكنها مازالت دائرة فى حياتنا ، ان فاسيلى يستثير شفقتى » .

لكن هذا الموقف العطوف المارق على رجل خائن ، اثار غضـــب الكثيرين من القراء والنقاد .

هذه صور خاطفة ، رأيت ان اعرض فيها لمحا عابرة من الاتجاهات الجديدة فى الادب السوفياتى ، وهو الادب ، الذى انطلق من جديد ، وفى عهد خروشـــــوف ، ليرسم الحياة بواقعها وآلامها ، وعواطفها واشراقها .

ولعل خير ما نختتم به هذا الحديث لاعطاء الصورة الصحيحة ، لهذه الاتجاهات. هو ما قاله ايفان انيسيموف الناقد المعروف ، ومدير معهد جوركى للادب العالمى فى مقال له عن القصة الحديثة ... « اصبحت القصة الحديثة هى مدار الحديث والنقاش بين أدباء العالم . وقد اتضح أن هناك اتجاهين يتباينان كل التباين ، فى النظر الى القصة كفن من فنون الحياة . فالاتجاه الاشتراكى يرى أن من واجب القصة كفن ، ان تؤدى دورا بارزا وفعالا ، فى خلق قيم اجتماعية وانسانية جديدة . فهى عمل ايجابى بناء ، يسهم فى اقامة المجتمع الاشتراكى السليم .

« اما الاتجاه الثانى فيقول بان القصة قد فقدت كل صلة لها بالمجتمع ، ولم تعد تكس فى العالم البورجوازى الحديث ، الا كل معالم الانحلال الروحى .

« وهكذا يقوم الصراع بين البحث عن القصة التى تخلق الكمال الانسانى وبين القصة التى تنشد انحلال البشرية وتفسخها » .

الكتاب المفقود

قصة من السودان

بقلم : محمد صالح ابراهيم

كان يمشي الهوينا في طريق « الأربعين » · وهو طريق غير مزدحم · ولو لم يكن كذلك ماكان لشعبان خام ان يطرقه في مغدى أو رواح · فهو يتخذه قضبانا له في ذهابه الى مكتبه في الصباح ولدى عودته الى بيته ظهرا ·

وفي منتصف الطريق كان في جهاد عنيف مع نفسه ، لقد ذكر أن امرأته خضرة كانت قد طلبت منه ان يعطيها شيئا ماقبل خروجه ، فخرج دون ذلك · وهو الآن يحاول عبثا ان يتذكر ما هو ذلك الشيء ·

وتوقف لحظة قبل ان يلج مكتبه ليتلقى تحية الصباح · فقد نهض البواب متثاقلا وانحنى مكرها وارسل تحيته في غير ابتسام ·

وجلس باشكاتب شركة الحامات الى مكتبه · ودس يده في جيبه الأيمن فخرجت بمنديل · ثم دسها في جيبه الأيسر فخرجت بمنديل آخر ، لقد كان يبحث عن شيء غير المناديل ··

ولم يكن قد حضر أحد من الموظفين بعد ، فنظر في ساعته وادرك أنه قد جاء قبل موعد العمل بعشر دقائق ولم يكن يعلم ذلك · لابأس · تناول قلما وقرطاسا وأخذ يرسم خطوطا ودوائر لا معنى لها يقطع بها الوقت ·

ولما رفع رأسه ونظر في ساعته كان قد مضى من الوقت نصف الساعة ، وكان الموظفون وقد تكامل عددهم قد بدأوا نشاطهم اليومي بقراءة الصحف ·

« يا الهي · لقد حذرته أربعين مرة الا يأخذ شيئا من مكتبي حتى آذن له · فما هذا · ما هذا ؟! أف ·· لقد كدت القي بنفسي من النافذة فأستريح من هذا المخلوق · »

والمخلوق هذا أحد صغار الموظفين · ولم يلاحظ شعبان خام حين ألقى كلامه هذا أن النافذة تقوم بين شدقيها حواجز من حديد · وقبل أن تهدأ فورته عاد يقول : « عجيب والله أمر هذا الولد يضع يده على مكتبي متى يشاء ويأخذ منه مايشاء · ولسوف نفقد كل شيء مادام يوسف محشورا بيننا في هذا المكتب ، وهأنذا لا أجد نظارتي · لقد خلعتها و ·· » ·

وهنا أمسك شعبان خام عن الكلام · فقد أحس النظارة في جيبه · ولم يكن

يوسف موجوداً ، ولعله كان في ذلك الحين محشوراً في المقصف يصيب شيئاً من عصير الليمون ، بيد أن زملاءه كان منهم العاقل يرتاب في سلوك يوسف ويشفق عليه ، وكان منهم الحاسد يتمنى له العثرة وسقوط الشأن ، كما كان منهم الحانق على شعبان خام وعلى حواجز الحديد ..

ودق جرس التليفون ورفع الباشكاتب السماعة الى أذنه الكبيرة :
« ... نعم سعادتك ..حالا سعادتك.. حاضر سعادتك » .

ووضع السماعة بصوت مسموع ونهض يهرول الى مكتب مدير الشركة وهو يقول : « المدير عايزني . خذوا بالكم من التليفون .. من مكتبي .. من نظارتي .. » .

وفي هذه اللحظة عاد يوسف من المقصف ، وخلا الجو للموظفين كبيرهم والصغير ، فخلوا بينهم وبين العمل ، وأخذوا يتجاذبون الحديث ويتقاذفون بالنكات ويغتابون رئيسهم ويعيبونه بالتسرع وعدم التريث والاتزان وغير ذلك من الصفات التي تجعل للمرؤوس من شخصية الرئيس لساناً طويلاً حاداً ..

ثم أكب كل على عمله . فقد عاد شعبان خام بسلام وانقطعت الحركة والكلام .

***

مضت برهة وجيزة كان الباشكاتب خلالها منهمكاً في مراجعة بعض الرسائل، ثم قطع حبل السكون صائحاً مهتاجاً :

« الكتاب ! الكتاب ! أين كتابي ؟! »

وتطلع الموظفون بأنظارهم نحوه وهو يبحث عن كتابه في كل مكان ، تحت الدفاتر وفي أدراج مكتبه وفي جيوب بذلته وفي أرض المكتب . ثم وجه الخطاب الى العيون الشاخصة اليه :
« هل فيكم من أخذ كتابي ؟ هل فيكم من رأى كتابي ؟ لقد كان أمامي هنا منذ الصباح » .

وتحول عنهم بوجهه الى يوسف :

— أنت أخذت الكتاب .

— أنا لم آخذه .

— افتح درجك .

— قلت أني لم آخذ الكتاب .

— وأنا متأكد انك أخذته ، وهو حتماً في هذا الدرج الذي تأبى أن تفتحه مخافة أن يفتضح أمرك . ولكنك وقعت في فخ لا سبيل الى خلاصك منه » .

قال ذلك واندفع بحماقة وحزم الى مكتب المدير بالرغم من توسلات الموظفين اليه وقد أيقنوا أن يوسف قد أسرف في العبث الى درجة لا تليق بالموظفين .

وسرعان ماراعهم لما أقدم المدير وفتح الدرج ولم يجد أثراً للكتاب فيه . وكان قد حان موعد الانصراف ولم يبق هناك مجال للبحث والتحقيق .

كان شعبان خام يتحدث الى نفسه وهو يمشى الهوينا عائدا الى داره ، وقد نسى كل شيء الا أمر هـذا الكتـاب المفقود . فقـد بلغ من اهتمامه به أنه يحمله كل يوم الى المكتب ويحس أنه جزء متمم له . لقد كان بادى الغضب والغيظ والحقد على يوسف . واقترب من داره وهو مازال مغيظا محنقا ولكنه كان قد انتهى الى شيء يشبـه القرار وصمم على تنفيذه : « غدا سنرى مايفعله المدير ليوسف . فان لم يقتص لى منه بالعقاب الصارم فانى سوف أستقيل . سوف أرفع الأمر الى القضاء .. »

استقبلته خضرة بوجه أبعد ما يكون من البشـاشة . ولكنهـا لاحظت أن وجهه ، على غير العادة ، مكفهر فسالته فى ذلك فقال لها :

- اننى اليوم مشـغول البـال .. وما بالك أنت واجمة ؟

- لأنك صرت تنسانى .

- كيف أنساك . وهل ينسى الرجل زوجته ؟

- ألم أطلب اليـك فى الصباح أن تعطينى جنيها قبل خروجك ؟

- حقا . حقا . لقد تذكرت .

- فلماذا اذن لم تعطنيه ؟

- آسـف . لقد نسيت وطلع من بالى .

- وكذلك نسيت الكتاب ..

- ماذا ؟

- الكتاب الذى تقـرأ فيه ليـلا ونهارا .

- كلا ، لم أنسه . ولكن فقد منى بالمكتب .

- أنت نسيته هنا فى البيت !

- ماذا تقولين ؟ فى البيت !!

لقد أسقط فى يده وكاد يغمى عليه. اذ كيف أنه لم يحمل الكتاب معه الى المكتب فى الصباح كالعادة . ثم كيف ينسى ذلك ، فيتهم يوسف بسرقته ويوسف برىء ! لقد صمم أن ينبذ هذا الكتاب الذى أضر به من حيث أريد به النفع ، فلا يطالع فيه مرة أخرى ، بل لا يحمله الى المكتب مرة أخرى ، أجل لن يحمله الى المكتب بعد ذلك أبدا ..

***

غادة كان اليوم التالى تمنى شعبان خام أن لو لم يكن هذا اليوم من أيام الله . ولـكنه الكتاب . لقد جلس فى مكتبه يفكر دون انقطاع . وبينما هو كذلك استدعاه المـدير للتحقيق مع يوسف فى تهمة السرقة الموجهة اليه .

تعلق شعبان خام بذاكرته متلمسا طريقا للخلاص من هذا المأزق . فالفى ذاكرته تخونه هذه المرة كما خانته فى كل مرة ، ومع ذلك فقد صمم على ألا يبوح بالحقيقة فانها أشد مرارة وقسوة عليه من أى شيء آخر . أجل لا ينبغى أن يذكر لاحد أنه وجد الكتاب بداره . لاينبغى مطلقا ان يفعـل ذلك . بل انه لايستطيع أبدا أن يبـدى الاعتذار أو يحتمل التوبيخ . تلك فضيحة ينبغى

أن يضم جناحيه عليها ، ويعمى أمرها على رئيسه المدير حتى لايتسخط عقله ٠ فلابد اذن أن يمثل الاتهام فى قوة واصرار وفى كذب وبهتان حتى النهاية٠ ولكنه مع ذلك ألفى نفسه تتخاذل عنه وذاكرته تهرب منه عندما سأله المدير :

ـ أين وضعت كتابك أمس ؟

ـ فى درج يوسف ٠

ـ أنت وضعته فى درج يوسف ؟!

ـ آسف ياسيدى ٠ لقد ظننت ان يوسف أخذه من مكتبى ٠

ـ ظننت ؟! لقد كنت بالأمس تؤكد ٠

شعر شعبان خام بالحرج الشديد ، واحس أنه لايستطيع الصمود ، فهاهى فى قواه قد بدأت تخور ، فحاول أن يوصد باب التحقيق حين ابدى فى ضعف ووحل لا سبيل الى دفعهما عنه تنازله عن الشكوى وانه قد سامح يوسف هذه المرة ٠ ولكن المدير رد عليه فى حزم أن ليس من حقه هنا أن يسامح ٠ وان حادث سرقة فى شركة لها سمعتها الطيبة فى البلد لايمكن التسامح فيه ٠ ثم وجه اليه السؤال :

ـ قلت لى أمس أنك حملت كتابك الى المكتب ، وكنت تقرأ فيه أمام الموظفين ثم افتقدته بعد ذلك بقليل ٠

ـ أليس كذلك ؟ ٠

ـ نعم سعادتك ٠

ـ واتهمت يوسف ولم تعثر على الكتاب معه ، هل تتهم شخصا آخر ؟

لا ٠ ٠٠عادتك ٠

ثم اتجه المدير الى يوسف ووجه اليه السؤال :

ـ ان التهمة قوية ضدك ٠ ولقد فرضت رقابة شديدة عليك أمس قبل انصرافك من عملك ، ان الكتاب لم يخرج معك ، ومعنى ذلك أنه موجود هنا بالمكتب ، فى المكان الذى خبأته فيه ٠

ـ أنا لم آخذ الكتاب ياسيدى ٠

ـ أجل ٠ هل تعرف من أخذه ؟

ـ كلا ياسيدى ٠

ـ ومع ذلك فانى متأكد أن الكتاب لم يخرج من دار الشركة ٠ انه موجود هنا وعلينا أن نعرف مكانه ٠

ـ نعم يا سيدى ان الكتاب موجود هنا ٠

وعندئذ ظن شعبان خام أن يوسف يهذى ٠ فارتاحت نفسه لهذا الهذيان ٠ فهو يعلم أن الكتاب موجود الآن بمنزله ٠

وأضاف يوسف والابتسامة تملأ وجهه :

ـ ذلكم هو الكتاب !

وانتقلت عين المدير وعين شعبان خام الى حيث أشار يوسف بيده ٠ وحينئذ انتفض شعبان خام فزعا مضطربا ٠ ودون وعى منه انتزع الكتاب من جيبه بشدة وانفعال صارخا :

ـ يا الهى ! أحقا أنى نسيت أيضا فحملته معى اليوم ؟! أف ٠٠

ـ سأله المدير :

ـ وأى كتاب هذا الذى صرفنا عن أعمالنا الى هذا الحد ؟ » ٠

فأجاب شعبان خام :

ـ هو يا سيدى كتاب يحوى أربعين طريقة لتحسين الذاكرة !! » ٠

الخرتيت !

قصة

بقلم : حسين القباني

فى بلدة ما من بلدان الجمهورية العربية المتحدة ..

قد تكون هذه البلدة فى اقصي الشمال ، او فى ادنى الجنوب .. فليس لهذا اهميته الكبيرة فى هذه القصة .

وفى مصنع ما بمشارف هذه البلدة ..

قد يكون هذا المصنع للنسيج اوللغزل او للحديد او لاى شيء من هذه الصناعات التى راحت تنمو فى اقليمنا نموا مباركا ميمونا . فليس لهذا أهميته الكبيرة فى القصة .

وفى قسم من اقسام التشغيل فى هذا المصنع ..

قد يكون قسم المولدات الكهربائية ، او قسم الماكينات ، او قسم التجميع ، او قسم التغليف .. فليس لهذا أهميته الكبيرة فى هذه القصة .

اذن ما الذى له اهميته الكبيرة فى هذه القصة ..

انه الخرتيت .. انه الاسطى هلال رئيس عمال هذا القسم ، ولا أحد يعرف متى اطلق عليه هذا الاسم ، أو من اطلقه عليه ، الا اذا عرفنا من أطلق اسم « ابو اصبع » على هذا التمثال الذى كان قائما يوما ما فى ميدان الاوبرا ، ومتى اطلق هذا الاسم !

اما لماذا سمى بالخرتيت ؟ لانه لو لم يكن آدميا لكان خرتيتا !!

ان الريس هلال كتلة من اللحم المكسو بالشعر .. طويل ، ضخم ، قصير العنق ، كبير الراس يرتفع من بين كتفيه ما يشبه السنام على ظهره ، ويبرز من وسط جبينه شيء كالكيس الدهنى كأنه قرن وحيد ، ولعل هذا النتوء هو الذى اوحى الى بعضهم باطلاق اسم الخرتيت ، اى « وحيد القرن » عليه

وهو فى مسيره ينحنى بجذعه الاعلى الى الامام فيبدو كأنه ثور يتحفز للهجوم . واذا غضب — وكثيرا ما يغضب — تراه يضرب الارض بقدميه

تماما كما يفعل ثور المصارعة فى فيلم كوفاديس .. وسرعان — عند الغضب ايضا — ما تحمر عيناه الصغيرتان المستديرتان ، ويمتلىء النتوء البارز من جبينه بالدم فيتصلب ويزداد بروزا ، وتنتفض طيات الدهن على وجهه انتفاضة الطائر فى لحظة الاحتضار ، ويرتعش السيجار الضخم الطويل الذى لا يفارق شفتيه لحظة واحدة طيلة ساعات العمل .

وكما ان احدا لا يعرف متى وكيف اطلق عليه اسم الخرتيت ، فان احدا ايضا لا يعرف كيف استطاع هذا الرجل — وهو مجرد رئيس قسم من اقسام المصنع الكبير ، أن يفرض سلطته على جميع العاملين فى المصنع، ابتداء من عمال النظافة الى طاقم الرؤساء واعضاء مجلس الادارة .

وكان طبيعيا ان تتطاير الشائعات التى تحاول ان تبرر قدرته على فرض سلطانه على الرؤساء اما بالنسبة للمرءوسين والزملاء ، فكانت ضخامة جسمه ، وعنف مزاجه ، وقوته الهرقلية كلها كافية لاشاعة الرعب منه فى صفوفهم جميعا .

فاذا اضفنا الى هذا اقراضه لهم المال بالربا الفاحش ، امكننا ان نعرف ببساطة سر سيطرته على المرءوسين والنظراء فى المصنع ..

ولكن ، كيف استطاع ان يمد هذه السلطة على الرؤساء ؟

تقول الشائعات ان ام الريس هلال كانت يهودية ثم أسلمت بعد زواجها من ابيه ، وان الدماء الصهيونية تجرى فى عروقه ، ولعل السيدة والدته علمته منذ الصغر ان لكل انسان فى الدنيا جانبا ضعيفا فى شخصيته يستطيع الرجل الذكى ان ينفذ منه ويسيطر به عليه .

ويبدو ان الريس هلال ، كما تقول الشائعات — قد شب وهو يحرص على تطبيق هذا المبدأ من جميع المتصلين به . فهو مع المرءوسين والنظراء يستغل ضعفهم البدنى بالنسبة اليه ، وحاجتهم الملحة الى المال فى بعض الازمات ليفرض سلطانه عليهم — وهو مع الرؤساء يلجأ — اذا لم يجد الارهاب بالقوة البدنية — الى تقديم الغانيات المأجورات لمن يعرف انه « خلبوص » — هكذا تؤكد الشائعات ، والى تقديم الديكة الرومية وصفائح السمن البلدى واقفاص الفاكهة الى من يعرف انه « دباغ » — ، والى خلق المشاكل المتوالية امام الرئيس النظيف حتى يجعل بقاءه فى المصنع مستحيلا .

هكذا تقول الشائعات — التى قد تكون كلها صادقة ، او بعضها على الاقل ، فى تبرير سلطة الخرتيت التى استطاع أن يفرضها على المصنع الكبير بكل من فيه وما فيه .

ولكن العمال جميعا ، على وجه التقريب ، كانوا يعجبون ويشفقون فى الوقت نفسه — من اسراف الخرتيت فى قسوته على العامل الفنى سيد ، أو « أبو عرب » — كما يحلو لزملائه ان ينادوه ..

كان ينتهز كل فرصة ، بل ويتصيد المناسبات لكى يوجه الاهانات المقذعة الى « ابو عرب » ثم يكشر عن انيابه الصفراء فى ابتسامة تحمل معنى التحدى ، وكان « ابو عرب » يحتمل



هذه الاهانات فى صبر عجيب طالما اثار اعجاب بعض الزملاء ودهشة بعضهم الآخر ؛ وسخرية القليل منهم الذين اطلقوا عليه اسم « الجرذ »

وتناثرت الشائعات — كالمعتاد — بأن الخرتيت يغار من « أبو عرب » لانه اول عامل متخرج فى معهد صناعى فنى ، وانه يرمز للجيل الجديد من العمال الفنيين الذين يجمعون بين الثقافة والبراعة الفنية والشعور الكامل بالمسئولية .

ولكن شائعة اخرى — اقوى — تقول ان الخرتيت يتلوى بجسمه الضخم غراما وهياما بسناء ، الموظفة الحسناء بادارة المستخدمين بالمصنع ، والواقع أن سناء كانت من هذا النوع من النساء المشحون بكمية ضخمة من الجاذبية التى تفرض سلطانها على قلب اى شاب ..

وفرضت جاذبية سناء سلطانها على الخرتيت .. انه — على كل حال — بشر من حقه أن يستجيب للجاذبية الانثوية ، وان يحب .. ولكن ليس من حقه طبعا أن يفرض هذا الحب على سناء أو غير سناء لان الحب هو الشيء الوحيد الذى لا يستطيع أن يفرضه — ولو كان خرتيتا — على احد ، او ان يشتريه احد — ولو كانت له اموال قارون — من احد !

ولم يستطع ان يغريها بجسمه الضخم او بقوته الهرقلية التى كان يظن انها دليل فحولة عارمة ، ولم يستطع ايضا أن يغريها بالهدايا التى قبلت بعضها فى اول الامر — مجاملة —

ثم رفضتها بعد ذلك فى اصرار عجيب ..

وأبى الخرتيت أن يقبل مجرد التفكير فى ان سناء ترفض حبه ، أيعقل هذا ؟ أيمكن ان ترفض حبه فتاة — أية فتاة — فى المصنع ، حتى لو كانت سناء الجذابة ، وهو الحاكم بأمره فيه !

اذن لابد ان يكون هنك سبب لهذا التمنع والدلال .. ولن يكون خرتيتا اذا لم يعرف هذا السبب ..

ولم تمض غير أيام معدودة حتى عرف الحقيقة الرهيبة التى جعلت العرق يتصبب على جبينه وقفاه .. عرف ان سناء تبادل « أبو عرب » الحب وقد تواعدا على الزواج فى أول فرصة سانحة ..

وراح الخرتيت يضرب كفا بكف فى دهشة واستنكار لتصرفات بنات اليوم اللاتى يفضلن « جرذا » مثل سناء على اسد مثله .

ولكن .. هل يليق بالاسد ، اعنى الخرتيت أن ينهزم امام جرذ مثل سيد ؟

اذن يجب على الخرتيت أن «يفوره» بسرعة صاروخية ، والا فسوف يجعل منه اضحوكة المصنع .. وابى « أبو عرب » أن « يفور » بسرعة او ببطء .. ولكن نظراته النارية الى الخرتيت كانت تحمل فى طياتها معانى جديدة أبعد ماتكون عن الرضوخ والاستسلام ..

كان يصر على اسنانه ، ويزم شفتيه كأنما يخشى ان تنفلت منه عبارة تكشف عما يريده فى نفسه للخرتيت .. وفى احيان اخرى كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة خفيفة .. ابتسامة الرجل الذى يؤمن بالمثل القائل « الشاطر يضحك فى الآخر »

وسرى فى جو المصنع شعور خفى بالترقب والتوتر . كان الجميع يدركون ان الموقف بين « أبو عرب » الجرذ — وبين الرئيس هلال — الخرتيت لن يستمر هكذا بلا نهاية ..

ولكن هذا الشعور لم يلبث أن تلاشى او على الاصح ، أن انزوى امام الفرحة الغامرة التى ملأت نفوس العمال جميعا عند اذاعة القوانين الاشتراكية الجديدة التى صدرت فى عيد الثورة المباركة التاسع ..

لقد وجد العمال انفسهم ، فى يوم وليلة ، شركاء فى المصنع ، شركاء فى الانتاج ، وفى الادارة وفى الارباح .. اى ان المصنع لم يعد ملكا لفرد واحد ، وانما ملك لهم وللشعب بأسره ..

وسرت فى نفوسهم فرحة العمر .. فرحة الذى تحققت آماله فجأة بعد ان طال الانتظار . وبطبيعة الحال لم يكن لهم حديث فى الصباح التالى لاعلان هذه القوانين الثورية الاشتراكية الا عن هذا العهد الجديد السعيد الذى فتح لهم أبواب الرخاء والشعور بالاستقرار والتطلع الى المستقبل فى ثقة وامان .

ودخل « الخرتيت » بجسمه الضخم وسيجاره الممتد من شفتيه كالمدخنة الافقية .. أو كما سماها بعض العمال « الشكمان » وتلفت حوله حيث وقف بعض العمال الغافلين عنه يستطردون فى الحديث عن هذه القوانين ، وفجأة ضاقت عيناه ، وتصلب قرنه الوحيد ،

وتقدم قائلا بصوته الذى كان اقرب فى نبراته الى نباح كلب عقور ..

— والله عال .. ما نقلبهـا قهوة احسن !

وتفرق العمال مسرعين الى آلاتهم ولكن العامل ابراهيم تلكأ قليلا وسار متمهلا كأنمـا الأمر لايعنيه فى شيء ، وضرب الخرتيت ارضية العنبر بقـدمه تماما كما يفعل ثور فيلم كوفاديس ، وتقدم متحفزا نحو ابراهيم ثم أطبق يده الضخمة على قفاه قائلا :

— انت يا واد مش عاجبك كلامى !

وترك العمال آلاتهـم ووقفـوا يترقبون .. ولم تكن تلك أول مـرة يشـتبك فيها « الخرتيت » بأحد العمال ويرغمه على الرضوخ لاوامره. ولكن العمال — لامر ما — كـانوا يتوقعون بدافع احساس خفى ان زميلهم ابراهيم لن يرضخ لجبروت « الخرتيت ».

وصدق احساسهم فقد أبى ابراهيم أن يستسلم ، رغم كل محـاولات « الخرتيت » معه . بل لقد تمادى وظل وهو يكتم آلام عنقه فى جهد :

— انا من النهاردة راجل ، وحافضل راجل على طول .

وسقط على الارض فى شبه اغماء وحاول بعض العمال ان يهرعـوا الى اسعاف زميلهم .ولكن الخرتيت استدار نحوهم ، وعاد « يرفص » الارضيـة بقدمه كثور فيلم كوفاديس ، ثم يـدير نظراته فيهم قائلا :

— اللى عاوز يحصله يتفضـل يورينى شطارته ..

ولم يسـتطع احدهم أن يفـأمر ويضع عنقه فى قبضة هذا الوحش الآدمى .. ولعلهم جميعا تذكروا عندئذ الحفلة الرياضية التى اقامها المصـنع فى العام السابق بمناسبة الاحتفـال بعيد الثورة الثامن .. لقـد وقـف « الخرتيت » ومن ثم تقـدم — وكان يضرب على صدره — تماما كطرزان — يعرب عن استعداده لمصـارعة اثنين فى وقـت واحد .. ولما كانت الحفلة تحت اشراف مديرى المصنع واعضـاء مجلس ادارته ، فقد عز على الريس ابو العلا ان يحنى العمال ، كل العمـال، رءوسـهم فى ذلة واسـتخذاء أمام « الخرتيت » ومن ثم تقدم — وكـان يمتاز ايضا بضخامة الجسـم — الى الحلبة بين هتاف العمـال وتصفيقهم الجنونى .

ولكن الريس ابو العلا لم يلبث بعد لحظات أن حمل الى المستشـفى حيث ظل يعالج من كسور عظامه سـتة اشهر وبضعة أيام ..

ولعل العمال كانوا يذكرون انفسهم فى تلك اللحظة بذلك الحادث ، ولعله هو ايضا قد ادرك ما يدور بخواطرهم، فارسل ضحكته المجلجلة وقال :

— ها .. ها .. فاكرين انكـم حاتبقوا اصحاب المصنع بصحيح .

ثم ضرب على صدره واردف قائلا :

— طول ما انا هنا مش حايكـون للمصنع صاحب غيرى ، فاهمين !

وغادر العنبر بعد أن أمر كلا منهم بالعودة الى آلته

ولكن العمال اجتمعوا حول زميلهم

ابراهيم الذى نهض يترنح وهـــو يتحسس قفاه . وقـال العامل مرسى بصوت هامس :

ـــ مش كلام دا يا جدعان .. احنا لازم نشـوف لنا طريقة مع الكاينه دا !

وقال العامل عبد الصبور :

ـــ على كل حال المسألة هانت .. بكره حايبأ لنا ممثلين فى مجلس الادارة وبكره نتخلص منه ..

وهنا تقدم العامل الفنى ســـيد وقال : تفتكروا ان المصـــنع يمكن يستغنى عنه ؟

ـــ ليه لأ ، هـــو اللى خلقه ما خلقش غيره ..

ـــ مفيش غيره يعرف اصغر واكبر حتة فى كل آلة وفى كل مكنة وفى كـــل موتور بالمصنع ..

وكان سيد « ابو عرب » غير مبالغ فى حديثه هذا عن « الخرتيت » الذى عاصر المصنع منذ نشأته واســتطاع ان يجمع بين يديه كل اسرار تشغيله . وقد حاول احد المديرين ان يفصلــه ، فتوقفت الآلات فى قســـم المولدات الكهربائية ، وعبثا حاول المهندســـون اصلاحها . ولما اعيد « الخرتيت » الى عمله ، تحركت الالات وازداد سلطانه قوة ..

وقيل يومذاك ان لديه اعوانا مأجورين كل مهمتهم ان يعطلوا الآلات اذا تجرأ احد الرؤساء على فصله .

ولكن .. اين الدليل ؟

وقال العامل مرسى :

ـــ يعنى عشان كدا لازم نعيش تحت رجلين الكاينة ..

فقال سيد « ابو عرب » :

ـــ اعتقد ان فيه حل يكسر شوكته وفى الوقت نفسه يخلى المصـــنع ما يتحرمش من خبرته .

ـــ وايه الحل ؟

وصمت سيد برهة قبل ان يقول :

ـــ واحد مننا يهزمه فى المصـــارعة الحرة يوم الحفلة الرياضية فى الجمعة الجاية ..

ونسى العمال انفســـهم وانفجروا ضاحكين ساخرين :

واسرع زميل لهم كان يرهف السمع عند مدخل العنبر قائلا :

ـــ الخرتيت جاى ..

وتفرق العمال مذعورين الى آلاتهم ..

وفى يوم الحفلة الرياضية ، وقـف الخرتيت فى حلبة المصارعة بجسمه الهائل العارى الا من لباس المصارعة ، يضرب على صدره المكســو بالشــعر الاسود الغزير ، ويرســل صـــوته المجلجل قائلا وهو يختلس النظـرات الى الجانب الذى جلس فيه العاملات والموظفات وغيرهن من المدعوات .. وكانت ســناء بطبيعة الحال جالســة فى مكان بارز بينهن .

ـــ خلاص .. مابأش فيه رجالة فى البلد !

ولو نظر احد المتفرجين الى وجـــه مدير المصنع فى تلك اللحظة ، لرآه يعض على نواجذه من فرط الغيظ ولكن

المتفرجين جميعا ، وكانوا بضعة آلاف من العمال وسكان البلدة ، فوجئوا برؤية سيد « أبو عرب » — الجرذ — يتقدم الى الحلبة فى لباس المصارعة وقد زم شفتيه ، وتألقت عيناه بنظرات غريبة كأنها — فى وميضها — الشرر :

وسرت بين الآلاف همهمة دهشة وخوف واشفاق . وصاح احد الجالسين بجانب المدير قائلا :

— ارجع يا سيد .. انت مجنون

وقال احد المتفرجين :

— دا يظهر عليه عايز ينتحر :

ولكن سيد كان قد صعد الى الحلبة وقد بدا جسمه الاسمر البرونزى طويلا متناسق الاجزاء مفتول العضلات . ولكنه ، رغم هذا ، بدا كالجرذ امام العملاق الريس هلال ..

وارسل« الخرتيت »ضحكة ساخرة مجلجلة وتقدم فى استهتار ليحمل سيد بيد واحدة ويلقى به خارج الحلبة وهو يقول :

— ما احنا بقينا فى زمن العجايب .. ما بآش كمان الا الصراصير تقف قدام السبعه .. يا ابنى روح

وانقطع الحديث على شفتيه حين وجد نفسه يرتفع فى الهواء بضعة اقدام ثم يسقط كالجلمود على ارضية الحلبة ..

وظل راقدا برهة كأنما لا يصدق ما حدث ، وخيم الصمت النابع من الدهشة المخيمة على الجميع وفجأة ارتفعت الصيحات وتعالى الهتاف ،ودوى التصفيق ، وصاح احدهم وهو يقف على مقعده راقصا :

— ايوه كدا يابو عرب .. ينصر دينك ..

ووثب « الخرتيت » كالكرة واقفا ، وهجم على سيد فى عنف يحاول الايقاع به بين يديه وكان فى الواقع يعلم — والجميع يعلمون — انه لو امسك بسيد بين يديه فى تلك اللحظة لازهق روحه . ولكن سيد كان محتفظا بهدوئه مدركا تماماماذا ينبغى أن يفعل ، متوقعا كل حركة يقوم بها غريمه .

وفى لحظات انتصر الفن على القوة الغاشمة وهكذا استطاع سيد أن يجنى ثمرة تدريبه سرا — لمدة عام كامل — على المصارعة اليابانية ، فاذا هو يهزم « الخرتيت » فى اقل من عشر دقائق . واذاهو ينتهز فرصة سقوط «الخرتيت» على وجهه ، فينقض عليه من الخلف ، ويضع كل قوته فى يديه وهو « يسففه التراب » — كما قال العمال ..

وانفجر « الخرتيت » فى النهاية باكيا ..

ولم يعد العمال يسمونه «الخرتيت» منذ ذلك الحين .. وانما اختاروا له اسما آخر اظنه « عيشة » !! .



أجدع الناس

محمود السعدنى

اختفى عبد العاطى أسبوعا ، من قهوة أمين ثم ظهر البالطو على كتفه والكوفية حول عنقه ، عرقه يغسل يديه ، فقد كان الجو حارا لايطاق ، ولقد كان اختفاء عبد العاطى مثار تخمينات من رواد قهوة أمين بعضهم قرر أنه طفش والبعض أكد أنه مات ، أكله ترام وهو عائد من المخبز فى الصباح ، والبعض قال انه مريض وربما سافر الى مكان بعيد ٠

وعند ما ظهر عبد العاطى فى قهوة أمين ذلك المساء ورأى النـــاس يديه مصبوغتين بالحناء عرفوا أن عبد العاطى تزوج من بنت الحلال ٠

والتف الصحاب حول عبد العـاطى يسألونه فى فضول عن دنياه الجديدة ، انهم جميعا عزاب لم يدخلوا دنيا بعد ، وعبد العاطى وحده هو الذى قرر واقتحم دنيا الجواز ، وعبد العاطى كان مثلا فى دنيا العزوبة ، ورأيه فى الزواج له وزن وله مقام ٠

ونظر عبد العاطى فى هدوء الى الجالسين حوله : محمد حنيف ، وصابر الطباخ ، وعبده المكوجى ، وسيد العسكرى ، ثم رفع يديه الغليظتين المصبوغتين بالحنـاء وصفق طويلا ، وجاء الجرسون ، وطلب مشاريب للجميع ، ثم اعتدل فى جلسته وأصلح من هيئته وقال فى اهتمام بالغ :

ـ الجواز حلو ٠

واتسعت عيـــون الجالسين ، ومالوا جميعا الى الامام وشهق عبده المكوجى من الدهشة وسأل فى استنكار ٠

ـ حلو ! ؟

ومرت فترة صمت قبـــل أن يجيب عبد العاطى فى هدوء شديد :

ـ أيوه حلو ٠٠ بس للجدعان ٠

وكان عم ابراهيم العجوز يجلس بعيدا عن الصحاب الملتفين حول عبد العاطى ، ولكنه فيما يبدو كان يتتبع النقـاش ، فما أن استمع الى جواب عبد العـاطى الاخير حتى زحف بكرسيه الى الامام ، وقال وهو يزحف :

ـ اسم الله عليك ٠٠ ده كلام مظبوط ٠

وافسح عبده مكانا لعم ابراهيم ٠٠ وجلس وسط الحلقة المضروبة حـــول عبد العاطى ، ينظر فى شغف وله الى الشيشة التى تتداولها أيدى الجالسين ٠

وقال عبد العاطى بعد أن رشف من كوب الشاى رشفة طويلة لها صــوت مسموع :

ـ الراجل الجدع من غير مؤاخذه ٠٠ مفيش خوف عليه ٠

وهتف عبده المكوجى فى سرور :

ـ الله أكبر ٠٠ دا الـــكلام الجد ، الراجل الجدع يغلب ميت واحده ست ٠

ثم عاد الصمت من جديد ٠٠ وعادت الانظار تتعلق بعبد العاطى وهو جالس فى وقار والبالطو على كتفه والـكوفية حول عنقه ، والعرق يغسل يديه ٠ ٠ والشيشة مدفونة بين شفتيه ، ولـكنه نظر الى الجميع بعد قليل نظرة فيهـــا اعتداد شديد ثم قال :

ـ تعرفوا أنا عملت ايه أول يوم ٠

وقال الجميع :

ـ هيه ٠

ـ رحت البيت الساعة واحدة بالليل ٠

وكان عم ابراهيم قد نجح فى خطف الشيشة من يد صابر ، فهتف وهو ينفث من حلقه سحابة من الدخان :

ـ براوه عليك ، أهو كده الجدعنة ٠

وواصل عبد العاطى حديثه وكأنه لم يسمع تعليق عم ابراهيم :

ـ أنا كنت باقول ايه ؟ ٠

ورد عبده المكوجى بسرعة :

ـ رحت البيت الساعة واحدة بالليل ٠

ـ أيوه مظبوط ٠٠ انا رحت الساعة واحدة بالليل ٠ وكنت سكران طينه ٠

وضحك الجميع ضحكة هســـتيرية استغرقت وقتا طويلا ، وعند ما كفوا عن الضحك ، ظل عم ابراهيم يضحك وحده ، ثم قال بعـــد أن زايلته نوبة الضحك :

ـ عفارم عليك ٠٠ أنا يعجبنى أمور الجدعنة دى ٠

وانتهز عبد العاطى الفرصة واختطف الشيشة من يد ابراهيم ، وجذب أنفاسا سريعة ثم ناولها لصابر وقال :

ـ دخلت لقيتها مبوزة ٠٠ زعلانه ليه مابتردش ٠٠ حصل ايه ؟٠٠مابتتكلمش الغرض ٠٠ قلتلها قومى اخلعيلى الجزمة

وهتف عم ابراهيم وهو يمسح فمه بباطن يده :

ـ ايوه ٠٠ اسم الله عليك ٠٠ أهى دى حركة جدعنة مظبوطة ٠ ٠دى ٠٠٠ اطلب لنا شيشه اطلب ٠٠٠

وصفق عبد العاطى طويلا وجاء الجرسون ، وطلب شيشة لابراهيم ٠٠ ثم استأنف حديثه قائلا :

ـ الغرض ٠٠ عملت نفسها مش سامعة ، ورحت لهفها جوز اقلام خليتها وحياة سيدى النبى طرشت دم ٠٠٠

وهتف عبده فى جنون وهو يصفق بشدة :

ـ تسلم ايدك ياعبد العاطى ، أهو دا الشغل صحيح ، مش شغل الافنديه ، اللى يروح البيت يغسل الحلل لمراته !

وتساءل عم ابراهيم وهو يشفط أنفاس الشيشة فى اخلاص :

ـ غضبت ؟

ورد عبد العاطى فى ثقة شديدة :

ـ ما عنديش حد يغضب أنا ٠٠٠

وقال ابراهيم :

ـ اسم الله عليك ٠٠راجل طول‌عمرك ياعبد العاطى ٠

وصفق عبد العاطى مرة أخرى ٠٠ وأخرى ٠ ٠طلب شيشة للصحاب ، ثم وضع ساقا على ساق وأحكم وضع الكوفية حول العنق تماما ، وقال وهو يهز ساقه فى دلال :

ـ تانى يوم رحت‌الساعة تلاتةبالليل قابلتنى بتضحك ٠٠ مديت رجلى فى وشها راحت خلعالى الجزمة بسرعة البرق ٠

وتمايل الجالسون فى نشوة ، وقال عم ابراهيم وفى رنة صوته الفرحة بالانتصار :

ـ ماهى شافت العين الحمرة ، ولو كان راجل طرى شويه ، كانت ركبته ، اسألنى أنا ؛ حاكم أنا اتجوزت أربعة واستويت ٠

وبعد أن سادت فترة صمت قصيرة ، تساءل عبده المكوجى فى همس :

ـ انما الجواز عاوز مصاريف كتيره ياسى عبد العاطى ٠

ورد عبد العاطى فى استخفاف

ـ ولا كتير ولا قليل ٠ ٠ اللى معايا بنصرفه ٠

ورد عبده مشفقا :

ـ البيوت‌برضه تتكلف ياعبدالعاطى والست ساعات بتبقى ايدها مخروقة ٠

وقال عبد العاطى فى استنكار :

ـ والست مالها ومال الحاجات دى ٠

وتساءل عبده المكوجى :

ـ أمال مين اللى يصرف ؟

ـ أنا اللى ماسك مصروف ، واللى معايا بادفعه ، أمال هاقطع روحى ٠٠ هوه انا بنكير ٠

وصفق عبد العاطى ضجرا ، وجاء الجرسون وصرخ فى وجهه فى سأم شديد :

ـ هات دور شاى هنا يابنى ٠

ثم التفت الى عبده وقال :

ـ ست ايه وبتاع ايه ،طب ايه رأيك أنا امبارح رميتلها شلن ، رجعت لقيتها طابخه ووكله والحمد لله ٠ وأول امبارح مكنش معايا وسبتلها نص فرنك، جابت طعميه وعيش وكلت ، هوه انا هاأموت روحى ٠

وكان الشاى قد حضر ، وأطبق عم ابراهيم على الكوب ، وراح يرشف منه فى لذة فائقة ، وعندما أتى عليه سأل عبد العاطى فى اخلاص :

ـ والحمد لله يعنى مبسوط ؟

ورد عبد العـــاطى وشفتاه تطرقع بالسعادة وهو يقبل يده ظهرا وبطنا :

ـ الف حمد وشـــكر ، أروح البيت الاقى لقمة نضيفه ، وفرشة نضيفه ، والحقيقة البت نضيفه ، وخدامة تحت رجليه ، وألف حمـــد وشـــكر ياعم ابراهيم ٠

وهتف الذين كانوا يجلسون جميعا

ـ الف حمـد ، والف مبروك ياسى عبد العاطى ٠

وفتر حماس الجالسين بعد أن خمدت النار فى الشيشـــة ، وفرغت أكواب الشاى ، والقى عبد العاطى نظرة عـــلى الساعة ، فاكتشف أن الوقت قد زحف نحو العاشرة وان عليه أن يغادر المقهى سريعا الى المخبز الذى يعمل فيه ٠

وصفق عبد العاطى للجرسون وسأله عن الحساب ، ثم ارتفع صوته محتجـــا عندما هتف الولد :

ـ الحساب ريال ٠

وقال عبد العاطى :

ـ ريال ايه ياضـــــلالى ، انت مش حتبطل سرقة بقى !

واحتج الجرسون أيضا لاتهامه بالسرقة وأثبت امام الجميع بعملية حسابية بسيطة أن المشاريب التى طلبها عبد العـــاطى خلال الجلسة ، بلغت ريال بالـــكمال والتمام ، ومد عبد العاطى يده فى جيبه، وأخرج الريال صـــــاغرا ، ودفع به للجرسون ، ثم ألقى تحية المســـاء على الجدعان ٠٠ وانصرف ٠

وعبد العاطى يعمل فى مخبز بعيد ٠ ويقف طول الليل أمام النار ، ويتقاضى اربعين قرشا ، ينفق ريال على القهوة ، وأحيانا ثلاثين قرشا ، والباقى ينفق منه على البيت وعلى الأفيون الذى يستحلبه طول الليل وهو يقف معذبا أمام النار ٠

وانقضى الليل وجاء الصبح ٠٠ وخرج عبد العاطى من المخبز يترنح كأنه حطام وجر رجليه جرا الى المنزل وعند ماجلس يرتشف كوب الشاى نظر الى زوجتـه نظرة حاقدة وقال فى جفاء شديد :

ـ طول الليل نايمة زى الملك ، وانا عدمان العافيه ، والآخر أفضل واقف ساعة ع الباب أخبط ، يعنى ماسمعتيش الخبط ، والا يعنى انت السفيرة عزيزه لازم تنامى لحد الضهر ٠

وتكورت زوجته حول نفسها ولم ترد

اكتفت فقط بالبكاء ، وارتفع صياحه مرة أخرى :

ـ خليكى ورا العياطلما تخربى البيت ٠٠ ما أنا عارف وشك الفقر دا ٠

كانتالبنت صغيرة لم تتعد السادسة عشرة ، ضئيلة ، يستطيع عبد العاطى لو أراد أن يلتهمها كلها فى فمه ، كان وجهها شاحبا ، وجلدها أصفر وجلبابها الاحمر القطيفة يظهر ساقيها الضامرتين ٠٠ وقدميها المتسختين ، كأنما كانت تغوص فى بحر من الطين ٠

والقى عبد العاطى نظرة على قدميها الملطختين وبصق عليها بشدة وقال وهو بسعل :

ـ بقى دى رجلين عروسة ، دى ولا رجلين معزه ، على الطلاق ان ماغسلتيهم دلوقت ، ما انت قاعده فى البيت ٠

وقفزت البت واقفة كأنها أبو الفصاد وخرجت الى الحمام ، وراحت تحف بالكوز من الزير وتلقى على قدميها وهى تبكى بكاء مضغوطا مسلوخا كأنها قطة تموت ٠

واستراحت نفس عبد العاطى وهدأت ونهض فخلع ملابسه وقفز على السرير ، وتأهب لنوم طويل ، ولكنه تذكر قبل أن يشرع فى النوم أن زوجته ليس لديها نقود لتعد له طعام الغداء ٠

قفز من السرير، وضرب يده فىجيبه كانت هناك ورقة صحيحة بربع جنيه وحتة بقرشين ٠٠ وقلب عبد العاطى الورقة الصحيحة بين يديه ثم دسها فى جيبه ، وانتزع القرشين وألقى بها على المخدة بجوار رأسه ، ثم تمدد علىالسرير وراح فى نوم عميق ٠

وعندما عادت زوجته الى الحجرة ، كان شخير عبد العاطى يملأ الجو وكان يبدو بفمه المفتوح ووجهه المنتفخ وجثته الغليظة كأنه ثور وقع نائما بعد مجهود عنيف ٠

ومدت الزوجة أصابعها الى القرشين

فالتقطتهما ، كأنها نشال يحذر أن تقع عليه أعين الناس ، ثم ألقت على زوجها الغطاء ، وتعمدت أن تغطى حتى رأسه الأصلع الكبير ٠

ووقفت عند النافذة ٠٠ وألقت على زوجها نظرة خبيثة ماكرة ، قبل أن تستدير لتلقى نظرة على نافذة صغيرة عبر الحارة يقف فيها تلميذ صغير ، ثم مدت بوزها من خلال حديد الشباك وقبلت الهواء، ثم فتحت فمها فى ابتسامة بلهاء قبل أن تغلق النافذة وتقفز على السرير ، وتتمدد الى جوار عبد العاطى٠

ضحك

بقلم
أمين ريان

نحن نمارس الفكاهة منذ زمن بعيد

حتى ليمكن ان تعدنا .. (انا وعلى زعتر) من الممثلين المخضرمين ...

وكان المفروض ان نصبح نجوما الآن ... فهذا ما حدث لزملائنا ... وحتى اولئك الذين كنا ننظر اليهم ... من عل اصبحوا نجوما ...

لا يخفى عليك طبعا ان فى كل فن اناسا ينظرون الى آخرين من عل فليس الامر مجرد ضحك ... والا انقلب الى هزء وسخرية ... وفى مجالنا ... مجرد ان يصبح الشخص مضحكا فى الشوارع والمقاهى بعيدا عن خشبة المسرح أو الاستديو ... فاننا لانعتبره فنانا ... بل نعتبره مسخة ... وننظر اليه من عل

ولست ادرى هل هو الحظ ... أم ماذا ... ذلك الذى جعل بعضهم ينظر الينا من عل فى هذه الايام ... ويزعم على زعتر أنه ليس الحظ ... بل العيب الذى هو عيبنا ...

فاذا ما سألته ... ما هو هذا العيب ... راح يتخبط ... فيذكر مرة اننا وقوران بطبعنا ... حريصان على احترامنا بحكم البيئة التى نشأنا فيها ... ويذكر مرة أخرى أننا تقليديان فى فننا .. ويجعلنا كل هذا نكسب الاحترام العادى حقا بينما نفقد مواهبنا غير العادية ...

وليس هذا الا كلاما فارغا ... بل كلاما هزليا يجعلنى أسخر من زعتر فى الواقع مهما ساءه ذلك ... او خدش حياءه

وعثر ذات مرة على حكمة فى احد الكتب ... وفهم من هذه الحكمة أن الفن الذى لا يمارس الا داخل محاريب الفن .. كالدين الذى يصبح معطلا لانه لا يمارس الا داخل محاريب العباده ...

ولم افهم خطر هذه الحكمه فى حينها واسفاه ...

وفهمت الآن ... انه عندما كان يشهد فى حسرة نجاح بعض «المزبلحين» وصعود نجمهم ... كان قد اتخذ هذه

الحكمة « الفاجعة » شعارا له من روائى وكم كنت أشير له الى سخرية الناس من هؤلاء الناجحين فى واقع الحياة وهو مالا نقبله لأنفسنا لاعتبارات اقلها هو انه ابن مولانا الشيخ موسى «مدرس الخط» .. ولم يكن ابوه من اصحاب الفضيله حقا ... ولكنه رحمه الله كان كان يعد نفسه كذلك ... ويعدنى فى الوقت نفسه رفيقا ... بل امينا على ابنه الوحيد ··· فماذا كان ينتظر متى وقد كتب علينــا ان نكون من رجال الكوميديا ... هل اتركه ليسخر منه الناس فى المقاهى والافراح كالعبيط ..

ســـهرت حتى لاينحدر الى هـــذا الحضيض ... فأقمت من نفسى حارسا على مزالق الفن ...

فكنا مهما أصاب الواحد منا من رضوض بسبب « شقلبة » فى دور هنا او هناك ··· ما أن ينتهى التمثيل حتى نسرع الى وقارنا وتعقلنا ··· فما كان أحـــد « ولو من أصـــحاب الفضـــيلة الحقيقيين يشتبه فى أمرنا ···

وحين مثلنا معا هزلية ·· (حماتى الحنون)·· وأحدث زعتر بمؤخرة رأسى ذلك الورم الشهير فى حجم الدومة··· «حتى خيل الى أن رأسى قد أصبحت فى حجم (الشـــمامة) » اذ كان يلعب دور حماتى ···

أقول ··· ما أن أسدل الستار ··· وعدنا الى ثيابنا ولهجتنا العادية ··· وما ان أمسكت عصاتى ووضعت غليونى الأثرى بين شــفتى حتى عجـــز أخبث الخبثاء فى الحى عن فضح أمرنا ···

ولم يصدق أحد فى الحى أن السيدين الوقورين كان أحدهمـــا بالأمس حمـــاة متصـــابية فى شـــعر مصبوغ مســـتعار ومئزر فوق الركبتين ··· ولا أننى كنت عريس غفلة يضع جلبابه داخل سرواله وقد ركب أسفل أنفه شارب من النوع الذى يســـمى « شنب ختفة » فأى عيب هـــذا الذى يدعوه عيبنـــا ··· لســـت أدرى ···

على أننى منـــــذ التحق زعتر بتـــلك الوظيفة ··· شـــعرت بمدى ما أحدثته تلك الحكمة « المزبلحة » فى مخه ···

كنت قد مرضت فى نهـــاية الصيف الماضى ··· ولما طال بى المرض أوصيته ان يقبل أى دور يعرض عليه بدونى ·· لـــكنه أخبرنى أنه لا يستطيع ذلك ولمـــا سألته لمـــاذا ··· أخبرنى أنه لا لسبب او آخـــر أكثر من أنه لن يكون مضحكا بدونى ··· وربما لا يفهم أحد ذلك كما أفهم أنا ··· ويعلم الله أى مخلوق عكر نكد ··· كان كل منا فى غياب صاحبه ··· حتى ان أمى كانت تسرع اذا ما رأت الشر فى عينى وشعرت بالخطر يهدد البيـــت ··· كانت تسرع فتنـــاديه من البيـــت المواجه ليـــذهب الشر ويزول الخطر ···

ولمـــا شفيت من مرضى ··· دهشت هل خف النشاط الكوميدى بسبب برودة الجو ··· أم نسينا المخرجون ··· لكنى ألفيت زعتر قد اســـتقر فى وظيفتـــه الجـــديدة ··· فى عمل لم الق اليـــه فى حقيقة الامر بالا ··· اذ هو عمل كباقى الاعمال الحكومية ··· يقوم به رجال فى ثياب متناقضة ولحى طريفة فى بهو فسيح

لا يختلف عن غيره الا من حيث جوه الحزين كأنه المعزى ولما كنت أفتقد صديقى ٠٠٠ فقد كان على أن أزوره فى هذا المكان ٠٠ اذ من الذى استفسر منه كيف نسينا المخرجون ٠٠٠ ومن أتسلى معه على «القرجوازات» التى أصبحت وياللعار تحتل مراكزنا ٠٠٠ كما كان لا بد وأن أنتزع من رأسه تلك الحكمة القديمة التى يمكن أن تعمل فى رأسه عملها اذا ما غبت عنه يوما أو يومين ٠٠٠

وفى الزيارتين أو الثلاث السابقة٠٠ لاحظت أن شكه فى حظنا قد تحول الى شك فى كفاءتنا ٠٠ كما أصبح يعتقد أننا قد تقدم بنا السن لنكون معاصرين ٠٠٠

واكتفيت فى تلك الزيارات بأن حذرته من الحكمة الفاجعة التى آن الأوان أن يخجل منها ٠٠٠ اذ لم يضعها بين يديه الا الشيطان الرجيم نفسه٠٠٠ ونسبت كلامه الى التواضع الذى يمتاز به الفنانون ذوو الاصالة عادة ٠٠

أقول حسبت شكه تواضعا لايستحق أن ألقى اليه بالا ٠٠ ولكنى كنت كمن يعرف من أين يدخل الفار دون أن يقطع عليه سبيله ٠٠٠ ولهذا ما أن وجدته فى زيارتى السابقة ٠٠٠ وقد بهت حين رآنى ٠٠٠ وأخذ يبحث عن الكلام فلم يصدر عنه الا صوت مرعوش ، كأنه ليس صوته ، وراح يلتفت حوله كفار فى المصيدة ٠٠٠ أقول ما أن رأيته هكذا ويا للعار حتى عرفت أن هذا الشك هو القضاء المبرم٠٠٠ بل النهاية الدرامية التى يخبئها لنا الحظ ٠٠ شعرت أن شكه فى رسالتنا لم يعد تواضعا بحال بل

أصبح مسخرة من المساخر ٠٠٠ لايصدر الا عن « أراجوز » ٠٠٠

ويبدو انه كان قد لمح لى أو أشار بطرف خفى الى أنه لا يرتاح لزياراتى له فى جو هذه المجزنة ، التى أصبح موظفا بها ، والتى لا يعنينى قط أن أعرف أى عمل تكون ٠٠٠ ولكنى لانشغالى الجدى بالأحوال الفنية ٠٠٠ ولانشغالى سرا بتأمل اللحى التى يطلقها زملاؤه الجدد وتصنيف نماذجها ٠٠٠ لم أفطن الى تلميحه والا اشاراته المتأففة ٠٠ وما أن قرأت بالامس فى جرائد الصباح عن توزيع الادوار فى روايتنا (الحماة الحنون) استعدادا لاخراجها فى السينما ٠٠٠ حتى جن جنونى ٠ أسندوا دورينا الى أولئك الجدد ٠٠٠ المهرجين ٠٠٠ الذين لا يصلحون الا لاضحاك الناس فى الموالد ٠٠٠ فماذا أفعل٠٠٠ لمن أذهب٠؟ ألفيت قدماى تسوقانى الى زعتر ٠٠ فما أن ذكرته بدورنا الحبيب حتى ذكرنى بما قاله لى من قبل ٠٠٠ ولما سألته ماذا قال لى من قبل ٠٠٠ اذا به يفترى على كذبا ٠٠٠ فيزعم أنه نصحنى أن نحترم أنفسنا وكأننى لا أعرفه ولا أعرف أنه أعجز من أن ينصح برغوثا ٠٠٠ ولما سألته من الذى علمه هذا الكلام ٠٠٠ أخبرنى أنه منذ عشر فى هذه الوظيفة وصل الى هذه المعلومات بنفسه ٠٠٠ واشار الى رأسه ثم أردف ٠٠٠

كما أن فرق عامين أوثلاثة بين عمرينا لا يجعله طفلا وقد ابيض شعره وتخلعت أسنانه ٠٠٠ وآلمنى قوله٠٠٠ أن نحترم أنفسنا حتى لم ألق بالا الى باقى الهراء الذى تفوه به ٠٠٠ فقررت استجوابه قبل أن يحدث مالا تحمد عقباه ٠٠٠

فسألته ٠٠٠ ان كان أحد قد جرؤ على أن يتخذنا هزوا حتى يقول ٠٠٠ نحترم أنفسنا ٠٠٠ فاجابنى اللعين أنه لم يرد أن يقوم لى كلاما يسوؤنى ٠٠٠ ولكن زيارتى له هنا فى جو الوظيفة فتحت عينيه على أشياء ما كان يعرفها من قبل ويبدو أنهظن أننى يمكن أنأتركه وشأنه عند هذا الحد المضحك من علاقتنا ٠٠٠ فلم يفطن الى جدية هذه العلاقة ٠٠ التى لم يعد فى العمربقية لتغييرها أو فصمها ٠٠٠ وأننى لا يمكن أن أتركه وشأنه حتى ولو وصل بى الأمر الى القيام بالعاب « عجين الفلاحة ونوم العازب وما اليها »٠

والقيام بها هنا ٠٠٠ أمام زملائه الوقورين ٠٠٠

لذلك سألته من تحت أضراسى بلهجة الوعيد ٠٠٠

« هل أخبرتهم هنا أنك حماتى ٠٠٠ وأنه برأسى تلك الدومة أثر ضربتك »٠٠

فارتاع المسكين واهتزت أنفه الكاريكاتورية وقال ٠٠٠

« أنا ٠٠٠ أقسم لك ٠٠٠ اقسم لك ٠٠٠ »

فضيقت عليه الخناق قائلا : « فما بال ذلك الأحمق يخفى ضحكاته فى لحيته٠٠ وذلك المزبلح هناك يتهامس عنى من تحت شاربه ٠٠٠ »

ومضى زعتر فى ابعاد الشبهة عن نفسه ٠٠٠ ثم ردد كمن أصابه مس ٠٠

« لا بد أنك لم تشف تماما » ٠

ولما قمت عن مقعدى وضيقت عليه الخناق اذا به يضع سبابته التى تشبه عود الحطب فوق صلعتى وهو يردد كانه لم يعد يخشى بأسى ٠٠٠

« يا لله ٠٠٠ أحقا لا تدرى ٠٠٠ »

« تساقط شعرك حتى أصبح فى مؤخرة رأسك ومع ذلك تخط فيه هذا الفرق ٠٠٠ »

وفجاة انتابت اللعين نوبة من الضحك افقدته احترامه وسط القاعة المحزنة فراح يقهقه كانني « أراجوز » أمامه ٠٠٠ وصاحبه فى ضحكه بعض الحزانى من سكان المكان ٠٠٠ فما أن تلفت اليهم حتى تهدل شاربى وكنت قد برمت طرفيه ورفعتهما بعد جهد جهيد ٠٠٠ وتملكنى غضب درامى فاذا بى أخلع القرنفلة البيضاء من عروة جاكتتى واقذف بها الى الارض ٠٠٠ وكبست قلنسوتى فوق راسى ٠٠٠ لكن ما أن قبضت على عصاتى حتى تقهقر زعتر واحتمى ببعض زملائه ٠٠٠ وضج المكان بالسخرية ٠٠٠ فأوحى الى جبنه والضحك بالذى حدث بعد ذلك ٠٠ ولكنى لم أستطع أن أناله بعصاتى واأسفاه ٠٠ فلما ألفيت نفسى لم أبلغ فى تاديبه مأربا قررت أن أصارحه برأيى فيه ٠٠ فصحت أنه ليس كوميديا ٠٠٠ بل ولم يكن فى يوم من الايام انما هو مسخة كالقرد ميمون ٠٠٠ عندئذ صاحب الضحك من حولى بعض التصفيق ٠٠٠ ودهشت كيف تزايد عدد الحضور من حولى هكذا فكررت له : (مسخة) عدة مرات ٠٠٠ ولست أدرى هل نسيت نفسى بعد ذلك أم أعمانى الغضب ٠٠٠ اذ لم أستطع ضربه فاذا بى ألقى بعصاتى ٠٠٠ ثم ٠٠٠ ثم ماذا تظن أنى فعلت ؟؟

ماذا تظن !! تشقلبت ٠٠٠

نعم ٠٠٠ تشقلبت له على الارض ٠٠٠ هكذا دون مسرح ٠٠٠ أو تمثيل ثم أطلقت فى وجهه ضحكة ٠٠٠ أية ضحكة ٠٠٠ يالها من ضحكة ٠٠٠

بياع الصيص

بقلم وصفي آل وصفي

قابع فى ركنه ، جلبابه متسخ بال ..

صامت لا ينادى على بلحاته « الصيص » ، مستسلم لا يدفع عنها الذباب ..

يمر به أهل المدينة كالغرباء ، لا تومض عينان بمعرفة ولا تتحرك يد بتحية .. بين الحين تروغ عينان بنظرة رثاء !

لكننى اعرف قصته ..

كانت له تجارة رائجة ، وأصدقاء يجتمعون أمام محله صيفا وداخله شتاء ، وامراة ..

أعرف قصته من بدايتها ، شبه اسطورة أفضت الى مأساة . رواها احدهم لابن عمى عندما وصل الى البلدة شيخا لجامعها ، فحكاها لى ونحن جالسان أمام المقهى الوحيد بالبلدة نشرب الشاى الأسود وندخن ونتكلم فى السياسة . كنت قد تخلفت فى البلدة ساعات أزور ابن عمى ، وانا فى طريقى الى قريتنا هربا من جو القاهرة المتوتر اثر حريق يناير عام الثورة . وجلسنا امام المقهى المقابل للمحطة نقضى الساعة الباقية على موعد القطار ، ولمحت بياع « الصيص » فتعلقت به عيناى حتى مصمص ابن عمى شفتيه وشرع يروى لى قصته مؤكدا انه يحكيها كما سمعها تماما ..

وانا احكيها لكم بكلمات ابن عمى ، لا اضيف غير القليل الضرورى من لساتى ..

اسمه عبد الله ، وامراته كان اسمها محاسن ..

ذات يوم دخلت محاسن تشترى ارخص ما يبيع عبد الله فأخذت معها قلبه ، وتركته يجرى وراءها يتقصى !

وسرعان ما احاط بكل شيء عنها ، ولم يكن كثيرا ..

وحيدة شيخ كفيف يصنع السلال فتحملها يوم الاثنين الى السوق ، تبيعها وتشترى ببعض ثمنها زادا يكاد الا يشبعهما فيكاد الجوع ان يرميهما فى الاثم ، لولا أن الشيخ من اسرة عاشت أجيالها شريفة وهى تقيم بخير دار فى البلدة شريفة وهى تساكن باعة الفجل وعمال المخابز وصانعى السلال والطبالى ، لولا أن الفتاة وعت حديث امها الراحلة ، عن الطهر والعفة ،

ولم يتردد عبد الله ، لم يفزعه أن يستقر قلبه حيث لا مال ولا جاه . لم يصغ لاعتراضات اغلب أصدقائه ، وبادر يخطب محاسن ويتزوجها ..

كانت له تجارة ، وكان له أصدقاء ، وكانت له امراة ..

كان ذلك عندما بلغ غول الغلاء ، سقط المجزرة العالمية الأخيرة ، وتربع على عرش الجشع يقسم الخلق فريقين : فريقا ياكله ، وفريقا يشاركه لعق دم الحياة أو ياكله !

ومضت الأيام تلد « الفرص » لكل نهاز .. وعبد الله قانع لايفتتن ولا يفتنم ، لا يغالى فى نسبة أرباحه ، ولا يستغل نفوذ أصدقائه . لا يسجل باسم زوجته عمارة ، ولا يشترى لها عربة ، يتجاهل حتمية القول فى بساطة ، وينعم بيسر معقول وسعادة وادعة .. لا ينغصها حتى حرمانه من الولد .

وتحققت آية الانجيل « من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه .. » ، بتفسير حرفى بشع . واشتدت مخالب الفول على رقاب باعة الفجل وعمال المخابز وصانعى السلال والطبالى ، وقد اختار والد محاسن ان يقضى أيامه الباقية حيث عاش .. بينهم .

واقبل الشيخ على فتاته يوما يحدثها بما يقاسون ، يصف لها جزع الدموع وخواء البطون ، ويهمس فى اذنها ان نساء كثيرات أوشكت أن تخرج الى الطرقات وان يدخلن البيوت من غير ابوابها !

ولم يجد لدى محاسن سوى عبراتها تبلل بها يديه ، فقام يسعى الى صهره يحدثه ويصف له ويهمس فى اذنه .

وكان عبد الله يعلم ان دموع «الغلابى» قد جفت من طول بكاء وان بطونهم ضمرت من طول خواء ، وان ثمة نساء خرجت فعلا الى الطرقات ورجالا دخلوا فعلا البيوت من غير ابوابها .. الا انه كان ايضا تاجرا بين التجار ، يدرك أن فكرة التعاون لخفض الاسعار فكرة ضائعة ، لايقبلها العمالقة بحال ولا يطيقها المستورون والاقزام !

وشرع يشرح للشيخ حقيقة الموقف ، يفهمه انه لايستطيع شيئا .. وان العين بصيرة واليد قصيرة ، والأمر لله من قبل ومن بعد . يحاول ان يسترضيه ، يستدرجه للاقامة مع ابنته ترعاه وتخدمه . الا أن الشيخ كان قد جاءه بعناد الشيخوخة ، واصرارها يأبى ان يستمع او يتراجع وانتهى الأمر بخروجهما الى معارف من التجار .. ينفعل الشيخ ويثور لاملاق الجماهير ، ثم ينتفض ويدع عبد الله يعرض ويناقش مصلحة التجار فى الا تثور الجماهير !

وتأثر البعض لانفعال الشيخ ، وسلم البعض بمنطق عبد الله ، ومن بعد انفعال .. أو تسليم .. كانت الوجوه تكتسى بابتسامات مجاملة تودع وتعتذر !

وافترق الرجلان آخر اليوم ، الشيخ مرتاح الضمير سعيد بما سعى ، وعبد الله متوتر يندلع فى وجدانه وفكره شرار خاطف لخواطر هائجة مجنونة ..

وطال الليل ، ومع الفجر بلغ اضطراب عبد الله ذروته ..

ودوى فى اذنه نغم عميق . انفسح على اثره ستار وهمى عن مسرح هائل ..

وجاء هاتف خفى ، بصوت مرتجف: يرفضون ؟ يرفضون خفض الأسعار ؟ حسنا .. لنرغمهم !

وانفصل عنه خياله ، فرأى شبحه يضخم .. يتسامق .. يعتلى المسرح الشاغر .. يذرعه فى حماس وانفعال بطل !

***

اشرقت شمس اليوم التالى فقامت البلدة على مفاجأة مذهلة ، لا يسعها أن تصدق ما تسمع : كيف ؟ متى ؟ لماذا ؟ لكنها كانت الحقيقة ، كان عبدالله يبيع دون ربح ، اى ربح .. البضائع الحرة والمسعرة ايضا !

وجنت البلدة ، وتجمع الناس امام محله يتعاركون . حتى الأغنياء ، بعثوا خدمهم يحصلون على نصيب من « بركة » عبد الله !

وتوسط بعض افراد « القوة » ، التى وكل اليها أمر المحافظة على النظام، بين « الغلابى » وما يشترون : النصف بالنصف !

وانحشر فى الحشد لصوص ، وشواذ ..

وتضارب اثنان من الموظفين ، واحد من كبار صغارهم وآخر من صغار كبارهم ، عندما قارن الاول بين سوء توزيع الدخل وسوء توزيع العمل !

واصدرت المجلة المحلية عددا خاصا ، فى صفحة واحدة قمئة ، زينته بصورة « الانسان .. البطل » ، لم ترد به كلمة واحدة عن غيره من التجار او المتاجرين !

***

وذهب يوم ، وطلع صباح جديد .

ووصلت جرائد القاهرة تشير فى سطور قليلة ، بقاع صفحاتها ، الى « التاجر المجنون » ! واتصل «الباشا» المدير بصاحب العزة « البك » المأمور ، يزجره ويسأله عن الكلام « الفارغ » الذى ترامى الى مسامعه ..

وانطلقت عصابات هزيلة من الحفاة ، تزعق فى هوس : « ينصر دينه .. عبد الله .. ينصر دينه عبد الله .. » !

واجتمع أثرياء الحرب من التجار ، فى الغرفة التجارية ، يدخنون اللفائف ويتسامرون ويحتسون القهوة ويتراهنون متى ينهار « المخبول » . واقترح احدهم أن يروجوا اشاعة بأن عبد الله قد اصابه الجنون ، فضحك آخر وعرض فكرة اسرع اثرا : ان عبد الله اشتراكى اهوس واخيرا استقر رأيهم على فرية أشد نكاية : ان عبد الله قد ارتد عن دينه ودخل عصابة الشيوعيين !

واختفى المستورون من التجار ، والأقزام ، بعضهم ارقده المرض فجأة ، فسافر يعودهم .. وبعضهم لحق بالعمالقة يتودد اليهم وينافقهم ويسألهم مد آجال الديون !

وذهب يوم ثان ، وبدأ يوم ثالث مشحون بالصمت ..

نهبت البلد محل عبد الله ، وخلفت له الارفف الفارغة والجرذان . ورفض تجار الجملة ان يوردوا له نسيئة ،

وأخذوا ما بيده من مال فاقتضوه سدادا لديونهم التى لم يحن موعدها . وخشى اصدقاؤه ان يورطهم ، او ان يطلب منهم معونة ، فتجنبوا الطريق الى محله فى غدوهم ورواحهم .

وانهارت اعصاب محاسن تحت وطء الكارثة ، فانفجرت تبكى وتصرخ فى وجه ابيها وهو يحدثها عن الصبر .. والايمان : « انت السبب .. انت السبب .. الله يسامحك » !

***

وكان يوم رابع ، فيه تمت المأساة ..

نشبت مشادة حامية أول الصباح بين عبد الله وعميد التجار جاء متجره يتشفى ، يهينه ويسبه .. ويتطاول على شرفه : «عامل روحك بطل .. اهبل فكرك واحد وحده . اهبل .. حتى بطل .. يهز منا شعرة ؟ أنا عزيتى وحدها تقف قدام عشرة منك عشر سنين ! ان كنت بطل صحيح ، اعمل بطل على طول يابن ام عبد الله !وزعت البضاعة على المسعورين ؟ فاضل محاسن ، وزعها علينا بدل عطلتها فى البيت .. على الأقل المكسب منا فيها مضمون ! » .

وافلت الرجل فى حماية اتباعه فراح عبد الله يخبط راسه بكفه ويبكى ..

وفى الضحى خطف سكين « البسطرمة » فجأة واندفع يجرى الى قلب البلدة ، يزمجر ويدمدم ويصرخ بعبارات متقطعة : « محاسن ! ! المجرم والله العظيم .. بالله العظيم .. أشرب من دمه ! » .

وكانت محاسن فى طريقها الى المحل، استفزها قلق قاهر فاقبلت تهرول .. تريد أن تطل من بعيد وتعود. وشاهدته منتفش الشعر ، يجرى والسكين فى يده .. فحدست غريزتها كارثة جديدة توشك ان تحل برجلها وانطلقت تهتف وتستغيث :. « عبدالله .. مصيبتى ! عبد الله .. مصيبتى ! والنبى يا عبد الله .. الله يهديك يا عبد الله .. يارب .. يا ناس.. « ردوه .. » .

ولم يسمع عبد الله من هتافها واستغاثتها شيئا ، كانت حواسه كلها مركزه فى يده وفى السكين ..

وقصرت المسافة بينهما ..

وبغتة انحرفت سيارة نقل ضخمة من احدى الطرق الجانبية ، فصرخت محاسن تحذر زوجها ، واستطاع السائق ان يتفاداه بحركة سريعة ، ثم تراخى انتباهه فلم يسعفه بطاقة جديدة ليتفاداها هى ..

وكانت صرخة مروعة ، وصدمة .. وسكون ..

***

وسكت ابن عمى ، فاسندت راسى بين يدى اتساءل كم أضاف الى القصة وكم أسبغ عليها من عنده .. واتخيل ما اغفل من تفاصيل .

وجذبت عينى كلمتان كبيرتان حمراوان فى صدر جريدة اليوم السابق التى لف لى فيها زوجة ابن عمى خبزا وجبنا للقطار : « الملك يقبل » ... فادرت اللفة بحركة تلقائية اريد تتمة العنوان ، ولكن باقى الصفحة كان مطويا !

الضباب

متولى

رواية مسلسلة

بقلم : ثروت اباظة

- ١ -

بكرت الست بمبه زوجة الحاج والى عبد الهادى فلبست معطفها ووضعت على رأسها خمارا مما تضعه زوجات الاعيان فى الريف وأسقطته على وجهها وخرجت الى الطريق العام تسير فى تؤدة وفى صحة مكتملة فما كانت الست بمبه قد تعدت الاربعين من عمرها وما كان بطء المشية الا التزاما بما تمليه عليها مكانتها فى القرية ٠

ولم يطل المسير بالست بمبه فقد توقفت عند باب اطال وجهه من لقاء الزمن فهو كالح باهت لا استواء فى ألواحه ولا نعومة ، فكأنما ألقت عليه الأيام غضونا كهذه التى تلقيها على وجوه البشر ٠ وطرقت بمبه الباب فانشق عن امرأة فى خريف العمر فى وجهها قناعة وطيبة وفيه أيضا بعض غضون من العمر تزكيها خصلات من الشعر الابيض جمحت فأبت ان تبقى حبيسة المنديل دهشت سيدة أم عسل ان تقصد اليها الست بمبه فى زيارة صباحية بغير داع اليها ٠٠٠ ولكن دهشتها لم تمنعها ان ترحب بالزائرة اعمق ترحيب وأصدقه٠

لم تكن الحاجة بمبه لتزور بيت سيدة أم عسل فى الصباح ولا حتى فى المساء اذا لم يكن هناك سبب ملح للزيارة كاداء واجب فى عزاء أو تهنئة لزواج ، أما ان تسقط عليها كما يفعل الاصدقاء رفعوا بينهم الكلفة والمواعيد فهذا مالا يتفق ومكانة الست بمبه او الحاجة بمبه كما يدعوها الجميع ٠ فهى زوجة الحاج والى عبد الهادى من اعيان قرية الحمدية يملك فى زمام القرية ثلاثين فدانا وهو الى هذا رجل ذو رأى صائب يلجأ اليه القوم فى الملمات فهو على صلات وطيدة بذوى الشأن فى المديرية ـ مديرية الشرقية ـ بل ان صلاته بلغت من اتساعها واهميتها انها امتدت الى القاهرة نفسها ٠ وليس ادل على وجاهته ، ومكانته المرموقة من ان زين العابدين بك الدرملى وجيه القرية بل والمنطقة لايزور فى القرية الا قلة قليلة من بينها ـ ان لم يكن فى مقدمتها ـ الحاج والى عبد الهادى ٠ فزيارة الحاجة بمبة اذن لسيدة ام عسل زوج محمدين ابو على زيارة من شأنها ان تثير الدهشة والعجب والحيرة والزيارة فى الصباح تزيد من هذه الدهشة والعجب والحيرة

فما تعودت النساء فى القرية أن يتزاورن فى الصباح ، فكيف بهذه الزيارة التى تقوم بها الحاجة بمبه الى هـــذا البيت المتواضع . فما يزيد محمدين ابو على على رجل طيب يملك فدانين اثنين وخمسة اولاد بين بنات ونسوان وبنين وهـــو ، بعد ، يزرع الفدانين بيديه فالصلة اذن بين الحاجة بمبه وسيدة صلة تقوم عـلى العطف اكثر مما تقوم على الصداقة ، وزيارة الحاجة بمبه الى بيت محمدين فى أى وقت انما تعتبر تنازلا يتلقـاه أهل هذا البيت الطيب بكل امتنان وزهـــو وزيارة سيدة أم عسل الى بيت الحاجة امر تستعد له سيدة استعدادا كبيرا ، ثم هى لاتقوم بهـذه الزيارة وحدها ، انما تحرص فى غالب الامر على ان تصحب معها ثلة من نساء القرية . وهـــذه الزيارات تتكرر مرات كثيرة فى الاسبوع ، فى حين لاتتم زيارة الحاجة بمبه الى سيدة الا مرة فى العام على الاكثر ـ ولابد ان يكون هنـــاك داع لتتم الزيارة . اذن فقدوم الست بمبه لابد أن يكون مصحوبا بالخطير الجليل من الامر قالت سيدة :

ـ اهلا ستى الحاجة .. نورت ، اهلا وسهلا .. تفضلى ودلفت بمبه الى البيت ودخلت الى القاعة التى تعرفها وقالت :

ـ كيف انت ياسيدة ؟

واجابت سيدة :

ـ الله يبقيك ويطيل عمرك .. دقيقة واحدة احضر الحصير .

ـ لا ، سأجلس على المصطبة .

ـ اهذا يصح ياستى الحاجة .. والله ابدا .. حالا .

وراحت ترفع صوتهـــا وهى تحضر الحصير من خارج الغرفة لتشعر الست بمبه انها معها لم تتركها وما لبثت ان عادت سيدة وفرشت الحصير على المصطبة المبنية من الطوب الاخضر وقالت :

ـ قهوة ... عندنا بن يمنى يستاهل حنكك .

ـ اقعدى يا سيدة .

ـ القهوة قبل ان اقعد .

ـ اقعدى يا سيده أنا أريدك فى شىء مهم .

ـ يا ستى الحاجة من حقك علينا ان تامرى .. لا ينسى المعـــروف الا ابن الحرام ... لماذا لم ترسلى الى وأنا أجىء على عينى .

ـ لا ... اردت ان اجىء انا اليك .

ـ اهلا وسهلا .. شرفت بيتنا .. والنبى اتركينى دقيقة واحـــدة احضر القهوة .

ـ اسمعى يا سيده .. انت تعرفين منذ متى وانا متزوجة من الحاج .

ـ نعم منذ اكثر من عشرين سنة .

ـ اظن ياسيده ، ليس فى العـــالم واحدة فعلت ما أفعله انا الآن .

ـ خيرا ياستى الحاجة .

وجذبت الحاجة بمبه نفسا عنيفا من اعماق احزانها ثم اطرقت لحظات وصمتت واحترمت سيدة حزن الحاجة وصمـــتها فصمتت هى حتى عادت بمبه الى الحديث

ـ انت تعرفين كم يشتاق الحاج الى الاولاد .

وأطرقت سيده وتنهـــدت ومصت شفتيها وقالت :

ـ نعم ياستى الحاجة ، ربنا يكون فى عونك .

ـ الحاج الآن فى الاربعين من عمره وهو ...

وقاطعتها سيدة .

ـ هل جربت التفاحة .. سهلة .. اقول لك ..

وقاطعتها الحاجة بمبه .

ـ اكثر من عشرين سنة اجرب يا سيده .. اسمعى الكلام لآخره ولا تقاطعينى .

ـ امرك يا ستى الحاجة .

ـ الحاج لم يعد يستطيع صبرا ، وهو محق ، فان سنه لا تسمح له بأن ينتظر .. بلغ من شغفه بانجاب الاطفال انه كان يريدنى ان اذهب الى مصر اليوم واعرض نفسى على طبيب .

ودقت سيده صدرها وكأنما طعن شرف الحاجة بمبه وقالت سيده :

ـ ماذا ياستى الحاجة .. طبيب رجل .. يكشف عليك انت .. انت ياطاهرة يا نظيفة .. قطع الخلف وايامه .. امن اجل العيال يكشف عليك رجل ..رجل يا ستى الحاجة .. رجل .

وقالت بمبه فى أسى :

ـ لم أقبل يا سيده .. لم اقبل.. ولكنى اعرف زوجى فهو رجل غيور .

ـ عارفه ياستى الحاجة .

ـ فقبوله ان يكشف على رجل دليل على مقدار لهفته على الخلف .

ـ لك حق يا ستى الحاجة .

ـ رفضت .. وقلت فى نفسى ...

وصمتت الحاجة وأطلقت تنهيدةأخرى من صدرها فما خففت التنهيدة شيئا وكانت سيدة تتحرق شوقا لتعرف ما بنفس الحاجة .. ولم تكمل الحاجة حديثها بل انها لوت طريقه فى عنف يدعو الى الدهشة فهى تسأل سيده :

ـ قولى لى يا سيده .. ايجرى احد على ابنتك صالحه .

ـ نعم ياستى الحاجة،ولكن‌ما المناسبة؟

ـ هل اعطى محمدين كلمة لاحد

ـ لا .

ـ انا اخطبها للحاج والى

ـ ماذا يا ستى الحاجة ... ماذا قلت ؟

ـ ما سمعت .. انا اخطب ابنتك للحاج والى زوجى .

كان الموقف اكبر من الدهشة من سيدة واكبر من الالم من بمبه فلف المرأتين صمت امتزج فيه العجب الآخذ بالالم المرير والتقت فيه دموع بدموع، دموع من اعماق الانسانية الخالصة ، وفهمت كل من المرأتين سردموع الاخرى .. وتمالكت الحاجة بمبه امر نفسها سريعا وقالت :

ـ قلت له لن اذهب ثم ادركت انه سيتزوج فقلت أزوجه انا من امرأة اعرفها خيرا من انيحضرلى ضرة لااعرفها وتحاول أن تجعل من نفسها سيدة على، فهى ـ فى الغالب ـ ستكون أم العيال .. انا اعرف صالحه .. انها بنت حلال .

وقاطعتها سيده :

ـ خدامتك ياستى الحاجة .

ـ وهى أيضا قد تزوجت من قبل وخلفت وسنها معقول .. هيه .. ماذا قلت ؟

ـ امرك يا ستى الحاجه .

ـ ستكون كابنتى تماما يا سيده .

ـ عارفه يا ستى الحاجة .. عارفة . لا حول ولا قوة الا بالله .. لاحول ولاقوة الا بالله .

كان الحاج والى جالسا فى دوار زين العابدين بك ينتظر نزوله من الطابق الاعلى . ولم يكن احد يشارك الحاج والى جلسته فى الدوار فهو وحيد . ولم تكن السعادة بادية على محياه فهو متجهم ، شارد الذهن مفكر تفكيرا لاتلوح عليه بوادر هناء ، أو رضى . فوجهه الاسمر مقطب وشاربه الذى تعود ان يعتنى به كل يوم عند الحلاق مهمل أشعث غاضب كصاحبه ، حتى العمامة التى لايلبسها الحاج والى الا وهى ملفوفة مسبوكة مهندمة ألقى عليها الحاج والى ظلا من تجهمه فهى منداحة على رأسه تتهدل اطرافها على وجهه . وفى عينيه السوداوين ظل من أسف وأسى وفى جبهته العريضة غضون من الالم لامن الزمن ، وفى فمه كلمة حبيسة لا يدريها ولا يعرف ما هى ولكنه يعرف اسبابها ودوافعها .. كيف يقول ما بنفسه ، كيف يعبر عنه .. لم يكن يدرى .. وانفه الكبير بعض الشىء يجتذب انفاسا عميقة ولكنها لاتريحه. فما يلبث من حين لآخر ان يفتح فمه الصغير فيلتقط من الهواء شهيقا عميقا يزفره فى نفخة حانقة ضيقة ملول فما يجدى الشهيق ولا الزفير ولا الانفاس اللاهبة التى يجتذبها له انفه .

ويأتى متولى الخادم الى الحاج والى فما يرفع عينيه الى متولى . ولم يكن متولى يرضى هذا منه . فقد تعود من الحاج والى مداعبة ، أو كلمة تحية ان كان جالسا الى البك ، اما ان يلاقيه بهذا الصمت بل بهذا الاهمال فأمر لايمكنه السكوت عليه فان الحاج والى لايفعل هذا الا ان كان فى حال من الضيق شديد ، وقبل ان ينطق متولى يكون الحاج والى قد شهق من الهواء شهقة طويلة زفرها وقد ضم شفتيه بعض الشىء فخرج الهواء كصفير فاشل حانق وقال متولى :

– اعوذ بالله لماذا هذا ياحاج والى ؟.. هون عليك يا شيخ ، تبيت نارا تصبح رمادا .. ما الذى يضايقك ؟ .

وكانما لم يكن الحاج والى يتوقع ان يتبين متولى حقيقة مشاعره فهو يقول فى اسى :



— الهم كثير والله يا متولى .. النهاية الحمد لله على كل شيء .

— ماذا ، ماذا بك ، عريس جديد ، والمال — والحمد لله — موفور وشـباب وصحة ، وكل ما تشتهيه تجده .

— اسكت يا متولى .. اسكت لايعرف النفوس الا خالقها .. اسكت لاأراك الله ما أنا فيه .

— يا راجل توكل عـلى الله .. هل احضر الشربات ؟ .

— بل القهوة يا متولى ولتكن بغـير سكر .

— يا رجل اعوذ بالله ، اهو حسـد ما أصابك .. ماذا بك قل لى انك منذ فترة طويلة مهموم ، وقد حسبت انك حين تتزوج سيزول عنك الهم فاذا انت تصبح تعيسا ، اين الضحكة الخالية من التفكير ، اين النكتة الرائعة من كل كدر اين انت ياحاج والى ؟ .

— لا عليك يا متولى .. لاعليـك ، هكذا امر الله .

— يا رجل انت متزوج من قريب ، أهذه حال رجل تزوج من قريب ؟

— امر الله يامتولى .

— لا حول ولا قوة الا بالله ، ولكنى رغم هذا سأحضر لك الشربات لن اتأخر ، شربات ، شربات مهما تكن مهموما ، شربات .

وخرج متولى وخلت الغـرفة بالحاج والى وثقل عليه الصمت وثقل عليـه التفكير الصاخب وود لو عاد متولى ولو ليشقشق بهذا الحديث الذى تعود أن يشقشق به ، ولكن متولى آثر ان يتركه ولو كان يعلم ان حديثه الفارغ اهم عنده من الشربات الذى يصر على احضـاره ما تركه ، وتأخر متولى ، وسمع الحاج والى صوتا واهنا ينبعث غير بعيد من مجلسه ، ونظر فرأى مصـيدة فيران فاغرة فاها فى شراهة يقف حيالها فار يلوب حواليها مصطنعا الذكاء والحذر ، مقدما حينا على اللقمة التى تبدو للنظرة المجردة سائغة سهلة المنال محجما حينا آخر وكأنما يريد أن يعرف ماذا ستفعل اللقمة او المصيدة ان هو اعرض عنهـا ولم يقدم وانشغل الحاج والى بالفـار واللقمة والمصيدة ، وأمعن الفـار من مداورته ثم هاجم اللقمة فجأة وكأنما أراد ان ينتهز من المصيدة غفلة ويختطف اللقمة ، ولكن المصيدة لم تكن تغفل فما هى الا أن اصبح الفار جميعه داخلها حتى اطبقت عليه فمها الشره ، ونظر الفار الى باب المصيدة نظرة حسيرة ثم عاد الى اللقمة فأكل جزءا منها ثم ما لبث ان عافها ونادى الحاج والى :

— يا متولى ، يا متولى .

ولم يجب متولى النداء وانما دخـل الغرفة زين العابدين بك رجل فى أواسط العمر ابيض الوجه سمح الملامح يبـدو عليه حرص على أن يأخذ من الحياة احلى جوانبها فهو متهيأ دائما لهـذا الجانب الحلو من الحياة بابتسامة مشرقة لاتفارق وجهه ، بجسم ملىء منعم لايحب ان يمنع نفسه من لذائذ الحياة ، وقد كان زين العابدين بك فى مثـل سن الحاج والى وان كان مبسوط الجسم عريضه ، وكان الشيب قد بدأ يرود فوديه فى تـؤدة وهدوء . وقد كان شأنه فى انجـاب الذرية شأن الحاج والى فهو ايضـا لم ينجب اطفالا وقد حاولت زوجتـه قدر طاقتها ان تنجب له بنين أوبنات ولكنها

لم تفلح،ويئس زين العابدين ولم تيأس زوجته · وقد رأىزين العابدين الايجعل يأسه يعوق أملها ، فهو يترك لها مطلق الحرية ان تفعل ماتشاء من عرض على اطباء الى استماع الى وصفات بلدية الى غير ذلك لايقف دون مطلب من مطالبها وان كان هو قد شغل نفسه بغير ذلك، فهو مسرف غاية السرف فى امتاع نفسه لا يعوقه عما يريد شىء ، على استعداد وانما ان يقترض ويبيع ليفعل ما تصبو اليه نفسه ، فهـــو كثير الولائم ، كثير الذهاب الى القاهرة يحب لياليها جميعا والحمراء منها خاصة ولولا ان الفــلاحين قد ثاروا على الانجليز فقطعوا الخطوط الحديدية التى تصل القرية بالقـــاهرة ما استقر زين العابدين فى القرية · الا ان الثورة اندلعت لايقف فى سبيلها شىء وانقطعت الاسباب بالقاهرة وكان زين العـــابدين بالقرية فأرسل فلاحيـــه يشاركون فى قطع الخطوط وجعل امره الى الله واقام بالبلدة وحـــين عسكر الانجليز على مشـــارف القرية ابى ان يتصل بهم رغم الجهد الجهيد الذى بذله كبيرهم فى الاتصال به ، ولما يكن صادرا فى ذلك الا عنمشاعره الصادقة · وراح الانجليز يحاولون اصـــلاح الخطـــوط المقطوعة فلا يجدون من الفـــلاحين الا ازدراء وقد حاولـــوا أن يغـــروا زين العابدين بأنهم سيسعون له ان ينـــال رتبة الباشوية فلم يكنهذا الاغراء كافيا ورفض ان يعاونهم وان كان فى دخيلة نفسه يتحرق شوقا ان يتم اصـــلاح الخطوط الحديدية ليجدسبيله الى القاهرة ولم تكن زوجته تعلم عن حيـــاته فى القاهرة شيئا بل هى لاتعلم انه يبيع من أرضه شيئا ، كل ما تعرفه منشأنه ان تطلب منه مالا لتذهب الى الطبيب أو لتشترى ما يلزم لوصفاتها فلا يبخـــل عليها ·

وقف الحاج والى يســـلم على زين العابدين فعاجله هذا قائلا :

ـ مبروك يارجل ·

وقال الحاج والى حسيرا :

ـ لاتهنئنى يازين العابدين بك

ـ لماذا ؟

ـ لو تعرف ما انا فيه ما هنأتنى ·

ـ خيرا يارجل ماذا بك ؟

ـ لا والله ليس خيرا ابدا ·

ـ قل ماذا حدث ·

ـ لاشىء ، تزوجت ·

ـ وهل هذا يحزنك ·

ويدخل متولى حاملا الشربات ويقول زين العابدين :

ـ احسنت صنعا يا متولى ·

وقال متولى :

ـ تفضل ياحاج ·· مبروك ·

واخذ الحاج الـــكوب ووضـــعه على المنضدة وقال زين العابدين :

ـ ماذا بك ؟

وقال متولى :

ـ يا سيدى انه منذ جاء وهو بهـذا النكد ·

وقال زين العابدين :

ـ عجيبة

وخرج متولى وهو يقول :

ـ عجيبه ·

والتفت زين العابدين الى الحاج والى

ـ مالك يا حاج والى ؟

ـ ألم تعـــرف كيف تزوجت يازين العابدين بك ؟

ـ نعم عرفت ٠

ـ عرفت ان زوجتى هى التى خطبت لى ٠

ـ نعم ٠٠ ولا اكتمك لقد اندهشت لهذا وكنت اريد ان اسالك منذ سمعت ولكنك لم تأت ٠

ـ خجلت ان ترى وجهى ٠

ـ ولماذا تخجل ؟

ـ ما الذى يجعل امرأتى تخطب لى ٠٠ لابد انها رات حرصى الشديد على الانجاب ٠

ـ نعم ٠٠ لا شىء فى ذلك ٠

ـ اليس هذا مخجلا ؟ ٠

ـ لماذا ؟

ـ كيف سولت لى نفسى ان اهين كرامة زوجتى الى هذا الحد ٠٠ ياسعادة البك انت سيد العارفين ٠٠ الا تتصور مقدار الالم الذى عانته امرأتى وهى تخطب لى امرأة غيرها ، اقسم بالله يا سعادة البك اننى منذ جاءت زوجتى وانا استحى ان اكلمها امام الحاجة ٠

وصمت زين العابدين واحس الحاج والى ببعض الراحة وهو يلقى هذا الحديث لاول مرة الى مسامع انسان واسترسل ٠

ـ اكل هذا من اجل الاولاد ؟ ٠

ـ وهل الاولاد شىء بسيط يا حاج والى ٠

ـ والله يا سعادة البك اصبحت لا آدرى ٠

ـ اسمع ياحاج والى لقد سمعت عن زوجتك الحاجة انها عاقلة وكريمة ولكنها بما فعلته جعلت نفسها مثلا اعلى فاكرمها ٠

ـ اكرمها ٠٠ اكرمها ياسعادة البك، اننى لا ادرى كيف اعاملها ٠٠ يتهيأ لى احيانا انها ليست من البشر ٠٠ ولا ادرى كيف اعامل الملائكة ، لقد جعلتنى لها عبدا ٠٠ انا عارف يا بك ٠٠ انا عارف بشعور المرأة وبغيرتها ٠٠ عارف ٠٠ كيف استطيع ان اوفيها حقها ٠

ـ انت محق ياحاج والى ٠٠ الحاجة بمبه تستحق ما تقوله عنها ٠

ـ ولكن ٠٠ ولكن انا ٠٠ انا خجلان يا سعادة البك ٠

ـ أخطبت لك دون ان تخبرك ؟ ٠

ـ اخبرتنى بعد ان خطبت ٠

ـ وماذا فعلت ؟

ـ فعلت ما لازلت اخجل منه ٠

ـ ماذا ؟

ـ ثرت ولكننى فى دخيلة نفسى كنت مسرورا ٠

ـ كيف ؟!

ـ غضبت وقلت لها أتزوج ، وهذا كلام فارغ ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ ولكن لم افلح فى اخفاء حقيقة نفسى ٠٠ انها زوجة عشرين سنة وذكيه ، ادركت اننى مسرور فاذا هى تقول فى كل هدوء ، سأشترى لعروستك بعض ملابس وتتزوجها الاسبوع القادم ان شاء الله وكأنما القت على رأسى ماء باردا فاذا انا صامت وكأنى مستسلم ثم قمت وخرجت ، فاذا جميع من فى البلدة يعرفون امر الخطبة فهم يهنئوننى وارى فى عيونهم ابتسامة تجمع بين التعجب والحسد ، يخيل لى انهم كلهم يتمنون ان تكون زوجاتهم مثل زوجتى مع انهم جميعا آباء ، لهم من البنين ماتضيق به البلدة لم اجد من اشكو له همى الا انت ولكنى كنت خجلا منك فغبت عنك ثم

لم اجد بدا من ان اتغلب على خجلى والا انفجرت بالالم الذى اعانيه فجئت .. وارتحت ان قلت لك ما قلت يازين العابدين بك ابقاك الله لنا .

ـ يا رجل المسألة لا تستأهل كل هذا

ـ بل تستأهل يا سعادة البك ولكن ماذا أفعل .. لم تعد هناك فائدة .. ايستحق الاطفال كل هذا .. ايستحق الاطفال ان تطعن امرأة صالحة كزوجتى كرامتها كامرأة ، وتتجاهل انوثتها الى درجة ان تخطب لزوجها امرأة لتنجب له اطفالا ماذا أصنع بهم ؟ .. لماذا كنت شديد الرغبة فى الانجاب الى درجة أن جعلتها تقتل انوثتها بيديها وكانها تنتحر ماذا ساصنع بهم ، وماذا سيجرى فى الدنيا اذا لم انجب أنا اطفالا هل ستتوقف الدنيا عن الدوران ماذا اصنع بهم، أرى من عندهم اطفالا يضيقون بهم واراهم اذا مرض احدهم يكاد الاب يموت من قلق وخوف وشفقة ، ثم اذا صح الطفل المريض وجدت الاب ضيقا غاية الضيق بما يحمل من مسئولية لا تؤاخذنى يا سعادة البك فانت لم تنجب .. اى شعور عجيب يشعر به الاب فيجعلنى حريصا كل هذا الحرص على ان انجب .. انت لا تدرى الاشعورى هذا .. ام تراك تدرى .

ـ بل لا ادرى .. حقا انا لا أدرى، ولا اكتمك فقد كنت احب ان ادرى .

ـ اهو حرصنا على ان يظل اسمنا من بعدنا .

ـ وماذا يهم من بعدنا ان بقى اسمنا او لم يبق .

ـ فماذا اذن .. اى شىء عجيب فى هذه المخلوقات الصغيرة الجبارة يجعلنا نحبها ونحرص عليها ونتوق الى ان نصبح آباء لها .

ـ لعلنا نحب فيهم الحياة ياحاج والى فهم حياة جديدة واقبال الاطفال يشعرنا او هو يشعر الآباء ان الحياة ما زالت تستطيع ان تجدد نفسها .

ـ وماذا نحب فى هذه الحياة ـ هذه الحياة التى لا نستطيع فيها ان ننال ما نهفو اليه الا على اشلاء احبائنا وكرامتهم .

ـ ليس هناك كثيرون خطبت لهم زوجاتهم ياحاج والى .

ـ نعم ولكن هناك كثيرون سعوا الى الانجاب بشتى الوسائل وسهروا الليالى الطوال لتحقيق هذه الامنية .لقد كانت زوجتى شريفة فيما فعلته ، سمعت عن نساء اخريات بذلن انفسهن لغير ازواجهن ليهبن لازواجهن اطفالا ، أحببن أزواجهن الى درجة الخيانة من اجلهم ، هل يستحق الاطفال هذا .. هل يستحقون . أم نحن مخدوعون .. انا حائر يا سعادة البك .. حائر .. ماذا فى هذه المخلوقات الصغيرة .. اى سحر فيها .. انهم اقوى من الحياة يازين العابدين بك .. اقوى من الحياة .. يهون على المرأة ان تموت ولا ترى زوجها مع غيرها ، ولكن زوجتى خطبت لى ، خطبت لى لانها احست الى اى مدى اريد ان ارى لنفسى اطفالا .. هذه المخلوقات اللعينة .. اللعينة .. اللعينة .

ـ ولكنك مع هذا تريد اطفالا ياحاج والى .

واطرق الحاج والى لحظة وخيل اليه ان سحابات من ضباب تغشى ناظريه ثم قال فى اسى :

ـ نعم يا زين العابدين بك .. نعم .. انى اريد اطفالا .

- ٣ -

تعتبر الحاجة بمبه اشهر سيدة بالقرية فى رؤية المستقبل فى الفنجان ، وطالما قصد اليها نساء القرية لتطلعهن على ما تخفيه لهن الايام . وطالما رأت بقايا القهوة فى فنجانها ، ولطالما رأت الاطفال قادمين اليها لاتحصيهم عددا. وهاهى ذى اليوم ترى ان تحقيق امنيتها قريب فان الفنجان لم يخبرها ان كانت هى التى ستلدهؤلاء الاطفال ام ان غيرها ستنجبهم لها ، وانما ما انبأها به ، أن الاطفال سيفدون الى البيت ، وهكذا اقتنعت ان فنجانها لم يخطىء. وها هى ذى تنتظر الاطفال من صالحة ولكنها غير سعيدة ، يزيد من تعاستها انها مصممة على ان تبدو سعيدة . وكانت الحاجة بمبه بيضاء ، فى خدودها حمرة وفى وجهها طيبة واستدارة ، ترهل جسمها ولم يفقد انسجامه ، وهى صاحبة حديث شهى ، هينة المأخذ قريبة الغور سمحة ولكنها قادرة على ان تحسم امورها ، قادرة ايضا على انقاذ ما تريد ، وقد اعجب بها الحاج والى وهو طالب فى الازهر الشريف وتزوجها يوم ازمع البقاء فى القرية بعد أن ظلت مخطوبة له مدة أربع سنوات كاملة . وقد شهد العام الأول من زواجهما صفاء وحبا أما العام الثانى فقد كدره لهفتها أن تصبح أما ، وزاد هذه اللهفة تساؤل قريباتها عما اخرها عن الانجاب . ثم صارت السنوات التالية جميعا كفاحا من أجل الانجاب ، وقد كان العلم فى ذلك الحين يضرب فى غياهب من الجهل ، ولم يكن من المعقول فى ذلك الحين أيضا أن ترى الحاجة بمبة غير النساء ، فزوجها رجل صارم زادته تربيته الدينية صرامة .

ولم يكن فى الحجاب الذى يفرضه المجتمع على النساء فى ذلك الحين أى عجب بل ان النساء حتى هذه الايام لم يشعرن بأية غضاضة أو ضيق . وقد كانت الحاجة بمبه من اولئك النسوة اللائى يرين ان اوامر ازواجهن مقدسة لا سبيل الى التهاون فيها . وكان الحاج والى يحب زوجته وما كان ترهلها يزيده الا حبا لها فقد كان الجمال كل الجمال ان تكون المرأة سمينة حتى لا يكاد زوجها ان يحيطها بذراعيه . ولولا رغبة الحاج والى اللاهثة فى ان ينجب اطفالا لما فكر فى الزواج فقد ازدادت زوجته جمالا على جمالها فى السنوات الطويلة التى عاشتها معه فانه لم يكن يأخذ عليها يوم تزوجها الا انها نحيفة القوام.

ولم يكن الحاج والى من هؤلاء الرجال الذين يميلون الى العنف فى معاملة زوجاتهم بل كان رقيق المعاملة يحب حديث زوجته ويأنس اليه . وكم تمنى ان يتخلص من رغبته فى انجاب اطفال بل لكم خيل اليه انه تخلص من هذه الرغبة ولكنها ماتلبث ان تثور عاصفة فى نفسه وقد اخذ نفسه منذ تزوج «صالحة» ان يزيد من اهتمامه بالحاجة بمبة فهو لايخرج من البيت الا بعد ان يجلس اليها ويشرب معها قهوة الصباح .

وقد بكر فى يومه هذا ونظر الى الشباك فوجد السماء متجهمة صلبة الملامح ، وكانت النخلات التى يطل شباكه عليها تهتز فى غير سرور فقال فى نفسه أهذا ربيع اللهم اجعله خيرا

ثم صلى ركعتى الصباح .التفت الى صالحة يسالها :

ـ لماذا لا تصلين الصبح ياصالحة ؟
ـ سأصليه عندما تخرج ياعم الحاج ·
ـ اتصرين على ان تقولى ياعم الحاج؟·
ـ تعودت على قولها ·

ـ ان اردت الحق فانا احب ان اسمعها منك لا ادرى لماذا رغم انها تجعلنى احس انك صغيرة وانى كبير، ولكنى احب ان اسمعها منك لاتغيريها ·

وضحكت صالحة وهى تقول :
ـ انى لا استطيع ان اغيرها ·
لكن الحاج والى تجهم لحظة وقال :

ـ الم تعلق الحاجة بمبه عليها بشىء ؟
ودهشت صالحة بعض الشىء وقالت:
ـ تعلق على ماذا ؟
ـ على قولك يا عم الحاج ·

ـ وبماذا يمكن ان تعلق عليها ؟

ـ قد ترى فيها تدليلا او شيئا من هذا القبيل ·

ـ لا تخش شيئا ، فان احدا لايرى فيها تدليلا الا أنت ·

ـ لاتؤاخذينى ياصالحه ، فالحاجة بمبه ست طيبة ولا اريد ان أغضبها ·

ـ يا عم الحاج لاتخش شيئا فانا أيضا أحبها واحترمها من اجل خاطرك ومن اجل خاطرها هى ايضا فانا اعرف انها لاتكرهنى · او هى على الأقل لاتظهر لى الا كل خير فلماذا اغضبها ؟

ـ الله يسترها معك يابنتى ·

ـ اننى اعمل لها كخادمة لا اعصى لها امرا ، ولكنى احس ان فى هذا راحتى مادام يرضيك ·

ـ ولكنك لست راضية كل الرضى·
ـ كل امرأة تريد ان تكون ست بيتها ·
ـ الا يكفيك ان تكونى ست هذه الحجرة ·
ـ يكفى ان اعيش معك ياعم الحاج·
ـ الله يرضى عليك يا صالحة ·· لقد تأكدت ان الله راض على منذ عرفت حقيقة اخلاقك ، وازددت تأكدا من رضائه سبحانه وتعالى يوم بشرتنى بما تحملينه لى فى احشائك من خير ·

ـ انت رجل طيب ياعم الحاج ·
ـ افوتك بخير ·
ـ مع السلامة ·

وخرج الحاج والى الى بهو بيته فوجد الحاجة بمبه جالسة فى مكانها وامامها معدات القهوة فبادرها ·

ـ صباح الخير ياستنا ·
ـ صباح الخير ياحاج أهلا ·
ـ هل شربت القهوة ؟
ـ من غيرك ؟ لاوعيت اذوقها ·

ـ والله ياحاجة لاأجد للقهوة طعما ان لم تكن بيدك ·

وبدأت الحاجة بمبه تعد القهوة وهى تسأله :

ـ الى اين العزم ان شاء الله ؟

ـ الى الشيخ حسنين المحلاوى فقد وعدنى اليوم ان ازوره واشرب عنده القهوة واتقاضى دينى ·

ـ اتذهب الى العشماوية فى هذا اليوم العاصف ؟

ـ ياحاجة بمبه نحن فلاحون ·· اذا قبعنا فى بيوتنا من اجل الجو تعطلت اعمالنا ·

ـ ربنا يكون فى عونك ياحاج والى ·

وكانت القهوة قد أعدت وأخذ الزوجان يحتسيانها وفى ذهن كل منهما افكار تضطرب يحاول ان يسترها عن رفيق عمره ما وسعه الجهد · وقال الحاج والى :

ـ لو كانت القطارات تسير لوجدت الجرائد فى المحطة ·

ـ لا عليك ، فالانجليز يعملون بهمة فى اعادة الخطوط الحديدية ·

ـ والله ياحاجة لايضايقنى من هذه المهمة الا اننى سأمر على الانجليز ·

ـ يا اخى مالك ومالهم ·

ـ يكفى أننى سأنظر الى وجوههم المسلوخة ·

ـ اذا وصلت اليهم فانظر الى الجهة الاخرى ·

ـ على رأيك ·· افوتك بعافية ·

ـ انتظر ·

ـ ماذا ؟ ·

ـ الا أقرأ لك الفنجان

ـ كدت انسى والله ياشيخة ·

ـ انتظر ·· ارى كأنك فى طريق ستحصل منه على مال ·

ـ لا ياحاجة هذه ليست فى الفنجان، لقد اخبرتك الآن اننى سأتقاضى دينى من الشيخ حسنين ·

ـ انتظر ، وارى كأنك جالس فى وسط الطريق ·

ـ فانى ساقطع الطريق كله جالسا، لانى سأمتطى الحمار وضحكت الحاجة بمبة وهى تقول :

ـ لابد انك ستقع عن الحمار ياحاج والى ، لانى اراك جالسا على الارض وضحك الحاج والى قائلا :

ـ هذا هو الجديد ·· لاشك ان هذا هو الجديد ·

لم يبق الا أن اقع عن الحمار ·

ـ هذا كلام فنجانك ·· وأراك منصورا والله ياحاج والى ·· ان شاء الله أنت منصور على اعدائك ياحاج ·

ـ ربنا يسمع منك ياحاجة ، فأنت طيبة ونفسك طاهر ·· افوتك بعافية

ـ عافاك الله ·

وخرج الحاج والى الى الطريق وقد ركب حماره ، وكان الفلاحون فى طريقهم الى حقولهم ، فئوسهم على اكتافهم وفى يدهم دوابهم ، وتبادل الحاج والى التحايا مع الفلاحين ، وقد كان الحديث بينهم عن الثورة المشتعلة فى القاهرة والريف فقد كانت تسيطر على سماء مصر فى ذلك الحين ـ اجواء من الحيرة والاضطراب اما ابناء مصر انفسهم فقد كانوا بعيدين عن الحيرة كل البعد ، فقد عرفوا الغاية والطريق ، فهم يشعلونها فى كل ماتقع عليه ايديهم تأتيهم الانباء من مصر فيها قهر من المحتل وعنف وعسف وظلم فلا يزيدهم شىء من هذا الا اصرارا واندفاعا ·· فهم التيار الآخذ لايصده عن متمناه شىء · سمعوا عن اعتقال سعد وصحبه فثاروا ، وسمعوا عن مأمور الضبط الذى قبض على الاجانب المستكبرين بالحماية الانجليزية فاجرى معهم التحقيقات الرسمية ووقعها باسمه ثم استقال من الحكومة فشعروا ان شباب مصر يستطيعون ان يبلغوا الآمال وان غاب عنهم القادة والزعماء ·كانت الثورة فى داخل النفوس فهى نيران · وكان وجود الانجليز وحده كافيا ان يمد هذه النيران بوقودها فهى متأججة دائمة

الأوار . وانقطعت الأنباء عن الفلاحين في قراهم بعد انقطعوا الخطوط الحديدية ووقفت السلطات الانجليزية تعيد الخطوط الى أمكنتها وتمنع الحوادث . فسكن الفلاحون ينتظرون ، ولكن الثورة في نفوسهم لم تسكن ، فلاحديث لهم الا عما كان من الحوادث ومايرغبونه من مستقبل وكان الحاج والى وهو فى طريقه الى العشماوية لايكاد يمر بجماعة من الفلاحين فى طريقهم الا وسمع كلمة « سعد » او كلمة « الانجليز » أو كلمة « الثورة » أو كلمة «القضبان» لم يسمع الحاج والى فيما سمع ، كلمة السماد أو القمح أو الارض أو كلمة من هذه الكلمات التى تعود ان يتبادلها ابناء القرية فى مالوف حياتهم .

وبلغ الحاج مشارف المحطة وعبر مواضع القضبان الحديدية المنزوعة متعمدا ان يلقى بنظره بعيدا عن الانجليز وما كاد يبتعد عنهم حتى اطلق تنهيدة مستريحة وهو يقول :

ـ الحمد لله ..

وكانه خرج من مازق حرج وبلغ الحاج والى مقصده وتقاضى دينه وعاد طريقه. وغير موضع القضبان مرة اخرى واوشك ان يبتعد ويطلق التنهيدة ولكن طلقا ناريا كان اسرع من تنهيدته ، وفى لحظة خاطفة كان الحاج والى جالسا فى الطريق فوق الحمار المتهاوى تحته ومر بذهن الحاج والى قول زوجته انه سيجلس فى الطريق ثم مر بذهنه انه اصيب فلبث مكانه ينتظر أن ينبثق الالم من اى مكان فى جسمه ، وطال لبثه ولكنه لم يتالم ، فاخذ يتحسس ما تصل اليه يده فعادت اليه يده كما اطلقها لم يعلق بها شىء يؤكد شكه ، ففكر ان يعتدل فحرك جسمه فتحرك معه ، وتهيأ ان يقف واخذ يرسم حركاته قبل ان يتحركها فراح جسمه يطاوعه فى كل ما يحاوله حتى إستقام امره اخيرا واعتمد رجليه ، ووقف ، ونظر الى حيث كان جالسا فتبين الحادث بأكمله ، لقد اطلق الانجليز الرصاص على الجزء الاعلى من ذيل الحمارة . لو لم يكن الحاج والى مشغولا بما اصابه ولو لم يكن ضجيج الذهول والاضطراب محيطا به من كل جانب لسمع القهقهات العالية التى كان الانجليز يطلقونها بعد عيارهم . وقصد اليهم الحاج والى فى ثورة عاتية يمسك باطرافها فى نفسه خوف من عيار نارى آخر يصوب اليه هو فى هذه المرة وما أرخص الارواح عند الانجليز وماضر ان يموت هو كما مات الحمار ، فما كانوا يقيمون كثير فرق بين انسان مصرى وحمار ، قصد اليهم يفكر فيما يقول أو يفعل ، وتقدم اليه قبل ان يصل شاب مصرى يرافقهم من قبل مصلحة السكك الحديدية وقال :

ـ على رسلك ياشيخ .

وقال الشيخ فى غضبته :

ـ ايرضى الله هذا ؟

ـ وهل يعرف هؤلاء الله ؟

ـ ماذا فعلت حتى يفعلوا بى هذا ؟

ـ لاشىء ، لقد تراهن احدهم مع آخر على انه يستطيع ان يصيب الحمارة التى تركبها دون ان يصيبك وها هو ذا يضحك لانه كسب الرهان . الحمد لله انه كسب الرهان .

ـ الحمد لله ؟!

ـ لو كان خسر الرهان لخسرت انت حياتك .

- لا اله الا الله .. لا اله الا الله

ونادى احد الانجليز الشاب المصرى فذهب اليه ، وأوشك الحاج والى ان ينصرف ولكن الشاب ناداه :

- انتظر ياعم الشيخ .

فانتظر الحاج والى وجاء اليه الشاب وفى يده جنيه ذهبى وقال خذ هذا .

- ما هذا ؟

- يقولون انه ثمن الحمار .

وقال الحاج والى فى غيظ .

- قطعت يدى ان اخذته .

- اعمل معروف وخذه فان اولاد الكلب هؤلاء لايرحمون وقد يغضبون يطلقون عليك انت النار ، وما اسهل ان يقولوا بعد ذلك انك حاولت ان تعتدى عليهم خذ .. خذ .

وامسك الحاج والى الجنيه الذهبى والقى به الى الارض فى شىء من الخوف وفى كثير من الحزم مراعيا ان يسقط الجنيه بحيث يرى الانجليز انه رماه وبحيث يجدونه ايضا ان تفقدوه .واولى الجميع ظهره واخذ سمته الى القرية منتظرا فى الخطوات الاولى ان ترديه رصاصة محكمة التصويب فيقول فى نفسه « اشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله » ويملأ نفسه شعور بالكرامه فهو يستأنى فى خطره وكأنما يتحدى حتى اذا وثق انه صار بمنأى عن مرمى الرصاص منهم سار طريقه فى خطوات متقلته يحمد الله ان نجا ، يملاه شعور بانه انتصر ويملاه شعور آخر بانه مظلوم ، تختلط فى نفسه الوان من الغيظ ومشاعر من العزة .



- ٤ -

لم يكن بيت زين العابدين بك باذخ الفخامة وانما كان رحب اللقاء تستقبل الداخل اليه شرفة واســـعة ليست مرتفعــة عن الارض الا ببعض درجات قلائل ثم هى تفضى الى بهو كبير تحيط به من الجانبين حجرات واسعة للاستقبال واما الدور الاعلى منه فهو حجرات للنوم وتحرص بهية هانم زكى على العنـــاية بالمنزل بغاية ماتستطيع من نظافة ٠وان كانت الفيران كثيرا ما تعدو على نظافتها بما لاتحب ٠ فهى تطاردها ما وســعها الجهد ٠ فبهية هانم سيدة نشــأت فى بيت النظافه فيه قطعة من الدين،والدين فيه هو كل شىء فهى لم تقل يوما لزوجها الا ما يرضيه ، شأنه ان يأمر وشأنها ان تطيع دون ان تحاول تبرير اوامره او مناقشتها ٠ ولولا مايشـــغلها من انجاب الاطفال لسعدت بحياتها فى ظله كل السعادة ٠ فما ينقصها من حياتها شىء الا ان تصبح اما ، فهى تسعد حين تنظر الى المرآة غاية السعادة فهى جميلة القسمات فم متسع بعض الشىء يعلوه أنف صغير تحيط بها وجنتان فيهمـــا امتلاء وفيهما نعـــومة واشراق ، يغطى الشعر الاصفر اذنيها الصغيرتين بادئا من رأس متسعة تاركا بينه وبين العينين السوداوين جبهة صافيةعريضة ٠وبهية ممتلئة القوام فى غير افراط وانما هــو القوام كما يشتهيه زوجها طولاوعرضا٠ ولم تكن بهية قد ادركت الخامســـــة والثلاثين من عمرها ، وهكذا كان املها فى الانجاب تمهد له هذه السن الباكرة ان يزدهر ولا يتضاءل ٠

كان الوقت مساء وقد صـــعد زين العابدين مبكرا من الطابق الادنى وقال لها مبتسما :

ـ هيه ما رأيك لوسافرنا الى مصر باكر ؟

ـ صحيح ٠٠ هل اصلحت الســكة الحديد ؟

ـ سيمر بنا اول قطار الى مصر باكر

ـ ولكن لى شرطا ٠

ـ الك شروط أيضا ؟

ـ شرط واحد ٠

ـ آخـــذك معى الى مصر لترى اباك وامك وتملين شروطك ايضا ٠

ـ قلت لك انه شرط واحد ٠

ـ امرك ياستى ٠٠ قولى شرطك ٠

ـ اذهب الى الدكتور نجيب محفوظ

ـ ماذا ؟

ـ دكتور مشهور فى مصر سمعت عنه من زوجة مامور المركز ٠ ظلت عشر سنوات بلا خلف حتى كتب لها الدكتور محفوظ دواء فأصبح لها ولد وبنت ٠

ـ امرك يا ستى ٠٠ امرك ٠٠ ولكن لى شرطا انا الآخر ٠

ـ امرك ٠

ـ لا تطلبى منى أن اقيم معك فى بيت والدك ٠

ـ لماذا ؟

ـ لا ارتاح هناك ٠

ـ امرك ٠

ـ اتفقنا ٠

وكان الصباح ، ونزل زين العابدين

الى الطابق الأسفل بعد أن أوصى زوجته الا تتأخر فى اعداد الحقائب . وكان فى انتظاره الحاج والى الذى جاء بناء على موعد سابق .

ـ صباح الخير ياحاج والى .

ـ صباح الخير ياسعادة البك .

ـ هيه هل احضرت المبلغ ؟

ـ المائة جنيه معى الا ان لى كلمة

ـ لا تقلها .

ـ لابد ان اقولها .

ـ ياحاج والى ان لم اتمتع بمالى فلمن اتركه .. ها أنتــذا ترى .. لا ولد ولا بنت .

ـ ياسعادة البك العمر امامك طويل، وقد بعت حتى الآن ما يقرب من الخمسين فدانا ، ماذا تفعل غدا اذا رزقك الله بالولد او البنت هل كان احد يصدق اننى ســأخلف .. هانذا انتــــظر مولودى .. اعمل معروفا يازين العابدين بك ، كفاك بيعا .

ـ ربنا يسمع منك ياحاج .. لك حق .. من يدرى فها نحن سنذهب الى الدكتور نجيب محفوظ فى القاهرة ؟ .

ـ ان شاء الله ربنا يستجيب لدعائنا

ـ ربنا يهيئ الخير ياحاج .

ـ على بركة الله .. تفضل المبلغ .

ـ العقد الذى معك سليم ؟

ـ نعم .. ابقاك الله .. نحن جميعا نشهد لك ان بيوعك شريفة وعقودك نظيفة والحمد لله .

ـ الحمد لله .

ـ استأذن أنا .

ـ مع السلامة ياحاج والى .

وقام الحــــاج والى وخرج ، وظل زين العابدين وحده يفكر فيما قاله له الحاج ثم ما لبث ان ابعده عن ذهنه وقام الى شرفة داره يذرعها فى انتظار موعد القطار والقى نظرة الى الشــجر الذى يحيط ببيته فوجد طيورا كثيرة مطمئنة الجلسة فوق اعراقه .. ما الذى يمسك بهذه الطيور هنا .. لماذا لا تذهب الى القاهرة ولها اجنحة .. أهو الامن الذى يشيع حول بيته فهو لا يصــيد الطير فليس ثمة صوت قذيفة يسمع .. وهل يكفى الامن حتى تســتقر الطير فوق اشجاره .. ما لهـــا لاترود السماء والاشجار انها غبية هذه الطيور غبية ومال زين العابدين بك فجاة فأمسك بحجر والقاه على شجرة حافلة بالطير فانبعث الحمام واليمـام صـاعدا فى السماء وحوم مرة ثم اتبعها باخرى ثم عاد الى الشجرة واطمأن به المقام وزين العابدين يقول ما يزال .

ـ غبى هذا الطير غبى .

حان موعد القطار ونزلت بهية هانم تتقدمها الحقائب واســتقل الزوجان العربة الى المحطة ، واقبل القطار بعــد قليل ، بطيئا فى قدومه وكأنه يتحسس طريقه يستوثق ان الاصــــلاح قد تم باتقان ، وحين بارح القطار المحطة بطيئا ما يزال نظر زين العابدين الى السماء ، وارتاحت نفسه حين رأى يمامة تسير بجانب القطار وكأنها تسابقه، ثم مالبث ان انشغل عن السماء بالارض ، وعاد ينظر الى الطريق الذى انقطع عن السير فيه اشهرا طوالا ، وشاركته بهية هانم الصــمت والنظر الى الطريق حتى اذا وصلا الى القاهرة طلبت بهية فى تردد ان يذهبا الى الطبيب اولا مادام قدوصلا فى موعد مناسب والتقى طلبها برغبة زين العابدين الذى اراد ان ينتهى من

هذه المهمة ليفرغ بعد ذلك الى القاهرة التى بلغ شوقه اليها اقصى مداه وتم لهما ما ارادا وعادا الطبيب وكتب الدواء للست واستقبلت التذكرة بأمل عريض مشرق واستقبلها زين العابدين كماتعود ان يستقبل كل وصفة جديدة تأتى بها زوجته ·

واشترى لها الدواء وذهب بهـا الى بيت ابيها وقبل ان يدخل قال سائق العربة الاجرة :

ـ هل انتظر سعادتك ؟

وبدون وعى قال زين العابدين :

ـ نعم ·

وصعد فادى زيارة عاجلة ثم استأذن وخرج ·· الى القاهرة ·

كان بار الانس هـــو البيت الحقيقى الذى يقطنه زين العابدين حين يأتى الى القاهرة ، وكانت صديقته فيه فاطمـة العراقية ·· فتاة اتقنت ارضاء الرجال فنصيبها من زوار البار هم الاغنياءالذين يحبون ان يبذلوا اموالهم فى كرم وسماح وقد كانت فى هـذه الشهور التى غاب فيها زين العابدين قد وطدت صداقتها بوجيه آخر من وجهاء القاهرة الذين لم تمنعهم الثورة وتقطيع الخطوط الحديدية من زيارة البار · وهكذا كان دخـــول زين العابدين عليها أمر لا تســتقبله بالحفاوة والترحاب فى دخيلة نفسها وان كانت قد ابدت له كل ما تعلمته طوال حياتها العريضة من حفاوة وترحاب · جلست اليه بضع دقائق ثم استأذنت وقامت الى زميلتها انيسة ولعه ·

ـ هذا السوار يعجبك من زمان ·

ـ نعم ·

ـ وهذا القرط ·

ـ ما شأنك ؟

ـ الذى احضر السوار والقرط هذا الرجل الجالس هناك ·

ـ نعم اعرفه زين العابدين ·

ـ يدى مشغولة فى هـــذه الايام بغيره ·

ـ فانت تتنازلين لى عنه ؟·

ـ بعينك ·

ـ فماذا تريدين ؟

ـ كم تدفعين لأتركه لك ؟

ـ اعطيك أول هدية يحضرها ·

ـ واذا كنت خائبة ولم تستطيعى ان تنالى منه هدية مناسبة ماذا اعمل انا؟

ـ وماذا اعمل آنا ؟

ـ تدفعين فيه ما اطلبـــه الآن والله يهنيك به بعد ذلك ·

ـ قولى ماذا تريدين ؟

ـ هذا المصحف الذى يتـــدلى على صدرك ·

ـ هذا ·· لقد ثمنته بعشرين جنيها·

ـ انت تعرفين اننى استطيع الاحتفاظ برجلين وبعشرة اذا احتاج الامر ·

ـ النهاية ·· امرى الى الله ·· خذى

وخلعت انيسة المصحف وتقدمت هى وفاطمة من مائدة زين العابدين وجلستا وقالت فاطمة فى دلال :

ـ يا زين العـــابدين بك ·· انت فاجأتنى بزيارتك ، وانا الليلة مشغولة فى فرح وقد رجوت انيسة ان تصاحبك الليلة ·

ـ يا ستى اهلا بأنيسة ·

وتم الاتفـــاق دون اى اعتراض من زين العابدين فما كان يمكن أن يعترض بمشهد من انيسة ، وهـــو بعد ليس حريصا كل الحرص على ان تطول صلته بفاطمة اكثر مما طالت وما كادت فاطمة تقوم عنهما حتى سارع هو يسالها ·

ـ اين نتعشى الليلة ؟·

وكانت انيسة خبيرة بما يرضى الرجال ٠٠ خبيرة ايضا بالامكنة التى يمكن ان تقصد اليها اذا كان معها زبون على هذا الغنى الذى يتمتع به زين العابدين ٠ وسرعان ما اكتشف فيها زين العابدين هذه المواهب فهو يسألها بعد العشاء ٠

ـ واين الغداء ؟

ـ غداء ٠٠ اى غـــداء يارجل ونحن مانزال فى العشاء ٠

ـ اقصد باكر ٠٠ ماذا بك ، لماذا لاتفهميننى !؟ ٠

ـ باكر ؟! اى باكر ياسعادة البك ٠٠ الكلام كان عن ليلة واحدة ٠

ـ وانا لا أعرف لليلة واحده ٠

ـ وانا لا اعرف على ضره ٠

وأنا لا أعرف على ضرة ؟

ـ فماذا انت فاعل بفاطمة ؟

ـ من باعك بعه ٠

ـ ياراسى ٠

ـ يا ستى ، كم من افراح احييتهـــا ونحن اصدقاء ولم تعتذر ٠

ـ تعجبنى ٠

ـ عارف ٠

ـ نتغدى باكر فى روض الفرج ٠

ـ يابنت ٠٠ فى الهواء الطلق عـــلى النيل ٠

ـ فاهمنى ٠

ـ وباكر ساكون فهمتك اكثر واكثر

وفى الغد قصد هو وانيسة روض الفرج واختار منضـــدة على النيل وامر بالغداء وطلب زين العابدين حمـــــامة مشوية وطلبت هى كبابا وفى انتظار الاكل ان يأتى نظر زين العـــابدين الى السماء وكأنما يريد ان يرى مقـــدار سطوع الشمس ، ولـــكن ادهشـــه ان وجد حداء كثيرات تحوم حول المكان ، وقال لانيسة :

ـ ماذا تفعل كل هذه الحداه هنا ؟

ـ كل مخلوق يبحث عن رزقه ٠

وسكت ، وجاء الطعام واســتقر على المائدة وبدأ زين العابدين ياكل فقطع لنفسه لقمة عيش غمسها فى ســـلطه الطحينة حتى اذا ابتلعها مديده للحمامة المشوية وقد اخذ به الجوع مأخذه ،ولكن لم يكد يمد يده حتى انقضت على الحمامة حدأة بارعة فاذا الحمـــامة المشوية فى مخالبها واذا هى فى السماء مرة اخرى قبل ان يفيق زين العابدين من المفاجأة المذهلة ٠

***

خرج زين العـــابدين من اللوكاندة يريد ان يقصد حى الصاغة فقد كان لابد له ان يشترى هدية للصديقة الجديدة، ووقف ينتظر عربة أن تمر به ولكن طال به الوقوف دون ان تمر به عربة وسئم زين العابدين الانتظار فراح يمشى آملا ان يلتقى بعربة ولم يمر بذهنه انه من العسير ان يجد هذه العربة فقـــد ترك القاهرة حين تركها قبل الثورة وقائدو العربات يلحون عـــلى المارة ان يركبوا وحين نزل فى امسه من القطار لم يجد صعوبة تذكر فى الحصول على عربة وقد ظلت العربة معه حتى عاد الى اللوكاندة وساله السائق ان كان يريده فى اليوم التالى واندهش من السؤال ولكنه وافق وظن ان سائق العربة يريد أن يضمن رزق غده ولم يشأ ان يحطم آماله فوافق وظلت معه العربة طوال اليوم التالى حتى عاد الى اللوكاندة فهو اذن يجهل كل الجهل ما الم بالمواصلات حتى فى القاهرة وقد اوقعه هذا الجهل فى خطأ يدفع ثمنه الآن فهو لم يطلب الى السائق ان يعود اليه فى يومه هذا فما كان يتصور انه لن يجد عربة فى اية لحظة يشاء ٠ومرت به

عربة كارو فوجدها مزدحمة ووجد بها قوما لم يتعود أن يرى مثلهم على عربة كارو وتولته الدهشة ولكن لم تكد تقد ظهرت عربة اخرى كارو ايضا ولم تكن مزدحمة فاذا سائقها يقف بجانبـــه ويقول :

ـ تفضل يا بك ·

ـ ماذا ؟

واوشك ان يغضب ولكنه نظر فوجد الراكبين لايقلون عنـــه وجاهة وقال أحدهم وهو أفندى أنيق :

ـ تفضل يابك يظهر انك قادم من الريف قريبا ·

وقال زين العابدين وهو فى دهشته لايزال :

ـ نعم ·

ـ هذه هى وسيلة المواصلات الرسمية الآن فسائقو الحنطور مضربون ·

وقال السائق :

ـ اتحب ان تجلس فى الدرجة الاولى ؟

ـ ماذا وهل عندك درجة أولى ؟

ـ نعم ·· هنا فى المقدمة ·· تجلس على وسادة وستجد الجلسة مريحـــة ونظيفة ·

ـ وكم الاجر ؟

ـ قرشان ·· الى اين انت ذاهب ؟

ـ الى الصاغة ·

ـ تفضل ·

ودفع زين العابدين القرشين وركب واستأنف الحديث :

ـ ولكنى ركبت بالامس عربة حنطور وقال السائق :

ـ لابد انك ركبتها من المحطة ·

ـ نعم

ـ والترام ؟

ـ اضرب عماله أيضا ·

وقال احد الراكبين من الوجهاء :

ـ لقد وجدنا الكارو امتع ·

ـ وقال السائق :

ـ انها ركبه سلطاني ·

وقال زين العابدين :

ـ ولكن لماذا الاستمرار فى الاضراب وقد سمح للوفد بالمفاوضـــة وتألفت وزارة رشدى وأوشـكت الامـور ان تستقر ·

وقال الافندى الذى حادثه اولا :

ـ لجنة الموظفين ماتزال مضربة وقد وضـــعت شروطا للعودة للعمل وهكذا استمر الاضراب ·

وقال آخر :

ـ الاضراب مســـتمر وان كانوا قد اخذوا يجمعون الاكتتاب للوفد ·

ـ اعانهم الله ·· لابـــد ان ينجح الوفد فى مهمته ·

واستمر الحديث بين الراكبين حتى بلغ زين العابدين الى الصـــاغة فنزل واختار سوارا من الذهب الثقيـــل دفع فيه عشرين جنيها وعاد وقد عرف طريقه فوقف الى موقف العربات الكارو فركب الدرجة الاولى وصعد معه شاب يلبس الملابس البلدية وافندى لاتبدو عليـــه مظاهر الغنى كما ركب الى جـــواره فى الدرجة الاولى وجيـــه يرتدى مـــلابس الفقهاء وان كان يبدو عليـــه انه تاجر وسارت العربة · وبدأ الافنـــدى غير الانيق حديثه مع الذى يلبس المـــلابس البلدية

ـ يا ليتنى كنت املك اكثر من هذا كنت قدمته ·

ـ وماله ؟ كل انسان يقدم مايستطيع ·· انا لم اجدشيئا ولولا زوجتى لظللت حزينا طول العمر ·

ـ وماله يا أخى ألستما زوجين ؟ ·

ـ نعم ولـــكنها عروس جديدة ولم احضر لها الا هذا العقد ·

ـ والله انها عاقلة ·

ـ رأت مقدار ضيقى فقالت لى بعه وحين يأتى المال اشترى لى غيره ·

ـ وهل بعته ؟

ـ لا ·· سأقدمههو الى لجنة الاكتتاب فانى اخشى ان بعته ان يبخسوا ثمنه·· انا اشتريته بعشرة جنيهات ومعى عقد شرائه ·· سأقدمه هو والعقد الى اللجنة واللجنة ستبيعه بثمنه ·

وسمع زين العابدين الحديث فعجب له ، وراح يفكر فى هذه القاهرة التى انتفضت هذه الانتفاضة فلم يعد يسمع شيئا انما هو طنين من الدماء الموارة فى عروقه ·· انه البعث · ووقفت العربة فما درى أين وقفت ونزل الافنـــدى والشاب فوجد زين العابدين نفســـه ينزل معهما وسارا فسار خلفهما ودخلا بيتا وقدم كل منهما اكتتابه واخذ كل منهما ايصالا وانصرفا وتقدم هو فقـدم السوار الذى اشتراه ومعه العقد الذى يثبت ثمنه وســـأله الذى يتولى جمع الاكتتاب ·

ـ اسم حضرتك ؟

ودون وعى قال :

ـ انيسة ولعة ·

وقال الرجل داهشا :

ـ ماذا ؟

وانتبه زين العابدين ليقول :

ـ اكتب الايصال باسم انيسة ولعة·

وحين التقيا قدم لها الايصال فنظرت اليه نظرة عميقة واحتضنته وهى تقول:

ـ هذه اعظم هدية نلتها بل اظنها اعظم هدية سأنالها فى حياتى ·· لقد جعلت منى انسانة لها وطن وعليهـا واجب نحوه اطال الله عمرك ·

ـ ٥ ـ



كانت الحاجة بمبة جالسة فى بهـــو بيتها تنتظر الحاج والى أن يعود ، فهى تريده فى امر قد يدهش له ولكنهاتراه عدلا ، ولا بد ان تقوم به · وكان يجلس الى جانبها طفل فى الخامســـة من عمره دقيق القســـمات ، دقيق الجسم أسمر البشرة رغم المجهـود الكبير الذى بذلته يد رحيمة لتزيل عنها قذر أيام ان لم تكن شهورا طويلة وكان يرتدى جلبابا من القمـــاش الرخيص وان كان يبدو هو الآخر انه انفلت من النظافة منذ لحظات· وكان الطفل جالسا ذاهل النظرات فى عينه اليسرى دمعة منســـابة لا يدرى لانسيابها سببا وانمـا هى تلازم عينه كلما أزالها عادت تنسكب فى الحاح واصرار · ولكن عينه تزجى مع الدمعة اشـعاعا من الذكاء لا يخفى وقد حاول الطفـــل فى عزم ألا يبـــدو منه الا الهدوء والطاعة · فقد كان جديدا على هذا المنزل ، جديدا على هذه النظافة التى

تواكبت عليه فجاة فكان مجالها جسمه وملبسه فى آن معا · فهو واجف صامت فى نظرته انتظار لمجهول ودهشه بادية على محياه جميعا ، وقد حاولت الحاجة بمبه أن تطمئن وحشته وتؤنس غربته فيلجأ الطفل منها الى هذه الطيبة لجوء اللاهف الغريب يستشف الحنان ويتلمس اليد الرحيمة أو الكلمة العطوف لايبحث عن مصادرها ولا يهتم ببواعثها وينشغل الطفل حينا من الزمن بناموسة تلح على يده فينظر اليها طويلا وهى مستقرة لا تبارح مكانها ويحرص الطفل الا يحرك يده وكأنما يحاذر ان يقض من الناموسة آمنا ، ولكن الناموسة لاتقابل عطفه بغير عضة فى يده فتختلج يده خلجة مذعورة داهشة تطيح بالحشرة بعيدا ولكنها ما تلبث ان تعود الى يده الاخرى فيتكرر ما حدث من الطفل والناموسة ، وتجلوالناموسة عنه فيبحث عن شيء آخر يشغله فلا يجد الا نور المصباح المتراقص لايقر له قرار وما تلبث صالحة ان تدخل الى البهو قادمة من حجرتها يتقدمها جنينها ولسانها وهو لايكف عن الدعاء للحاجة بطول العمر والهناء والسعادة والحاجة تتقبل هذا الدعاء فى تواضع وتهوين من شأن المعروف الذى تلهج بذكره صالحة ·

وتحاول صالحة فى اخلاص ان يتلمس اوامر الحاجة فهى تسألها ان كانت تريد شيئا اى شيء وتجيب الحاجة انها تريدها ان تستريح وتريح هذا الجنين الذى ترهقه معها فى الذهاب والمجيء ذارعة به غرفات البيت لاتهدأ ولا تجعله يهدأ والطفل يسمع مابينهما من نقاش لايدرى من اسبابه شيئا ويهم ان يسأل علام الشكر ؟ ثم تمسك بلسانه وحشة الغريب فيبتلع استفساره مع احاديث كثيرة تتوارد على ذهنه ما ان تبدو على صفحة عقله حتى يقمعها فتعود مختفية متراجعة الى واد من النسيان حيث لايعلم الطفل ولا يعلم احد اين تذهب ·

ويأتى الحاج من الخارج ويرى الطفل فيدهش لحظة ثم يقول فى ترحيب طيب:

ـ اهلا حسين ·· مساء الخير ياحاجة كيف حالك ياصالحة ؟

وتجيب الزوجتان التحية ويتقدم حسين الى الحاج والى فيقبل يده ويقعد الحاج على الاريكة بجانب بمبه وتقوم صالحة وهى تقول :

ـ تعال يا حسين ·

ويتبع حسين امه الى حجرتها وتقول الحاجة :

ـ لى طلب عندك ·

ـ طلبك امر ياحاجة ·

ـ اريد حسين ان يقيم معنا ·

ـ ماذا ·· وانت التى تطلبين ؟

ـ ومن يطلب هذا اذ لم أطلب انا ·· ان زوجتك صالحة على وشك الوضع ، ولا شك انك ستربى ابنك احسن تربية وحسين اخوه على كل حال وأنا لا احب ان يكون احد الاخوين متعلما والآخر جاهلا ·

ـ ربنا يعطيك بقدر طيبتك ياحاجة ·

ـ لو اقام حسين عند جده لما استطاع أن يعلمه وليس بكثير عليك أن تربى ابن زوجتك كأنه ابنك فهو يتيم ويستحق العطف ·

ـ ياحاجة انت طيبة وصالحه ·

ـ ماذا قلت ؟

ـ البيت ياحاجة بيتك لك ان تقبلى فيه من تشائين وتخرجى منه من تشائين ·· وقد كان الاجدر بى ان اطلب اناهذا الطلب اكراما لصالحة ·· انما انت دائما تسبقين الى الخير ··

- ٦ -

كانت الريح عاصفة يشتد عصفها كل حين ، بدأت اول ما بدأت بذرات الرماد تحملها ثم قويت فاصبحت تحمل الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ثم راحت تخلع عن اشجار الكافور اوراقها ثم اشتد ساعدها فاذا هى تحطم اعراف الشجر لاتفرق بين الكافور أو غيره من الاشجار وراحت تحمل الاعراف فى سرعة مجنونة تندفع الى حيث لاتدرى مقصدا ، رياح عمياء مجنونة معربدة ليس فيها من الثبات الا انها تندفع الى هدف واحد وان كانت لاتدريه ولا تدرى لماذا اختارت هدفها هذا ، وهى مع ذلك تتردد احيانا فى الاندفاع الى متجهها فهى تدور حول نفسها بما تحمله فى دوامة عنيفة من الهواء والرماد واعراف الشجر ولكن قليلا ما يدوم ترددها ثم هى تمضى سبيلها لا تلوى على شىء ، ريح قل ان تعرفها مصر ، وسارع المطر ينهمر فهو السيل الجارف ينسكب انهارا من السماء فهو انهار فى الارض فياضة تحتفر المجرى فى اصرار والحاح • وكأنما ارادت السماء ان تنير الطريق للانهار الناشئة الصغيرة فالبرق يخطف الابصار ان وجدت ثمة فى العراء ابصار ، فالناس فى بيوتهم يعتصمون من اليوم الراعد والسيول والاعاصير بالجدران الصماء والضلف المغلقة من النوافذ ويستعينون بالمواقد والافران على البرد الزمهرير القارس •

أما الحاج والى واهل بيته فهم فى شأن غير شأن الناس ، فقد كانت صالحة تعانى آلام الرضع تقف الى جانبها قابلة القرية الحاجة زينب أم عوضين ، والحاجة بمبة تعين بكل خبراتها التى تلقتها من المواقف المماثلة مع الصديقات أو قريباتها • بينما انتبذ حسين مكانا قصيا يحاذر ان يعرقل الارجل المتسارعة رواحا وغدوا بين جنبات البيت تنسكب من عينه تلك الدمعة التى لا تفارقها والتى تعود الى الانسكاب كلما ازالها حسين بيده • اما الحاج والى فقد جلس الى الاريكة ممسكا بسبحته يتمتم عليها بذكر الله محاولا ما وسعه الجهد ان يبدو فى هدوء الرجل وان كانت طبيعة الانسان تأبى عليه الهدوء أو القرار •

وخرجت القابلة فطلبت تبنا ، وذهل الحاج والى ولكنه لم يسأل عما يدعوها الى طلب التبن وانما قام وصحب حسين الى المتبن فملأ قفة وعاد هو وحسين يحملان ويحملانها على ملابسهما كميات كبيرة من ماء المطر وفى اقدامهما الواحا كاملة من الطين ، فقد كان لابد لهما أن يخرجا الى العراء ليصلا الى المتبن •

وعاد الحاج والى الى اريكته وحسين الى مكانه القصى ، وعادت المسبحة الى اصابع الحاج والدمعة الى عين حسين •

ولكن آلام صالحة لاتنقطع تتنفسها فى آهات ينشق عنها كيانها كله ، والغرفة ذات الباب المقفل صماء لا تفلت احدا من من داخلها ليخبر الحاج والى ماذا يحدث فى الداخل ، واخيرا انشق الباب عن القابلة وهى تقول :

- لابد من طبيب ياحاج •• انا لا استطيع ان اقوم بولادتها وحدى وقال الحاج والى •

- طبيب •• تقولين طبيب •

وخرجت الحاجة بمبه وهى تصيح :

ـ نعم ياحاج طبيب ام نترك البنيـــة تموت ؟

ـ ومن اين آتى بالطبيب الآن كيف لى به ٠

ـ اطلبه من تليفون العمدة ٠٠ اطلبه يحضر بأية وسيلة وقام الحاج والى يريد أن يخرج وحينئذ تقدم حسين وهو يقول فى صوت واهن حازم :

ـ انا قادم معك يا ابا الحاج ٠ ويقول الحاج فى صوت طيب ولكنه حازم أيضا:

ـ لا ٠٠ ابق انت هنا يا حسين ٠

ويخرج الحاج الى الطريق يشق سبيله فى الرياح العاصفة يكاد لايبصر ما أمامه من شدة الرياح وانسياب الماء حتى يصل آخر الأمر بيت زين العابدين ولا يعرج الى البيت وانما يقصد الى دار سائق العربة محمود ابو عبد الهادى فيطلب اليه ان يجهز العربة ليذهب الى المركز ويوشك محمود ان يقول ان الخيل لاتستطيع المشى فى هذه الانواء العاصفة ولكنه يرى لهفة الرجل ويقدر ايضا ماسيناله من عطاء فيطيع ، ويركب الحاج العربة وتأخـذ سبيلها الى المركز ولكنها على رغم قوة الخيل تمشى بطيئة متمايلة تغرس عجلاتها فى الطين كلما ســارت ٠ وحين عادت العربة بالطبيب كان الفجرقد أوشك أن يرسل نوره وكانت السماء قد اقلعت عن المطر ، وكانت الريح تبدو وكأنما مسها الكبر ولكنها مع ذلك تأبى ان تعترف بالوهن فهى تجر الاشــياء التى كانت تحملها فى صدر النهار بخفة واستهزاء، ولكن البرد كان مايزال شديدا قارسا٠

ودخل الحاج والى والطبيب الى البيت ونادى الحاج والى :

ـ ياحاجة بمبه ٠

وخرجت اليهما الحاجة ٠ وما لبثت ان قالت :

ـ الحقنا يا دكتور ٠٠ تفضل ٠

ودخل الطبيب ودخل معه الحاج والى وكانت صالحة تلقف أنفاسها فى ضعف واصرار وكأنما هى تنتزع الهــواء من الحياة انتزاعا ٠ ومرت بذهن الحاجة بمبة خاطرة عجبت لها فى هذا الموقف الضنك، لقد رفضت ان يراها طبيب رجل وخطبت لزوجها هذه الفتاة لتلد له ، ولكن الله أراد لحكمة لا يعلمها الا هو الا يأتى الولد ـ ان هو جاء ـ الا على يد طبيب رجل وصحت الحاجة من خاطرتها على صوت الطبيب :

ـ اتركونا ارجــوكم ٠٠ لا اريد الا القابلة ٠٠ايصح ياحاجة زينب ان تستعملى التبن كم مرة انهاك عن هذه القذارة ٠٠ أرأيت نتيجة عملك ٠٠ اتركونا ارجوكم٠

وخرج الحاج والى وخرجت من ورائه الحاجة واقتعدا الاريكة ولم يخرج الحاج سبحته وانما راح يسأل الحاجة بمبه فى اشفاق :

ـ هل الحالة خطيرة ياحاجة ؟

ـ ربنا يسلم ياحاج ٠٠ انا لم ار فى حياتى ولادة كهذه ٠

واراد ان يعيد الســؤال فوجد انه سيصبح سخيفا كما وجد انه لن يسمع الجواب الذى يتلمسه فلم يجد مناصا من أن يعود الى مسبحته فهو يخرجها ويأخذ فى اسقاط حباتها الواحدة بعد الاخرى فى محاولة فاشلة للهدوء أو الاطمئنـان وحسين ينظر الى الحاج والحاجة والدمعة فى عينه وشعور بالخطر يملأ جوانحه وان كان لايدرى ما وجه الخطر أو اسبابه ٠

وطال غيـاب الطبيب وطال ، وباب

الحجرة مقفل لايند عنه انسان يعرف منه الحاج ما يجرى داخل الغرفة .

واطل الصباح فى تباشيره الاولى وتهيأ الحاج للصلاة ولكن الصوت الخالد الذى يستقبل به الاطفال الحياة ند عن الغرفة المقفلة ببكاء . وتوقف الحاج باهتا وراح ينظر الى الغرفة ولكن بابها ظل صامتا الا عن البكاء . ولم يطق الحاج صبرا فاندفع الى الباب وفتحه وقبل ان يقتحم الحجرة واجهه الطبيب مرتبكا لايدرى ما يقول وعاجله الحاج والى :

— هيه .. خير يادكتور ؟

وصمت الطبيب وقالت القابلة :

— اصبح لك ولد ياحاج .

وقال الحاج :

— وهى .. صالحة .. كيف هى ؟

واستخذت القابلة حسيرة والقت بنظرها الى الارض وقال الطبيب :

— تعيش انت ياحاج .

وذهل الحاج واقدم الى سرير زوجته ثم احجم وترك الغرفة ثائر النفس ممزق المشاعر بين امل تحقق وروح ازهقت فى سبيل تحقيقه لايدرى ماذا يفعل الا انه دون وعى استقبل القبلة وكبر وانتوى الصلاة ودمعات تموج فى عينيه وقرأ الفاتحة ثم وجد نفسه يتلو الآية الكريمة « بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب . صدق الله العظيم»

- ٧ -

كان لابد لزين العابدين ان يعود الى القرية بعد ان اقام اكثر من شهرين فى القاهرة فصحب زوجته وعادا . وهناك علم بما الم بالشيخ والى من فقد زوجته وانجابه فما استراح من السفر وانما ذهب اليه واستقبله الشيخ فى وجه جامد فيه من الحزن اكثر مما فيه من الراحة ، ولم يكن زين العابدين يدرى ان كان الاجدر به ان يهنىء الشيخ والى على مولوده الجديد ام يعزيه على فقد زوجته ولم تطل به الحيرة فقد اختار آخر الامر ان يجرى الحديث فى مجال آخر بعيد كل البعد عن التهنئة او التعزية وان كان هذان المعنيان يملآن رأسه ويختلطان فى وقت معا بافكاره فهو عاجب كيف يختلط امران متنافران كل التنافر فى وقت واحد بتفكيره ، كيف يأتى عليه حين من الزمن لايدرى ايهما الاجدر بتهنئته أم تعزيته ، كيف تداعب حياة الناس الى هذا الحد فتجعلها خليطا من الفرح والحزن ومزاجا من الهناءة والاسى . ولم تشغله حيرته هذه عن ان يروى على الحاج والى ما شهده فى القاهرة من اثار الثورة والحاج والى يشارك فى الحديث معجبا قد اخذت الانباء عما يعانيه من مشاعر مختلطة ، ولكنه فى اعماقه ما يزال يعانى آلاما حادة مما لقيه فى سبيل تحقيق آماله حتى كاد يستقر

فى نفسه فى يوم ما انه هو المسئول عما عانته زوجته من آلام ولولا الحاجة بمبه وما أخذت تروضه به من حديث لاصابه التلف وعجز عن مواجهة الحياة ليس ينسى كيف احتضنت الوليد وراحت ترعاه رعاية ام ، بل ليس ينسى كيف ابت ان تترك جد حسين وجدته يأخذانه وكيف بعثت الى نفسه الرضى والطمأنينة انه حين يقوم بشأن حسين سيرضى روح هذه التى ضحت بحياتها وهى تهب له اعز امنية تمناها فى حياته وليس ينسى كيف راحت تقول لسيدة أم عسل وزوجها محمدين ان حسينا سيكون لها بمنزلة الابن وهى التى لاولد لها ، ليس ينسى الحاج والى شيئا من هذا وكيف له ان ينسى ؟ انه بهذه اليد الكريمة التى تولته بها الحاجة بمبه استطاع ان يعود الى الحياة ، واستطاع ان ينظر الى طفله الوليد وقد كان يرى فيه جريمة ارتكبها ليس لها من غفران وكان يتصور نفسه ازهق روحا بشرية ليحقق امله هذا • استطاع ويد الحاجة بمبه تمسح نفسه الهالعة ان ينظر الى ابنه محمد وان يحمله ويهدهده بل واستطاع ان يفرح به واستطاع ان يعود الى الناس وان يجلس هذه الجلسة التى يجلسها الى زين العابدين فيسمع منه ويجيب فلا يزهق عن حديث يلقى اليه الا لحظات قلائل ثم يعود الى ماكان فيه من حديث •

والقى زين العابدين حمله فافرغ كل ماكان فى جعبته من حديث وكان لابد للحديث ان ينتهى ، وانتهى وسكت زين العابدين وظل رانيا الى الحاج والى تواجهه فيه حيرته مرة اخرى ايعزيه أم يهنئه • ولم يكن زين العابدين مداورا فالتقى بحيرته فى خط مستقيم •

ـ حاج والى انا حائر فما أقوله لك؟

ـ وانا والله يابك حائر فيما وقع لى

ـ أأعزيك أم اهنئك ؟ •

ـ انا ايضا لا ادرى يازين العابدين بك •

ـ انت تعرف انى حزنت لك وفرحت لك ايضا •

ـ اعرف •

ـ ثم سعدت بما سمعته عن بقاء حسين عندك •

ـ اتتصور ان الحاجة التى الحت فى ابقائه •

ـ الست التى تخطب لزوجها لا يستغرب عليها شىء •

ـ انها ست صالحة يازين العابدين بك •

ـ انها من اعظم نعم ربنا عليك ياحاج

ـ وماذا فعلت مع الدكتور نجيب محفوظ ؟

ـ كل خير •

ـ ماذا ؟ اصحيح ما تقول

ـ والله الى الآن لسنا متأكدين ولكن الغالب ان يكون الله قد جبر خاطرنا •

ـ ان شاء الله ياسعادة البك •• ان شاء الله •

أرأيت •• الم أقل لك قبل سفرك ان احدا لايعلم الغيب الا الله •• ارأيت •• الم اكن محقا •• والآن الا ترى معى ان تضم يدك بعض الشىء••لقد اصبحت مسئولا الآن •

ــ اجعلتني مسئولا من الآن ياحاج والى ، ونحن لم نتأكد بعد ان كان هناك حمل ام لا ؟

ــ يازين العابدين بك انت اكثرت من البَّيع ٠٠ كم فدانا بقيت لك ؟

ــ سبعون ٠

ــ لا اظنها تكفى مصاريفك ٠٠ارجوك كف عن البيع ٠

ــ والله ياحاج والى ان كانت زوجتى حاملا حقا فانني اعاهدك انني لن ابيع بعد ذلك ابدا الا ٠

ــ الا ماذا ياسعادة البك ٠

ــ الا لأسدد الدين ٠

ــ ثمن خمسة افدنة او ستة ٠

ــ انا اسدد الدين واشترى الارض ولا تبع بعد ذلك ٠

ــ هو ما تقول ٠٠ ان حقق الله الآمال فلن يكون الا هذا ٠

ــ على بركة الله ٠

ــ على بركة الله ٠٠ وحســـين هل يذهب الى الكتاب ؟

ــ والله ياسعادة البك انني اخاف ان احسد هذا الولد ، ذكى جـــدا ويحفظ بسرعة وسيدنا يمدحه دائما ٠

ــ انت رجل طيب ياحاج ٠

ــ قالت الحاجة انك ســتعلم ابنك ولا يصح ان يكون اخوه غير متعلم وان جئت للحق يازين العابدين بك انا منذ حادثة الانجليز معى وانا اتمنى ان اعلم ابناء مصر جميعا وقد ارضانى الله فجعل لى بدل الولد ولدين ٠

ــ قواك الله ٠

ــ الا ان حسين لايجعلني اهتم بشىء له ابدا ، انه حريص على الا يشـــغلنى بنفسه ابدا ٠

ــ طبعا شعوره بانك تتفضل عليه ٠

ــ انه يفضى بدخائله للحاجة ، وهى تعامله وكأنها ولدته ٠

وقبل ان يكمل جملته مر حسين بباب الغرفة فاستدعاه الحاج والى :

ــ يا حسين ٠٠ تعال ٠

ودخل الطفـــل الى الحجرة فى ادب هادىء وديع والدمعة ماتزال منسابةمن عينه وامره الحاج والى ان يســـلم على زين العابدين فسلم ثم مسح دمعته بيده وانتظر لحظة فسأله زين العابدين ٠

ــ الى اين بلغت من القرآن ؟

ــ الى اول جزء عم ٠

ــ اجلس واتل علينا شيئا مما تحفظ

ولم يتوان حسين فاتخذ مجلسه على الاريكة وخلع نعليه وفى صـــوت طيب راح يقرأ فى خشوع ٠

البقية فى العدد القادم

ثوب الزفاف

بقلم : زهير طه البيومي

كانت امينه قد جاوزت الثلاثين من عمرها بعدة شهور ، ورغم ذلك فقد ظل ثوب الزفاف اهم ما يشغل بالها .. فكانت تقتطع كل شهر جنيها من راتبها وتدخره لشراء ثوب الزفاف الذى سترتديه حين تجلس الى جوار (سمعه) .. تماما كما كانت تفعل طوال خمسة عشر عاما قضتها فى خدمتنا .. وكذلك قضتها فى انتظار حبيبها(سمعه) حتى يعود من القاهرة بعد ان يكون قد وفق الى عمل هنك يساعده على حمل اعباء بيت الزوجية الذى سيجمعهما، وطال انتظارها ، ولكنها كانت تقول لنفسها دائما .. انها لابد ستزف اليه يوما ما ، مهما كان هذا اليوم بعيدا .

واخيرا وصل خطاب باسم امينه ذيل بامضاء تعرفه جيدا رغم انها لا تعرف القراءة .. تعرفه بالشكل .. بطريقة رسم حروفه التى تبدوحلوة فى ناظريها رغم ما يتصف به الخط من رداءة ، انه خط الاسطى (سمعه) ، ولكن فرحتها ودهشتها جعلتاها لاتصدق فاخذت تمر على افراد البيت فردا فردا وتطلب الى كل واحد منهم ان يقراه عليها كلمة .. كلمة ، ولكنها لم تصدق ما ورد فى الخطاب .. لم تصدق ان الاسطى (سمعه) قد وفق اخيرا فى الحصول على وظيفة تضمن لهما العيش الكريم ولم تصدق انه سيأتى فى نهاية الاسبوع كى تزف اليه ، وتمادت فى عدم تصديقها هذا حتى انها اخذت الخطاب الى اخته الصغيرة التى كانت لا تزال فى المرحلة الابتدائية والتى كانت لا تكاد تتقن القراءة ، ولعل ذاك قد جعل امينه تصدق ما ورد فى الخطاب .

شمل البيت سعادة غامرة ، وخاصة امى التى كانت تعلم ما كان يدور فى ذهن امينة ، تعلم انها كانت تخشى ان يفوتها قطار الزواج بعد ان وصل بها العمر الى هذه السن ، وبعد أن كادت تفقد الامل فى الزواج من (سمعه) ؛ ولكن طول العمر يبلغ الامل .. هكذا كانت تقول امى دائما لامينة التى صبرت ونالت، ويعلم الله انها قد صبرت كثيرا .

كان على امينة ان تستعد لشراء ثوب الزفاف بعد ان اخبرها (سمعه) فى خطابه انه سيحضر بعد ثلاثة ايام ، وبدات تستعد بعد ان حصات على راتبها الشهرى بالاضافة الى بضعة جنيهات اهدتها امى اياها كى تساعدها على بدء حياتها الجديدة .

اخذت امينة ترتدى ثوبها الذى كانت تدخره لاوقات الخروج ثم اطلت من

النافذة وجدت أن المطر لا يزال ينهمر بغزارة فارتدت المعطف القديم الذى اهدتها امى اياه فى الشتاء الماضي ، والذى بدا واسعا عليها اذ كانت نحيلة القوام ، وهبطت السلم حاملة معها كل ما ادخرت من نقود ، وسارت الى خارج المنزل وهى تحدث نفسها وتناجى خيال حبيبها .. ساخصص الجزء الاكبر من نقودى لشراء الثوب الذى سأرتديه حين اجلس الى جوارك .. والذى سأرتديه حين نخرج معا الى الحدائق العامة فى الاعياد وفى عطلتنا الاسبوعية كان هذا كل ما يشغل بالها طوال سيرها فى الطريق الى محل الثياب ، وكان لا يقطع عليها هذه الخواطر الجميلة الا مقابلتها لاحدى الصديقات ممن سبقتها الى جنة رضوان وتبادرها باخراج الخطاب الذى أرسله (سمعه) والذى ضمته هو وحافظة نقودها الى صدرها ، ثم تسالها ان تقرأ ما فيه، وتعود تسالها فى غبطه مسؤالا ليست فى حاجة الى جواب عليه : « خلاص حانتجوز .. مش كده » .. فترد عليها صديقتها بالكلمة التى يحمر لها جبينها، تماما كابنة السابعة عشرة ولكن امينة لا تلبث ان تسمع هذه الكلمة حتى تستأذنها بعد أن تخبرها انها ذاهبة لشراء ثوب الزفاف..وانها قد خصصت الجزء الاكبر مما ادخرته من نقود لشراء ثوب الزفاف .

ظلت امينة هكذا تطوف شوارع المدينة .. تبحث بين الناس عن وجوه تعرفها كى تعيد قصتها عليهم .. ،حتى انها تخطىء فتعيد قصتها على اناس سمعوها منها منذ قليل ، وبقيت على هذه الحال حتى اعياها المسير فجلست على احد المقاعد المصفوفة على شاطىء النيل ، واخذت تتأمل صفحة الماء الصافية التى تحولت الى اطار يضم صورتها وهى جالسة الى جوار (سمعه) فى ثوب الزفاف الجميل ، وتروح تتخيل (سمعه) وهو يتأمل الثوب الثمين فى دهشة .. وتفكر فى (سمعه) وحبه الذى اكتسب طبيعة حلوة ، حبه الذى لم تغيره الايام والاعوام وانما زادته قوة ، كل ذلك جعلها تقول انه كان من الممكن ان تنتظر سنين وسنين ، وان تصبر وان تكبر مع الزمن ويكبر حبها « لسمعه» ، وتكبر معه قيمة ثوب الزفاف .

ولكن امينة تنبهت ان الوقت قد ازف بعد ان رأت الشمس وقد آذنت بالغروب فنهضت من مكانها على الفور وقطعت الشارع الى الرصيف الآخر فى سرعة ، وظلت تسير حتى وصلت الى شارع السكة الجديدة ، واخذت تتأمل الاثواب الجاهزة فى « الفترينه » وتستفسر عن اسعارها ، حتى وصلت الى محل اعجبتها اسعاره ، فدلفت الى الداخل وهى تلم اطراف معطفها ذى الاكمام الواسعة ، واشترت بعض الملابس الداخلية ، ثم اخذت تتجول بين اقسام المحل المختلفة حتى قادتها قدماها الى قسم لوازم العروس ، فاخذت تجيل نظرها بين الثياب المختلفة فى غاية الاطمئنان ، فقد خصصت لثوب الزفاف وحده عشرة جنيهات ، واخذت تمعن النظر فى كل ثوب على حدة بينما كانت تنتقل فى جنبات القسم فى سرور بالغ تتبعها عن كثب الفتاة المشرفة على القسم التى كانت فى الثامنة عشرة تقريبا ، والتى كانت تلاحق امينة فى كل مكان تنتقل اليه وتشيعها بنظرات وقحة كانما كانت

تستكثر عليها ان تدخل الى هذا المحل الذى لا يدخله غير علية الناس ، ولكن امينة تغلبت على الضيق الذى حل بها من نظرات الفتاة وقالت :

ــ أريد ثوبا فى حدود عشرة جنيهات .

وتناولت العاملة بشكل آلى ثوبين : احدهما ابيض مطرز فوق الصدر والياقه ، والثانى احمر ، وقالت :

ــ يمكنك ان تختارى واحدا .

وغضبت امينة اذ انها لم تكن تتوقع ان يساوى احد هذين الثوبين جملة ماتتقاضاه عن كدها طوال اربعة اشهر كاملة ، انها لم تدفع من قبل مثل هذا المبلغ ثمنا لثوب واحد ، ولكنها ستدفع اذا كان الثوب الذى يساوى هذا المبلغ سيرضي شعور الخيلاء الكامن فى نفسها ، انها تريد ثوبا لم يوجد من قبل .. ثوبا جميلا يبهر « سمعه » ويجعله يفغر فاه من الدهشة .. تريد ثوبا يجعلها اجمل من تلك الحوريات التى كانت تسمع عنها فى « الحواديت » التى كانت تقصها عليها امها وهى صغيرة ، كان ذلك كل ما يهمها فاتجهت بقولها للبائعة :

ــ لا ... اريد ثوبا مخصوصا ..

فاجابت البائعة فى تهكم ظاهر :

ــ تحبى « الموديل » الفرنسي مثلا ؟ هناك على الرف الكبير ..

اخذت امينة تجيل نظرها بين الاثواب المختلفة الالوان ، بينما انشغلت عنها البائعة بالعملاء الاخرين بعد ان ايقنت تماما ان امينة من النسوة اللائى يعشقن استعراض البضائع والمساومة فى اثمانها ، ثم الانصراف .. هكذا اخذت البائعة تظن بامينة بينما كانت امينة تدير نظرها بين الاثواب المختلفة وتتخيل نفسها فى كل واحد منها على حدة ، حتى علق نظرها بثوب كتب عليه .. « الثمن خمسة وثلاثون جنيها » ، اخذت تحملق فيه ذاهلة وهى تهمس بينها وبين نفسها « العين بصيرة .. واليد قصيرة » ، ولكنها سرعان ماطالت يدها حتى لامست الثوب ثم ارتدت الى مكانها فى سرعة كانما قد اصابها مس كهربى ، ولكنها سرعان ما تناست الشعور بالجرم الذى خلفه ملمس هذا الثوب فى اطراف اصابعها ، واخذت تتخيل نفسها فى هذا الثوب الرائع جالسة الى جوار (سمعه) ، تشيعها نظرات الحسد من الفتيات والنسوة ، بينما تتبعها نظرات الرجال الجائعة محملقة فى ذراعيها وصدرها الناصع البياض الذى يكشف عنه هذا الثوب ولكنها تعود فتعدل عن التفكير فى هذا الثوب حين تلوح لها صورة (سمعه) وقد تجهم وجهه غضبا وغيرة عليها من نظرات الرجال وخاصة انه رجل من الذين لايحبون ان تتبرج نساؤهم ، ولكنها تعود فتتهم نفسها بتلمس الأعذار لانها لا تستطيع ان تدفع ثمن الثوب ، وان هذا الثوب ليس به ما يعيب ، وتمتد يدها الى الثوب مرة اخرى ، وتتناوله فى تؤدة كانها تتأمله ، ثم تضعه فى حقيبتها التى احضرتها لكى تحمل ما تشتريه من حاجيات ، بينما تستمر فى استعراض الاثواب كانها لاتزال حائرة فى انتقاء الثوب الذى تريد ، بينما تزداد دقات قلبها وترتفع حتى تكاد ان تصل الى آذان الموجودين فتاخذ الخواطر فى التدافع الى راسها ..

« ماذا يحدث لو اكتشفت البائعة انها سرقت الثوب وسلمتها الى الشرطة « اخذت تتخيل نفسها فى (الزنزانة) الى جوار (نظاله) بائعة المخدرات وغيرها من المجرمين واللصوص وبائعات الهوى ، وتتصور صديقاتها وقد تجاهلنها ، و (سمعه) وقد تخلى عنها وهجرها ، ومخدومها وافراد اسرتها وقد تخلوا عنها ايضا ، وهكذا بدت ابواب الحياة وقد اوصدت دونها تماما، حتى « سمعه » الذى انتظرته طويلا ، والذى مافكرت فى سرقة الثوب الا لتبدو فى عينيه اجمل النساء ، تخلى عنها ايضا ، وتتباعد المسافة بينها وبينه كلما تمادت فى تفكيرها وخواطرها الشريرة ، وتلوح لها صورة المحاكمة ، وصورة الحاجب وهو يصيح بصوته الذى تهتز له اركان القاعة « محكمة » ثم ينادى عليها ليس باسمها مجردا ، وانما مسبوقا بكلمة المتهمه ، ولاحت لها صورة القاضي وهو يعلن الحكم عليها بالسجن ، والحارس وهو يسوقها امامه موثوقة اليدين بينما يشيعها « سمعه » ككل الناس بنظرات الاحتقار والسخرية .

كل هذه صور اهتز لها كيانها ، وجعلها تتلفت يمنة ويسرة . وتحاول أن تخرج الثوب من الحقيبة كى تعيده الى مكانه ، ولكن العاملة الصغيرة عادت لترقبها فى قلق وكأنما قد احست ان فى الامر شيئا ، فاتجهت نحوها فى سرعة تستفسرها عما انتهت اليه من رأى ، فاشارت امينه الى رف بعيد عليه ثوب ابيض تواضع ، ارتسمت عليه صورة « سمعه » وهو يبتسم لها وقالت :

ـ اريد هذا الثوب .

ولكن العاملة اشارت الى زميلة لها وقالت لامينه :

ـ هذه هى العامله المختصة بهذا القسم ، حيث ثوبك المفضل . وهرعت امينه على الفور نحو العاملة الاخرى ، واخذت تساومها على ذاك الثوب البسيط ، ورغم أن ثمنه كان معتدلا الا انها كانت تعرف انه لا يمكن ان تشتريه، اذ انها لاتستطيع أن تفتح الحقيبة لتخرج النقود حتى لاينكشف امرها ، وتسقط فى نظر « سمعه » الذى طالما انتظرها وارادها نظيفة طاهرة الاذيال، وبعد ان ادركت انها تمادت كثيرا فى مساومة العاملة شكرتها وانصرفت خارجة ، ولكن العامله لحقت بها حاملة اليها الحقيبة التى نسيتها او تناستها لتتخلص من ذلك المأزق ، ولكن امينه التى احست وكأن العاملة جاءت لتلصق بها جريمة ، التفتت نحو العاملة وقالت بينما كانت الكلمات تتعثر على لسانها

ـ شكرا ... ليست حقيبتى ... لعل سيدة اخرى قد نسيتها .

وانصرفت امينه الى خارج المحل ، وعند الباب وقفت لتتنفس الصعداء ، وكأنما قد تخلصت من حبل كاد يخنقها، ونظرت الى ثوبها البالى فى حسرة ، ثم سارت مسرعة فى طريقها شاردة العينين ، تنظر الى الغد القريب فى امل وتتخيل نفسها وقد زفت الى « سمعه » فى اجمل اثوابها .

من الأدب الأسباني

النبوءة

قصة

بقلم : بدرو انتونيو دى الاركون

ترجمة : كامل عبد المجيد

بدرو آنتونيو كاتب من أصل اسباني ولد في (جوديكس) بمقاطعة غرناطة.. وقد نال شهرة مبكرة ككاتب روائي ،وتعد روايته «القبعة ذات الاركان الثلاثة» من أحسن أعماله المعروفة .

وينتمي بدرو الى جيل كتاب الرواية العظام في اسبانيا في القرن التاسع عشر ، كما ألف أيضا عددا كبيرا من المجموعات القصصية تتضمن قصصه القصيرة .

وأقصوصة (النبوءة) التي نقدمها لكم في هذا العدد هي احدى قصصه القصيرة التي صدرت ضمن احدى مجموعاته القصصية تحت عنوان «قصص قومية» والتي صدرت في مدريد عام ١٨٨١ .

لا أذكر بالضبط في أي يوم من أيام أغسطس عام ١٨١٦ ، أن أتى أحد « النور» ويدعى (هيراديا) الى باب القائد العام لمملكة غرناطة ، كان في السبعين من عمره ، يرتدى ملابس قذرة مهلهلة ويعمل في جز فرو الخراف ، وقد قدم الى باب القائد العام تتدلى قدماه من فوق حمار أسود هزيل ، لاتزيد كسوة هذا الحمار عن حبل يلتف حول عنقه .. وبعد أن هبط عن حماره قال الرجل مباشرة :

- أريد لقاء القائد العام .

ولسنا في حاجة لأن نذكر أن مثل هذه الجرأة قد أثارت رفض الديدبان القاطع ، وضحك بعض الضباط وكذلك أثارت شك وتردد معاونيهم ، وكان ذلك - بالطبع - قبل أن يعلم صاحب السعادة الدون (يوجينو بورتو كاريرو) قائد عام مملكة غرناطة القديمة وقتئذ ، بحضور هذا الرجل .

ولما كان هذا القائد العظيم رجلا ذا طبيعة عطوفة ، ويعرف هيراديا من قبل الذى كان بدوره مشهورا بخدعه ومساوماته وطمعه في بضائع جيرانه ، فقد أعطى الامر بالسماح له بالدخول ،

وحين وجد هيراديا نفسه داخل مكتب

القائد ركع على ركبتيه وقال :

فليبارك الله مارى ، أعظم القديسات وليمتعك الله بالعمر الطويل يا حاكم هذا العالم الصغير .

ــ انهض يا رجـل ، وهات ماتريد أن تقوله :

أجاب الكونت بقسـوة بادية عندئذ اتخذ هيراديا مظهرا جادا وقال : حسنا ياصاحب السعادة لقد أتيت من أجـل الألف ريال التى تخصنى .

ــ ماهذه الألف ريال التى تتحـدث عنها .

ــ تلك التى قدمها الاعلان ــ منذ أيام قلائل ــ الى أى شخص يأتى بمعلـومات عن بارون .

ــ حقا .. انت تعرفه اذن ؟

ــ نعم ياسيدى .

ــ جيدا .

ــ اعرفه الآن .

ــ كيف ؟

ــ بمنتهى البساطة ، تعقبته ورأيته وأنا الآنآتى بالمعلومات وأطالب بالجائزة

ــ هل انت واثق من أنك رأيته .. ؟ ساله القائد والاهتمام يغالب الشك الذى انبعث فى نفسه :

فانفجر النورى بالضحك وقال :

ــ من الواضح جدا أن سموك تقول هذا غجرى آخريحاول خداعى .. ولكن لا .. لايسامحنى الله أبـدا اذا كنت أكذب .. لقد رأيت بارون بالامس .

ــ ولكن هل تعلم مدى أهمية ماتقول هل تعرف أننا حاولنا اقتناص هـذا الوحش منذ عدة سنوات ، هذا الخارج على القانون الذى لايعرفه أحد ، ولم يره شخص قط ؟ هل تعلم انه يسـطو ــ كل يوم ــ على عابرى السبيل فى بقاع مختلفة من الجبال ، ثم يطلق عليهم النار لأنه ــ كما يقول ــ الاموات لا يحكون قصصا ، وبهذه الوسيلة فقط استطاع أن يفلت من قبضة العدالة .. وأخيرا هل تعلم أن معنى رؤية بارون هـو الموت ؟ .

فضحك النورى مـرة أخرى وقال .

الا تعلم سعادتك أن ما يستطيع الغجرى أن يفعله لايستطيع أى شخص آخر فى العالم أن يأتى به ؟ هل يستطيع أحـد معرفة متى يكون ضحكنا او بكاؤنا حقيقيا وصادقا ؟ هل تعرف سعادتك تعلبا فى مثل مكر النورى ، أقول ثانية ياجنرال أنا لم أر بارون فقط ، بل وتحدثت معه أيضا .

ــ أين ؟

ــ فى الطريق الى توزار

ــ والدليل ؟

ــ اسمع ياصاحب السعـادة ، ذات صباح منذ أسبوع مضى ، وقعت وحمارى بين قبضة بعض اللصوص ، فربطونى باحكام وقادونى خـلال متاهات حتى وصلنا الى منطقة مفتـوحة حيث كان يعسكر اللصوص ، عندئذ استولى على شك رهيب وساءلت نفسى : هل يمكن أن يكون هؤلاء الناس قوم بارون ؟ اذا كان الامر كذلك ، فلا أمل هنـالك لأن هذا الشيطان قدر ألا ترى العيون التى تشاهد وجهه شخصا آخر .

ووسط هذه الافكار اقترب منى رجل يرتدى ملابس غريبة ولكنها أنيقـة ، ضربنى على كتفى وقال :

ــ أنا بارون ياصديقى ؟ سيان لدى أن تسمع هذا وتسقط على الارض أم لا

وانفجر اللص بالضـحك . فوقفت مرتعدا ثم سقطت على ركبتى وصرخت

بكل نغمات صوتي التي كان في استطاعتي التحكم فيها .

«فليبارك الله روحك ياملك الرجال .. من ذا الذي لايعرفك من خلال مظهرك الملكي الذي منحه الله اياك ، لا أظن أن هناك أمهات أخرى يحملن أبناء مثلك ، دعني أقبلك يابني .. فليمت هذا النوري في عذابه اذا لم يكن يتوق للقائك ليتنبأ لك بحظك ويقبل يدك العظيمة .. اعتبرني في خدمتك ، هل تريد أن تعرف كيف تتاجر بالحمير الميتة مقابل غيرها من الاحياء ؟ هل تريد أن تبيع أحصنتك بثمن يعادل أحصنة صغيرة السن ؟ هل تريد أن تعلم بغلا اللغة الفرنسية ؟ » .

لم يستطع الكونت مونتيجو أن يكتم ضحكه ثم سأل :

ـ وماذا قال بارون ردا على كل ذلك ماذا فعل ؟

ـ تماما كما فعلت سعادتك ، ضحك بكل ما كان يملك من قوة .

ـ وانت .

ـ وانا أيضا ضحكت ياسيدي، بينما نزلت على خدي دموع في حجم ثمار البرتقال .

ـ استمر .

ـ وسرعان مامد بارون يده الى ثم قال : أنت ياصديقي أمهر من وقع بين يدي ، فالآخرين كلهم كان ذوقهم رديئا فضايقوني بالبكاء والعويل وما شابه ذلك من الهراء ، مما كان سببا في تعكير مزاجي .. فأنت الوحيد الذي استطاع اضحاكي ، ولولا هذه الدموع ...

ـ ماذا ياسيدي الطيب ؟ انها دموع الفرح .

ـ اني أصدقها ، فالشيطان وحده يعلم انها المرة الاولى التي أضحك فيها بعد ست أو سبع سنوات ، والحقيقة اني أيضا لم أبك .. ولكن فلنستمر ، مارأيكم أيها الأولاد ؟

حدث هذا بأسرع من طرفة العين لكي يقول بارون هذا فأجد نفسي محاطا بدائرة من البنادق .

ـ سيدي ، كن رحيما بي ، وبدأت في التأوه .

ـ «ارفعوا أيديكم عنه» ، صاح بارون: لسنا على استعداد لذلك بعد ، لقد استدعيتكم لتبحثوا عما أخذتموه من هذا الرجل .

ـ حمار ولا شيء سوى ذلك .

ـ أي نقود ؟

ـ ثلاث دوروس وسبعين ريالا .

ـ والآن دعونا وحدنا ، فانسحبوا جميعا .

« والآن أخبرني عن حظي » قال اللص ذلك مادا يده الى ، فامسكت بها وفكرت لحظة ، كنت أعلم أني لم أكن في وضع يسمح لي بحرية الكلام ، ولذلك قلت له بكل الاقناع الموجود في قلبي :

ـ بارون ـ ان عاجلا أو آجلا ـ فستموت على المشنقة .

أجاب المجرم بهدوء تام :

ـ أعرف ذلك مقدما .

ـ قل لي متى ؟

وبدأت أفكر ، هذا الرجل ـ قلت لنفسي ـ سيطلق سراحي وغدا سأكون في غرناطة أدل على مكانه ، وفي اليوم التالي سيقبضون عليه ثم تبدأ المحاكمة ثم قلت بصوت مرتفع ، أنت تسألني متى ؟ اعلم جيدا أن ذلك سيكون خلال الشهر المقبل .

فهز بارون كتفيه ـ وكذلك فعلت ـ خشية أن يكون تنبئى هو سبب موتى ٠

ـ اسمع أيها النورى : (أجاب بارون فى تؤدة) ستظل تحت سلطانى ، واذا لم أشنق فى نهاية الشهر القادم سأشنقك ، تماما كما شنقوا والدى ٠٠ أما اذا مت فى هذا الوقت فستذهب حرا

قلت فى نفسى :

ـ حسنا فعل ، أن يصفح عنى بعد موته ٠

وندمت لانى جعلت الفترة قصيرة جدا ٠

مكثنا فى المعسكر المذكور ، فوضعونى فى كهف كانوا يستعملونه كزنزانة ، بينما امتطى بارون فرسه وذهب الى الغابات ٠

فقال الكونت :

ـ حسنا ، فهمت ٠٠ بارون ميت ، وانت طليق ، ولذلك فأنت تعرف مكانه ٠

ـ على العكس ياجنرال ، ان بارون على قيد الحياة ، والآن يأتى أسوأ جزء فى قصتى ٠

مر اسبوع ولم يأت الكابتن لرؤيتنا وعلى قدر ما استطعت الفهم والادراك ، لم يظهر بارون نفسه منذ الأمسية التى تنبأت له فيها بنهايته، وهذا شىء لايعتبر غير طبيعى بالمرة ـ كما أخبرنى حراسى ـ لانهم ، كما تعلم ، أخبرونى بأن رئيسهم يذهب الى الجحيم فى بعض الاحيان ولا يعود الا فى الوقت الذى يحلو له ٠٠ والحقيقة اننا لانعرف عنه شيئا خلال هذه الغيبات أو الاختفاءات ٠

وحول هذا الوقت ، بقوة الضراعة ، وبتأثير نبوءاتى لرجال العصابة بالتحرز من المشنقة والسن المتقدم المريع للجميع نجحت فى اقناعهم بأن يأخذونى الى خارج الكهف فى المساء ، ويربطونى الى شجرة ، لان الحرارة تصيبنى بالاختناق داخل الزنزانة ، ولست فى حاجة الى القول بأنه كان هناك ـ باستمرار ـ حارسان يلازماننى ٠

وذات مساء ، حوالى السادسة مساء ، عاد اللصوص العاملون الى المعسكر ومعهم مزارع بائس ، يبلغ الاربعين أو الخمسين من العمر ، موثق اليدين ، ويبكى بكاء يقطع القلوب وهو يقول : أعيدوا الى العشرين دوروس ٠٠ آه لو تعلمون كم يكلفنى الحصول عليها ، كد صيف بأكمله فى الشمس ٠٠ صيف بحاله بعيدا عن زوجتى وأولادى ، لقد انتزعت هذا المبلغ بعرقى وجهدى وانكارى لذاتى لكى نستطيع الحياة فى الشتاء ، فحين أعود الى المنزل احتضن أولادى وأمهم ، وادفع عنهم الديون التى تكون هذه المخلوقات قد تكبدتها لكى تعيش ٠٠ هل من الحق أن افقد هذه النقود ٠٠ التى تعد ثروة بالنسبة لى ٠ الشفقة ايها السادة أعيدوا الى العشرين دوروس من أجل أقدس صيدات الامس ٠

أجابت توسلات الرجل العجوز ضحكة ساخرة أطلقها اللصوص ، فارتعدت فرائصى من الرعب ، وانا مربوط الى الشجرة ، أتعذب فى صمت ، فللنور أيضا عائلات ٠

ـ « لا تكن أحمق » ٠

قالها أحد رجال العصابة وهو يتقدم نحو المزارع (انك ترتكب خطأ جسيما بتفكيرك فى النقود حينما يجب أن تشغل عقلك أمور أكثر أهمية» ٠

ماذا ؟ أجاب المزارع عاجزا عن التفكير

نى مصيبته أكبر من كارثة أطفال دون خبز ٠

ـ انك فى أيدى بارون ٠

ـ بارون ؟ لاأعرفه ـ لم أسمع عنه فى حياتى ، لقد جئت من مكان بعيد جدا أنا من اليكانتى ، أجمع الأعشاب وأزرع الارض فى سيفيل ٠

ـ ولكن ياصديقى ان بارون معناه الموت ، فكل من يقع بين أيدينا يجب أن يموت ، ولذلك فعليك أن تكتب وصيتك فى خلال دقيقتين وان تتصالح مع ربك فى دقيقتين ثانيتين ، استعد ، فلديك أربع دقائق فقط ٠

ـ سأحسن استعمالها ، انصتوا الى شفقة بى ٠

ـ تكلم ٠

ـ ان لى من الاطفال ستة وارملة بائسة ، سأقول ، طالما انى يجب أن أموت ، لانى أقرأ فى عيونكم انكم أسوأ من الحيوانات الضارية ، نعم أسوأ ، فالحيوانات لايقتل أحدها آخر من بنى جنسه ـ أوه ـ سامحونى فأنا لا أدرى ما أقول ، أيها السادة لابد أن يكون أحدكم والدا ٠٠ ألا يوجد بينكم أب ، هل تعرفون معنى أن يكون لديكم أطفال يموتون جوعا طوال الشتاء ؟ هل تعرفون معنى أن ترى أم أطفال دمها يموتون صارخين (نحن جوعى ٠٠ البرد يقتلنا) أيها السادة ، لاأريد أن أحيا دونهم ٠٠ فالحياة من غيرهم لاتساوى شيئا ٠٠ سلسلة متصلة من العمل الشاق والحرمان ٠٠ ولكن ٠٠ يجب أن أعيش من أجل أطفالى ، أوه ، أطفالى ٠٠ أبناء قلبى ٠

وانتزع الوالد نفسه من على الارض ملتفتا وجهه ناحية اللصوص ـ وبدا وجهه كوجه أحد القديسين الذين كان يلقى بهم نيرون الطاغية الى النمور ـ كما يقول القساوسة ـ وشعر اللصوص بشىء يتحرك فى صدورهم ، ثم نظر كل منهم للآخر ، وحينما وجدوا أنهم جميعا عند نفس الرأى ، ولديهم نفس الاحساس تجرأ أحدهم فقال :

ـ ماذا قال ؟ سأل القائد العام متأثرا الى حد كبير بالقصة ، فواصل النورى حكايته قائلا :

قال أحد اللصوص :

ـ أيها الرفاق ٠٠ مانحن بصدد فعله لايجب أن يعرفه بارون ٠

ـ «أبدا ٠٠ أبدا ٠٠» تمتم بقية افراد العصابة :

ـ (اذهب فى طريقك أيها الرجل الطيب) ، قالها لص آخر وهو يكاد ينفجر بالبكاء ، فاشرت للمزارع بطرف خفى أن عليه أن يذهب فى الحال ٠ « أسرع » « تقدم » ٠

صاحوا كلهم فى نفس واحد : ٠٠ ثم أداروا له ظهورهم ٠

فمد المزارع يده لهم فى ضراعة ٠٠ وزمجر : أحدهم ٠٠ أحدهم ٠٠ ألا يكفيك هذا ٠٠ لقد أبقينا عليك حياتك هل تريد أيضا نقودك ؟

ـ اذهب ! اذهب ! لاتحاول أن تفقدنا صبرنا ٠

فذهب الوالد المسكين باكيا وسرعان ما اختفى عن الانظار ، ولكن بعد نصف ساعة قضاها اللصوص يقسم كل منهم

للآخر ألا يخبروا الكابتن بأنهم قد أطلقوا سراح رجل ، ظهر بارون فجـأة يقود المزارع بجانب فرسه ، فتراجع أفراد العصابة في دهشة ، ونزل بارون ببطء من على ظهر مطيته وحل وثاق غدارته وصوبها نحو زملائه قائلا :

أيها الحمقى ٠٠أيها الاغبياء ، لاأدرى لماذا لاأطلق النار على كل واحد منكم ، اعيدوا بسرعة الى هذا الرجل العشرين دوروس التى أخـذتموها ، فاخـرج اللصوص المال وأعطوه للمزارع ، الذى ألقى بنفسه عند قدمى رئيس العصابة طيب القلب ، فقال بارون :

ـ فليمنحك الله السـلام ، بدون ارشاداتك ماكنت أعرف مكانهم أبدا٠٠ والآن ترى أنك وضعت ثقتك فى محلها فقد حققت لك وعـدى وحصلت على العشرين دوروس ٠٠ والآن عليك ان تبتعد عن هنا ٠

فقبـل المـزارع أقدام بارون مرات ومرات ، ورحل يملؤه السرور والغبطة ، ولكنه لم يكد يبعد خمسين خطوه حتى استدعاه المحسن اليه فاسرع المسـكين بالعودة وساله « بماذا تأمر ؟ » قالها متحمسا لأداء خدمة لمن أعاد السعادة الى عائلته ، فســأله المحسن « هل تعرف بارون ؟ » ٠

ـ « لا أعرفه » ٠

ـ « انت مخطىء » « فانا هو » ٠

وقف المزارع صـامتا فى غبـاء ، فتناول بارون غدراته وصوبها نحـو جبهته وأطلق عليـه النـار ، فسـقط المزارع يتدحرج على الأرض ويقـول : «فليلعنك الله» وكانت هذه هى الكلمات الوحيـدة التى فاه بها ، ومن خـلال الرعب الذى أعمانى ، شعرت بالشجرة التى كنت قد ربطت اليها تهتز ببطء ، فعلمت أن وثاقى لم يكن محكما ، فقد انطلقت احدى شـظايا الرصاصات بعد أن جرحت المزارع وأصابت الحبل الذى كان يشـدنى الى الشـجرة وقطعته ، ولكنى أخفيت هــذه الحقيقة ٠٠ انى أصبحت طليقا ٠٠ وانتظرت الفرصـة لكى أهرب ، وفى هـذه الأثنـاء قال بارون لرجاله مشيرا الى المزارع ٠

« والآن تسـتطيعون سرقته أيهـا الأغبيـاء الحمقى ، تطلقون سراح هـذا الرجل ليفعل ما فعل ٠٠ يعوى ويصرخ طوال الطريق ٠٠ ولحسن الحظ كنت أنا أول من يقابله ، وعلمت منه بما حدث ، ولو صادف وتقابل مع الجنود ، فلا بد وأنه كان سيدلهم على هذا المعسكر ، تماما كما فعل معى ولكنا الآن جميعا فى السجن ٠٠ انظرو نتيجة السرقة دون قتل ، والآن كفانى خطابة ، ادفنوا هذا الجسد قبل أن يتعفن ويتحلل » ٠

وبينما كان اللصوص يحفرون القبر ، اخذ بارون يتناول طعامه موليا ظهره لى ، فبـدأت أتحـرك بالتـدريج بعيـدا عن الشجرة ، وانزلقت الى حفرة قريبة ، ولما [illegible] الوقت ليـلا تقريبـا ، وتحت ستار الظلام بدأت رحلتى بكل سرعة ، واستطعت الاستدلال على مكان حمارى بواسطة ضوء النجوم ، فوجدته مربوطا فى شجرة ياكل فى هدوء ، فامتطيته ولم أتوقف ابداحتى وصلت الى هنـا ٠ ولذلك يا صـاحب السـعادة اعطنى الألف ريال وسـأدلك على الأثر الذى يقود الى مخبـأ بارون ، وعلى فكرة ،

لقد احتفظ لنفسه بما كنت أملك ... ثلاثة ونصف دوروس » .

وبعد أن أعطى النورى وصفا لرئيس العصابة ، تلقى الجائزة الموعودة ورحل عن مكتب الجنرال ، تاركا للكونت وشخصا آخر كان حاضرا ـ وهو الذى حصلت منه على تفاصيل هذه القصة ـ فى حيرة بالغة .

يتبقى لنا بعد ذلك أن نعرف حقيقة تنبؤات هيراديا بشأن مصير بارون .

بعد خمسة عشر يوما من المشهد الذى وصفناه ، وفى حوالى التاسعة صباحا ، شهد حشد من المتسكعين فى الشوارع مجموعتين من الجنود تتجمعان فى شارعى سان جوان دى ديوس وشارع سان فيليبى فى المدينة وبعد حوالى نصف ساعة بدأ الجنود رحلتهم للبحث عن بارون ، بعد أن أذاع الكونت مونتيجو أوصاف مخبئه وشخصه ورفاقه . وكان اهتمام الجمهور وحماسه بالغين ولم يقل عنه حماسة وحرصا التعقل الذى أبداه الجنود حين ودعوا عائلاتهم وأصدقاءهم قبل بدئهم هذه الرحلة الممعنة فى الأهمية ... وهكذا أثار بارون هذا الخوف الكبير فى مملكة غرناطة القديمة .

ـ « يبدو أننا على أهبة التحرك » قالها جندى لزميله « ولكنى لا ألاحظ وجود الكوربورال لوبيز » .

ـ « هذا غريب لأن لوبيز يكون دائما فى المقدمة اذا كان هناك حديث عن اقتناص بارون ، فلوبيز يكره بارون من كل قلبه » .

ـ « الا تعرف ما حدث ؟ » تدخل جندى ثالث فى الحديث .

ـ « هالو ! هذا هو رجلنا الجديد ! ما رأيت فى جماعتنا هذه ؟ » .

ـ « فى الحقيقة لا بأس بها » أجاب الجندى الذى وجه اليه هذا السؤال .

كان ذو ملامح شاحبة وقوام جميل وان كان يختفى جزئيا فى زيه الرسمى .

ـ « ماذا كنت تقول ؟ » سأل الجندى الأول .

ـ « آه ، نعم ، كوربورال لوبيز مات » أجاب الرجل ذو الوجه الشاحب .

ـ « مانويل ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ لايمكن أبدا ؟ لقد رأيت لوبيز هذا الصباح بعينى رأسى تماما كما أراك الآن » .

فقال الجندى المدعو مانويل ببرود :

« قتله بارون منذ نصف ساعة » .

بارون ؟ أين .

ـ هنا فى غرناطة ، وجدوا جثته على تل دوج ، فلزم الجميع الصمت ما عدا مانويل الذى بدأ يصفر لحنا وطنيا .

ـ لقد فقدنا أحد عشر جنديا فى ستة أيام : قال السرجنت :

ـ ان بارون يقصد أن يبيدنا عن آخرنا ، ولكن كيف يتأتى له أن يكون فى غرناطة ؟ ألسنا ذاهبين للبحث عنه فى جبال دى لوجا ؟

فتوقف مانويل عن الصفير وأجاب باهماله المعتاد : ان السيدة العجوز التى شاهدت الحادث تقول انه طالما أن بارون قد قتل لوبيز ، فانها تامل ، اذا بحثنا عنه أن نسعد بلقائه .

ـ أيها الزميل، الست فى غاية الجراة أن تتحدث عن بارون بمثل هذا الاحتقار

ـ حسن ؟ ولكن هل بارون يزيد عن كونه رجلا عاديا ٠٠ هل هو أكثر من رجل ؟ سألهم مانويل هازا كتفيه ، وفى تلك اللحظة صدرت الاوامر بالتجمع والتقدم ، فتكونت الجماعتان وبدأ نداء الاسماء التقليدى للتأكد من وجود الجميع ٠

وحدث فى هذه اللحظة مرور هيراديا بالقرب منهم ، وكأى شخص آخر ٠٠ توقف ليبدى اعجابه بهذا الجيش الصغير ولكن المباغتة بدت على وجه مانويل الجندى الجديد ، الذى أخذ يتراجع الى الخلف ليختفى خلف زملائه ، بينما لمحه هيراديا ، فأطلق صرخة مجنونة ثم قفز الى أعلى كما لو كان قد وطىء ثعبانا ساما ، وأخذ يجرى فى شارع سان جيرونيمو ٠

ورفع مانويل بندقيته وصوبها نحو الفجرى ، ولكن جنديا آخر كان أسرع منه ، فاطاح بالبندقية الى أعلى وذهبت الطلقة طائشة فى الهواء ، ثم توالت الصرخات التى أطلقها المشاهدون والضباط والجنود وهم يقولون : «انه مجنون» ! لقد فقد مانويل عقله ! لقد فقد أحد الجنود صوابه ، ثم هجم المدنيون على الجندى المجنون الذى بدأ يناضل بكل عنف وقوة ليفلت منهم ، ولكنه استسلم لهم فى النهاية ، ولم تجد الاسئلة والاتهامات والاهانات التى غمروه بها فى انتزاع أية اجابة منه ٠

وفى نفس الوقت كان بعض المارة قد أمسكوا بهيراديا الذى شاهدوه يجرى هاربا ولانهم سمعوا طلقات البندقية ظنوه قاتلا فارا ٠

فقال لهم النورى : خذونى الى القائد العام ٠٠ يجب أن أتحدث مع الكونت مونتيجو ٠

ـ الكونت مونتيجو حقا ! من الذى قتله ؟ سأله معتقلوه ٠

ـ لقد أتى الحراس وهم يعرفون ماذا يفعلون بك ؟

فأجابهم هيراديا ، وأنا كذلك ! أظن ذلك أيضا ، ولكن احرصوا على الا يقتلنى بارون ٠

ـ ماذا تقصد ببارون ؟ ماهذا الذى يتحدث عنه هذا الرجل ؟

ـ (تعالوا وسوف تروا) وبقوله هذا سمح لهم النورى ان يأخذوه الى مقر قيادة الفرقة ، فاشار هيراديا الى مانويل ٠٠ ووجه حديثه الى القائد قائلا :

ـ أيها القائد ، هذا هو بارون ، وانا النورى الذى أعطيت منذ أسبوعين اوصافه للكونت مونتيجو ٠

فصرخ الجمهور : بارون ! ! لقد قبض على بارون ، لقد تحول أحد الجنود واصبح بارون ٠

ـ (لا شك فى هذا) ، قال القائد وهو يقرأ الامر الذى أعطاه له القائد العام ، لقد كنا بالتأكيد فى منتهى الغباء ، ولكن من كان يخطر بباله ان يبحث عن زعيم اللصوص بين الجنود الذين يبحثون عنه٠

(انما المغفل هو أنا) قالها بارون لنفسه ، ملقيا بنظره الى النورى بعينين كعينى الأسد الجريح ٠

ـ ان هذا الرجل هو الوحيد الذى استبقيت له حياته ! وانا استحق ماحدث ٠

وفى الاسبوع الثانى أعدم بارون ٠٠ وهكذا تحققت نبوءة النورى بحذافيرها٠

الحقائق الألغاز

فتوى

بقلم : محمد رجاء الدريني

قال « لن تصدق ما ارويه لك »

وتطلع الى يحاول ان يستمد من ملامحي ما يشجعه على الثقة بنفسه . لم يبد لى قط من قبل هكذا .. كان دائما واثقا من نفسه ، وبحق .. وأنا شخصيا لم أعهد فيه غير الاتزان والسلوك المعقول والصدق والشجاعة . لم يحاول أبدا أن يستجدى ثقة الآخرين. كانت هذه تأتى عفويا وكأنها ظل لثقته بنفسه . لم أره من قبل يحاول أن يشترى «بوليصة» تأمين من سامعيه على أنهم سيصدقون حديثه قبل أن يبدأ به . كانت عادته أن يقبل عليك ، وبدون مقدمات يقص عليك ما عنده من أنباء أو روايات عن نفسه أو عن الآخرين . وكثيرا ما كانت أخباره تبدو غريبة ولكن البرهان الملموس كان دائما يؤكدها . فمثلا كنا ذات يوم ذاهبين لاستقبال صديق له فى المطار . استلم برقية من ذلك الصديق فى الليلة السابقة يقول فيها:

« انتظرنى غدا الاربعاء .. مطار القاهرة الواحدة ظهرا . »

وقبل الموعد المحدد بساعة كنا فى سيارة أجرة فى طريقنا الى المطار .. ولاحظت أنه ساهم شارد الذهن وأنه على الاكثر لا يدرك أنه فى سيارة أو اننى بجانبه . كما بدا لى من ملامح وجهه وعينيه الساهمتين أنه يعانى ألما ما .. فلكزته بكوعى وهمست له مداعبا :

– نحن هنا .. أين أنت ؟

وكاد يقفز عن المقعد من مفاجأة اللكزة . ولكنه سرعان ما ثاب الى رشده وقال فى حزن مبهم :

– لن نرى (يوسف) اليوم .

– ماذا تخرف ؟ والبرقية ؟

– لن يأتى

– أتتنبأ كعادتك ؟

– لست أتنبأ . ولكن يسيطر على احساس غامض قوى أنه لن يحضر اليوم .. الله يستر .

ثم هتف بسائق التاكسى .. عد بنا الى البلد ..

ولكنى لم أثق بقوله وأصررت ان نصل المطار وننتظر صديقه وتم لى ما أردت . وصلنا المطار فى الواحدة

الا ربعا وجلسنا فى صالة الانتظار ·

كانت ملامح (خالد) هادئة ولكنه هدوء مغلف بالحزن · وقد حاولت أن أجره الى حديث ما · أى حديث · ولم أفلح · ظل يفلت منى كالزئبق ودقت الساعة الواحدة ثم الواحدة والربع والنصف ولم تصل طائرة صديقه · وذهبنا الى مكتب الاستعلامات فقالوا انهم لايعرفون سببا لتأخر الطائرة · وانهم لا يعلمون ان كانت ستصل أم لا · ولم يحضر (يوسف) بالفعل فى ذلك اليوم · بل وصل فى اليوم التالى · وتبين ان الطائرة التى كانت تنقله من لندن قد هبطت فى روما · ثم بعد أن أقلعت من روما بخمس دقائق عادت وهبطت من جديد · تبين أن بها خللا يحتاج الى اصلاح يستغرق يوما ·

يومها لم يبدأ (خالد) الحديث عن مشاعره الخاصة الغريبة باستجداء التصديق وانما القاه فى مسامعى دون مقدمات ودون أن يتوقع منى الا أصدقه ·

***

وحدث مثل هذا مرة أخرى · كنت أسهر فى ساعة متأخرة من الليل أستعد لامتحان فى الحقوق الرومانية · كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف صباحا حين دق الجرس · وحين فتحت الباب وجدت (خالد) أمامى ، شاحب الوجه دامع العينين وقال بصوت تخنقه العبرات :

احتاج الآن عشرة جنيهات ·· لا بد أن أسافر الى بورسعيد الليلة · أمى تحتضر ·

كانت عينيه محزنة ...

حقا · بدا وكأنه شبح يتكلم من هاوية سحيقة أو بوم ينعق فى الظلام · وظننت أنه مخمور · انه أحيانا يشرب حتى يثمل وحينذاك تسيطر عليه سوداوية عميقة الحزن · وتستبد به المخاوف المأساوية · قلت :

ـ انك تبدو متعبا · ادخل واسترح قليلا ·· سأعد لك قهوة ·

ومددت يدى الى ذراعه أحاول أن أجره الى الداخل · ولكنه سحب ذراعه منى فى غضب وظل متسمرا فى مكانه ولمع فى عينيه بريق غريب وقال يعنفنى:

ـ مصطفى ·· الا تفهم · اقول لك أمى تحتضر ·· وأنا اريد عشرة جنيهات لكى اذهب اليها · الآن ·

ـ من أين عرفت ؟ أجاءتك رسالة او برقية أو تليفون ·· أم وحى ؟

ـ لا شىء من هذا · لا اعرف كيف عرفت · ولكنى واثق مما أقول · مصطفى ارجوك·· هل معك المبلغ الذى اريده · ؟

ـ معى كل ماتريد ، لحظة··سألبس واذهب معك ··

وارتسم فى وجهه الم كبير وهو يقول :

ـ أنت لا تصدقنى ؟ ··

ـ بل صدقتك ولكنى لن اتركك تذهب وحدك بهذه الحال · سأذهب معك كما تشاء ·· لكن أسرع ··

وفى دقائق كنا فى تاكسى متوجهين الى بورسعيد • وحين وصلنا كانت أمه فعــلا تحتضر • وفى الصباح فاضت روحها • ولكنها قبل أن تموت أحست بوجود (خالد) وبدموعه وبذراعه تسند رأسهــا وبيده تبلل شفتيها الجافتين فاشرقت فى وجهها بارقة رضاء وسعادة ظلت تغمره حتى بعد وفاتها •

***

ومرت على ذلك سبع سنوات • بعد وفاة أمه بسنة تقريبا تخرج (خالد) من كلية العلوم بامتياز ثم أرسل فى بعثة دراسية الى أمريكا• واستقر هناك أربع سنوات عاد فى نهايتها بشهادة الدكتوراه وبقصة حب غريبــة لم يروها لأحد • كان يقول انه لم يحب وهو فى أمريكا أية فتــاة • لأنه ـ كمــا قال ـ كان منصرفا بكل طاقاته ووقته الى الدراسة والى تحقيــق واجباته ومسئولياته نحو بلده وأمته • ولم استغرب قوله هذا فقد كانت فكرة الواجب هــذه تسيطر عليه لدرجة لم أعهدها فى أحد آخر • وربما كان لنشأته فى بورسعيد ولحياته فى أحداثها العظيمة عام ١٩٥٦ أثر كبير فى تجذير فكرة الواجب والمسئولية فى كيانه كله •

سألته ذات يوم :

ـ كيف كنت تروح عن نفسك اذن؟

ـ ربما تستغرب يامصطفى ماأقول • لو شــعرت يوما أن وجودك كله وأن معنى حياتك مرتبطان كليا بمشروع ما أو بهدف ما لماشعرت بالتعب ولواصلت العمل من أجله أربعا وعشرين ساعة فى كل يوم من حياتك •• النفس فى هذه الحالة لا تحتــاج الى راحة أو ترويح • لأن راحتهــا لا توجد الا فى العمل • ولكن أنت وكل الناس تتــحدثون عن ترويح الناس باسلوب يفصل بين راحه النفس وأداء الواجب • ولهذا يقــومون بواجبــاتهم من غير نفس ، ولا ترتاح نفوسهم الا خارج أداء الواجب ، بأعمال هى فى الغــالب خرق لواجب الانسان نحو نفسه كانســان • لكنى كنت ـ بعــكس ذلك ـ أجــد كل اللذة فى الدراسة والعمل والتجريب والمخابرة• وحين كنت لا أعمل فى واحدة من هؤلاء كنت أحلم بمشاريع كثيرة وأعيش فى أحلامى • وحين لم أكن أعمل أو أحلم كنت أحس بفراغ وانعدام لطعم ومعنى الوجود • وكنت لا أنجو من هــذه الاحاسيس المروعة الا بالعودة الى العمل أو الى رسم المشاريع •

ـ وغريزة الجنس فيك ؟ انت انسان كما أعلم • وفيك غريزة لا بد أن تشبع بأسلوب ما •

ـ. غريزة الجنس ؟ نعم • نعم • هذه كانت تشبع كما تقول ••

لا • لاتظن اننى كنت قديسا • لكن اشباع غريزة الجنس هنــاك هو فى الغالب عملية عضوية بحتة غير مرتبطة بعواطف عميقة ودائمة • الانسان هناك ممسوخ • مجرد آلة • كثيرا ما تجد هناك اثنين يتعــاشران يوميا دون أن تربط بينهما أى عاطفة عميقة دائمة • وقد تجد هناك عاطفة قوية دائمة بدون معاشرة دائمة •

ـ وهذا الذى تسميه « عاطفة عميقة دائمة » هل خلت حياتك هناك منه ؟

ـ نعم ولا ٠٠ انت تقصد الحب المرتبط بالجنس ٠٠ وقد خلت حياتى هناك منه ٠٠ لكن كان فى قلبى حب كبير عميق دائم لشىء اسمه العرب وبلاد العرب ٠ ولهذا كنت أعتبر اقامتى هناك فترة استعداد وتحفز للعودة اليها وللمساهمة فى النهوض بها ٠ ولو سمحت للحب الذى تعنيه أنت أن يتملكنى لألهانى عن الحب الذى أعنيه ٠

***

لو رأيت خالدا كما رأيته وهو يتحدث هذا الحديث لصدقته كما صدقته ٠ لم أستطع أن أشك فى صدقه ٠٠ وكل ما أعرفه عنه وما أعرفه عنه كثير ، كان يشجب كل امكانيات الشك فى صدق واخلاص ما قال ٠٠ ربما كان يبالغ ٠٠ ربما ٠ ولكنى شخصيا لا أجد مجالا لـ « ربما » هذه ٠

رغم ثقتى الشديدة به ، وهو يعرف كل المعرفة أن ثقتى به شديدة ، بدأ (خالد) حديثه معى اليوم بقوله :

ـ لن تصدق ما أرويه لك ٠٠ ثم تطلع الى وجهى محاولا أن يستمد من تعبيراته ما يشجعه على أن يثق بنفسه وان يستمر فى حديثه ٠

ـ بل سأصدق ٠٠ ما تعودت منك غير الصدق ٠٠

ـ ولكن قصتى هذه المرة أغرب من كل ما تتوقع ٠

ـ ليست هذه أول مرة ٠

وابتسم ابتسامة حزينة وقال :

ـ الغرابة هذه المرة من نوع قد لا تفهمه أبدا ٠ أنا نفسى لا أفهمه ٠٠

ـ ما أكثر ما عجزت عن فهمك ٠ ولكن هذا لم يمنعنى عن تصديق كل ما رويته لى ٠

ـ أتعلم ؟ لقد نصحت ألا أروى هذه القصة لأحد ٠ ولكن فرغ صبرى يا مصطفى ٠ لم أعد أحتمل الانغلاق والكتمان ٠ لا بد أن أشرك واحدا فى قصتى ولم أجد خيرا منك ٠٠

ـ شكرا ٠٠ ولكن من الذى نصحك ٠٠ يبدو أن هناك شخصا آخر غيرى ٠

ـ نعم ٠٠ هناك شخص آخر ٠ انه فتاة ٠

قلت فى انتصار :

ـ هاها ٠٠ انت واحاديثك عن حب الوطن والعرب و ٠٠ انزل الى مستوى البشر يا أخى ٠٠ انزل ٠٠

فضحك وهو يقول :

ـ لاتسبق الاحداث بعد ٠ اسمعنى حتى النهاية ٠٠

ـ كلى آذان ٠٠

ـ انت تعرف اننى عدت من أمريكا على ظهر باخرة ، من تلك البواخر التى يسمونها « عابرات المحيط » ٠ والفتاة التى أحدثك عنها عرفتها على الباخرة ٠ كان ذلك فى آخر ليلة لنا فى الاطلنطى ٠ البواخر عادة تقيم حفلة بمناسبة اجتياز المحيط ٠ انهم يسمونها حفلة الوصول بالسلامة ٠ وقد أقامت باخرتنا هذه الحفلة التى امتدت حتى الواحدة ٠ فى الواحدة والنصف كان معظم المسافرين قد أووا الى فراشهم كى يستيقظوا باكرا وينزلوا

الى لشبونة . كنا سنصل لشبونة فى حوالى السابعة صباحا ..

أما أنا فلم أنم .. لم احس برغبه فى النوم . ولهذا احضرت معصما من الكابين ، وصعدت الى سطح مقدمه السفينه حيث كانت هنــاك ســاحة سماوية فيها بعض المقــاعد الخشبية كالتى تراها فى حدائقنا العــامة . جلست على أحــد تلك المقــاعد أدخن سيجارة خلف سيجارة وأتأمل النجوم والسماء والبحر ونسمات الليل الباردة المنعشة وخرير الامواج . ثم سرحت . لا أدرى كيف .. توقــف ذهنى عن التفكير وشعرت بوحدة عفــوية عضوية مـــع الــــكون كله .. أحسست اننى والسماء والنــجوم والبحر والسفينة والامواج والرياح شىء واحـــد ، روح واحد . أحسست بروحى تعانق كل هذه الاشياء وتحتضنها بذراعين ضخمين حتى لكأن أحدهما جبال روكى والآخر همالايا . وأحسست اننى كبير جدا ، وأن جسدى ليس الا ثوبا ضيقا خانقا . وشعرت باختناق فعلى وبدمعة تســيل على خدى ، وبعد الدمعــة غمرتنى راحة وشملنى سلام . وفجأة سمعت صوتا غريبا يهتف بى . صوتا هامسا غريبا وكأنه آت من عالم آخر :

« لست وحدك تملك الدنيا وتتحد مع الـــكون ياخــــالد . بل أنا أيضــا اشاركك .. خالد و (جريس) والكون كلنا روح واحد . »

وامتدت يد ناعمــة كالحرير ، دافئــة كالفرو ، تمســح على خدى ووجهى كله فى حنان رقيق . ثم أحس حفيف ثوب وحركة قدمين ثم ألمح جسما يقف أمامى فى الظلام . انه قوام فتاة .. وألمح من وراء غلالات الظلام الخفيف ابتسامة عذبة تبرق فى عينيها وتنير لى وجهها لحظة . ثم جلست الفتاة بجانبى ووضعت راحتى بين راحتيها .

حدث هذا كله وأنا مذهول مسحور . وحين أفقت من ذهـــولى لملمت شتات ادراكى لم أصدق نفسى وحواسى . لم أعرف فى حياتى فتاة اسمها «جريس» .

فهمست لى فى تأنيب ودود :

– بل تعرفنى وأعرفك منذ أمد طويل .. طويل ..

– وذهلت . هــــل تقرأ أفكارى ؟ وحاولت أن أشعل عود كبريت لأراها على ضوئه . وبما تعرفت عليها . ولكنها خطفت الكبريت من يدى وهى تقول :

– ارجوك ياعزيزى . لاتفسد جمال الطبيعة بصناعة الانسان . النور كاف لمثل هذه اللحظة من النهــــار . وليس أجمل من نور النجوم فى الغسق .. ينساب على موسيقى الامواج ونســمات الفجر ورعشات الندى .. آه .. اننى مبتردة قليلا . ضمنى اليك .. ضمنى وأفرد على جناحك .. آه .. هكذا هذا جميل منك . .دعنا جالسين هكذا . عما قليل تظهر انوار لشبونة . وبعد ساعة أو اثنين تبزغ الشمس .. وســــترانى كما تشاء فى ضوء النار . لا ... لن تأسف الا على شىء واحد ، هو أنك لــم تجدنى من قبل مع أننى كنت دائما حولك – لا تفكر كثيرا يا عزيزى .. أنا أيضا مسافرة الى الاسكندرية . بعد ذلك .. من يدرى ؟

وتذكرت الحكايات التى كنا نسمعها عن الجنيات .. أأكون مع جنيـــــة ..

وضحكت عاليا هذه المرة • كأن ضحكاتها كانت أنغام وتر ••

ـ ما اسخفك ياعزيزى •• لا •• لست جنية • أنا انسانة مثلك •• أتريد أن ترى جواز سفرى ؟ ••

وفتحت فمى أريد أن أسألها كيف تعرف كل هذا عنى •• اسمى ونهاية رحلتى و •• أفكارى كلها •• ولم أكد أنطق حرفا واحدا حتى كانت راحتها تغلق فمى •• وهمست :

ـ اش • اش • لاتفسد جمال لقائنا بالتفكير والتساؤلات • ستعرف كل شىء فى حينه • ويمكنك أن تحدثنى كما تشاء فى لشبونة • سنزورها معا • أليس كذلك ؟

ـ لا ادرى • الامر يعتمد على ••

وقاطعتنى :

ـ انك تتدلل بغباء •• كمعظم الفتيات فى بلادكم • انك ترغب جدا فى أن تكون معى ومن جهتى فليس أعز على من ذلك • اتفقنا اذن • والآن ضمنى اليك • لاتقل شيئا • عد الى وحدتك مع الكون • انا وأنت والبر والبحر والجو كلنا روح واحد عظيم يلبس أثوابا مختلفة •

لاأدرى كيف حدث ذلك • فقد استجبت لها بدون أدنى مقاومة أو تفكير •• وفعلا ذبت فى وجد صوفى غريب • نسيت نفسى ونسيتها ونسيت كل شىء تحتى وفوقى وحولى • الاحساس الوحيد الذى غمرنى هو أننا جميعا : أنا وهى والكون روح واحد كبير •• كبير مسجون فى أجساد صغيرة •• ثم فى هذه اللحظة تحطمت جدران السجون وعاد الكون كله ـ بما فيه نحن ـ الى وحدته •

ولا أدرى كم بقينا على هذه الحال • فالزمن ايضا فقد هويته الخاصة • لكن فجأة قفزت « جريس » من بين ذراعى وصاحت فى فرحة جذلى :

ـ لشبونة •• أضواء لشبونة •• انظر •• انها هناك •• هناك •

ونظرت فى غبشة الفجر ورأيت ثلاثة أنوار تتأرجح فى الافق البعيد • وشعرت أنا الاخر بفرحة • وركضت « جريس » الى أعمدة الحديد الافقية التى تسور سطح السفينة واتكأت عليها • ولحقت بها واحتضنتها فاستسلمت فى وداعة رقيقة ورحنا نتطلع معا الى لشبونة •

كان ضوء الفجر قد بدأ يزداد وضوحا فى كل دقيقة حتى أصبح كل شىء حولى واضحا • وتأملت هذه التى تضمها ذراعاى فوجدتها أجمل من وقعت عليها عيناى • ولاحظت وأنا أسترق النظر الى مفاتنها أنها بدأت تبتسم • وفجأة استدارت نحوى وخيل الى لحظة أنها ملاك أكثر منها بشرا • لكن سرعان مازالت هذه الخاطرة من ذهنى حين قرصت وجنتى وهى تهمس لى :

ـ هل اطمأننت انك لم تكن لعبة بيد عجوز متصابية • لا •• لاتحتج • فأنا اعرف أن الفكرة خطرت لك • والان وقد رأيت اننى لاعيب فى أن أرجوك ألا تعيش معى بعقلك وتساؤلاتك وأفكارك • عش معى بوجودك كله بدون تساؤل ، بدون ضمير اجتماعى ، بدون تعقيد للأمور • فالعقل ملهاة •

وفى الحال ذابت كل تساؤلاتى وكل

أفكارى • وعشت معها بكل وجودى فلم اشعر بجموع المسافرين الذين راحوا يتقاطرون الى الساحة ويتفرجون معنا على المدينة التى قفزت علينا من الافق •

والقت السفينة مراسيها فى ميناء لشبونة • وأعطى المسافرون مهلة عشر ساعات يقضونها على البر • ونزلنا أنا و (جريس) وقضينا هذه المدة نطوف شوارع المدينة ونزور اسواقها وآثارها ومشاهدها وقد جلسنا فترة فى مقهى ، وحينذاك قلت لها :

ـ والان يا (جريس) من أنت ؟

قالت :

ـ (جريس) ثم تهجت اسمها بالانجليزية ثم استأنفت : اسمى الكامل (جريس ماكنسكى) ولدت ونشأت فى ولاية (أوريغون) • والآن أنا مسافرة الى بيروت حيث ألتقى بأمى وساقضى معها أسبوعا فى بيروت ودمشق وعمان والقدس • ثم نطير الى الهند ثم الصين ثم اليابان ثم نعود الى أمريكا •• هل اشبع هذا فضولك ؟

ـ لست أعنى هذا • أعنى ما طبيعتك ؟ كيف عرفتنى ؟ كيف تقرئين أفكارى حتى قبل أن أتمها فى نفسى •؟

ـ هل هذا مهم ؟

ـ بالنسبة لى أنه مهم جدا ، فاننى أعيش مع لغز • ولست أصبر على الالغاز •

ـ ان حياتنا كلها ألغاز • أتظن أننى اللغز الوحيد فى حياتك ؟

ـ لا •• ولكنك لغز غير مالوف •

ـ حاول أن تالفه • اننى لا أستطيع أن أفكه لك •• لا بد أن تفك رموزه بنفسك • ولكن فك الرموز والالغاز يأتى عفويا والهاما • ولهذا لا تفتعل الايضاح بعقلك المحدود •

ـ ربما لا أستطيع الصبر حتى ياتينى الالهام •

قالت : وكأنها تحدث نفسها « بمثل هذا الموقف من أسرار الحياة طرد آدم نفسه من الفردوس • ولكن هل مللتنى يا عزيزى ؟ تظل دائما تتلهى عنى بالأسئلة •• ان الجواب على اسئلتك أتفه بكثير من حقيقة أننا معا الآن فى هذه اللحظة • الماضى لا يهم • والمستقبل لا يهم • المهم هو الحاضر ـ فهو المستقبل وهو الماضى • دعنا نستمتع به • دعنا ••

ـ كما تشائين ••

ونسيت الماضى والمستقبل • وعشت بوجودى كله فى الحاضر ـ معها وبها ولها • ورحنا كطفلين •• ذراعانا ملتحمان وجسدانا يسيران خطوات واحدة فى أنحاء المدينة • وفى المساء حين عدنا الى السفينة كنا من أسعد المخلوقات واستأنفنا ما كنا فيه من سعادة •

قالت وهى تتعلق بذراعى :

نحن الآن زوجان أبديان •• أنت آدم وأنا حواء وهذا العالم كله جنة عدن • فردوسنا • شجرة واحدة يمكن لثمرها أن يفسد زواجنا ـ العقل • لا تفكر يا حياتى • والا أصبحنا أبناء الاثم والندم والعذاب •

ولم أفكر • تحررت من كل القيود الاجتماعية التى تقفل كثيرا من الابواب أمام انسانية الانسان • وعشت مع معبودتى ورفيقتى وقرينتى (جريس) فى فردوس ستة أيام بلياليها • وفى

فجر اليوم السابع كنا نصل الى ميناء الاسكندرية .

قالت وهي تحتضنني على سطح مقدمة السفينة في غبشة الفجر :

ـ يا آدمي العزيز .. بعد اليوم ستضرب في أرجاء الارض وحدك .. ولكنك ستذكرني دائما ..

قلت ودمعي ينهمر :

ـ دائما ..

قالت : وتخلص لي دائما .. تظل دائما انسانا فيه براءة الفردوس ..

قلت : بكل قواي أعد ..

قالت : انك تجيب بمنطق العقل ومنذ ساعات والعقل يسيطر عليك .. ولهذا تبكي .. اننا ما زلنا في الفردوس يا حبيبي المسكين ولكنك أكلت من ثمر الشجرة المحرمة وبدأت تحس أنك قادم على ظلام وتكفير وعذاب ... آه ياعزيزي بودي لو انقذك وأظل معك ..

قلت وأنا انهار أمام انتهاء فكرة الفردوس :

ـ وبودي ذلك أيضا . اسمعي . لم لا تنهين رحلتك هنا في الاسكندرية ؟ ثم نتزوج ونعيش معا الى الابد . سنتزوج حالما تطأ اقدامنا البر . سنذهب الى شيخ أو قسيس اذا أردت ونطلب منه أن يعقد زواجنا .

قالت وفي صوتها نواح :

ـ أوهام وأباطيل ـ زواج وحياة الى الابد ـ وشيوخ وقسس . نحن متزوجان يا عزيزي وزواجنا أبدي ومعقود في صفحة القدر . ولكن .. يا الهي .. أنت لا تفهمني . ومع ذلك أنت زوجي .

ـ زوجك ؟ كيف ـ من الذي زوجنا ؟

ـ لا يستطيع أحد أن يزوجنا . نحن الذي تزوجنا .. أتعرف من أنا ؟

ـ أنت (جريس) .. أنت (جريس ماكنسكي) .

ـ أنا (خالد) .. وأنت (جريس) وكلانا (خالد وجريس) .

ـ ألغاز لا أفهمها .

ـ وحقائق لاتستطيع أن تهرب منها .

وراحت تحتضنني وتقبلني وتتحسسني في حنان ورثاء واشفاق . وكانت تغمغم وهي تمسح وجهها بوجهي وبعنقي وبصدري وكأنها تحاول أن تنفذ الى عقلي وقلبي وروحي . وحين عجزت انهمرت من عينيها الدموع التي بدا لي وهي تغمرني بها أنها تحاول تذويب الحواجز الجسدية التي تمنع روحي من ملاقاة روحها والاتحاد معها .

وقضيت تلك الليلة مع (جريس) مأخوذا مبهورا مسحورا . وحين طلع الصباح ورست السفينة في الميناء كنت لا أكاد أقوى على الوقوف . ولكنها حين ودعتني بثت في القوة والشجاعة على المضي في دروب الفناء الى نهاية نصيبي منها . وأوصتني ألا أروي لأحد قصتنا . وأكدت لي أن أحدا لن يفهمني ولن يصدقني . ولهذا سيتهمني الناس بالجنون . وربما يجنونني بالفعل .

بعد ذلك بسويعات كنت بين أهلي وأصدقائي في بورسعيد استسلم لقبلاتهم وعناقهم وتهانيهم . وعدت الى دروب الحياة المألوفة الخالية من الالغاز الغريبة الحبيبة .

***

وسكت (خالد) لحظة وكان في عينيه المحمرتين الدامعتين شرود ..

وأخيرا استأنف حديثه :

ـ لقد اعطتني عنوانها ووعدتها أن أكتب اليها كلما أحسست بحاجة نفسية ملحة اليها . قالت انها ستكتب الى كلما

أحسست أنني بحاجة حقيقية اليها، وأنني سأجدها حولي بلحمها ودمها، كلما ذبت بوجودي في السكون في لحظات الوجد والصفاء العفوي غير المفتعل .

وقد كتبت لها في كل مكان استقرت فيه. كتبت لها في الهند، وفي الفيلبين، وفي الصين وفي اليابان وفي أوريغون بأمريكا . وكانت رسائلها تصلني بين الحين والآخر ، في اللحظات التي أكون فيها على وشك أن أتخلى عن وعدي لها بأن أكون ، انسانا دائما ، فيه براءة الفردوس » .

« فمثلا ، شربت ذات ليلة مع شلة من الاصدقاء وزملاء العمل . وكنت يومها أشرب في غير اعتدال . وفجأة ، قبل أن أسكر ، قال محمود ، وهو أحد زملائي كما تعلم : « خالد هذه رسالة وصلت اليوم. وقد نسيت أن أعطيها لك في الدائرة . ولم أتذكرها الا الآن » . وأخذت الرسالة . وحين قرأتها عافت نفسي المشروب ورفاق الكأس . فغادرتهم وذهبت الى شقتي سيرا على الاقدام. كان البدر مكتملا في تلك الليلة ، والطريق هادئا خاليا من الضجيج والزحام . ونسيت نفسي . وشعرت بوجود صوفي وبوحدة عضوية مع السكون كله . وظل جسدي يسير غريزيا الى شقته وحين فتح الباب ودخل كانت (جريس) خلف الباب بلحمها ودمها ، ذراعاها ممتدان لاستقبالي . واحتضنتني وهي تهمس :

— يا حبيبي المسكين .. لكم تعاني روحك الغربة والوحدة . ولكم أنت بحاجة الى ذراعي.. تعال ، واسترح في حضني يا زوجي الحبيب .

وغفوت ليلتها في حضنها حتى الصباح . وحين أفقت في الصباح كان البيت مرتبا ونظيفا وجميلا .. وكان الكون كله مشرقا بالجمال والدفء .

وفي مرة أخرى كان أحد زملائي في العمل ، ولا ضرورة لذكر اسمه ، قد استغل مركزه استغلالا يضر بالمصلحة العامة . كنت مسئولا عنه ، ولهذا اعتقدت أن من واجبي أن أوقفه عن الاستغلال ، وأن أعاقبه بحزم . وقد قمت بواجبي بشكل آلي . لم أسمح لعواطفي أن تؤثر على سلوكي تجاهه . ورغم أنه حاول أن يستثير كل مكامن الرحمة في .. سددت أذني ضد كل ما قال ، وسددت عليه كل أبواب الرحمة . وبعد أن أخضعته للعقاب ، دخل علي المسكين منكسر النفس وهو يحمل لي رسالة منها . ناولني الرسالة وخرج . وحين قرأت الرسالة حزنت حزنا شديدا ، وتمنيت لو كنت مجردا من سلطة العقاب والثواب . وقضيت المساء وحدي في شقتي اجتر حزني على ذلك الزميل المسكين حتى بكيت من أجله .. وحينذاك أحسست بيدها تمتد من خلفي لتمسح دموعي وتسند رأسي الى صدرها الحنون .. وهمست :

— « عدالة الانسان يا عزيزي ليست نظريات لا قلب لها . انها يجب أن تقوم على الحب . والحب يتمثل في الرحمة معا. » ثم ظلت تواسيني وتسليني حتى غفوت في حضنها حتى الصباح .

ومرت سنة وبضعة شهور على هذه الحال . أحيانا كان يصلني منها رسالتان في الاسبوع ، وأحيانا تنقطع شهرين أو ثلاثة . لكن رسائلها كانت غريبة في محتواها وفي تأثيرها علي. لم تكن تعتذر عن عدم انتظامها . ولم تكن تشير الى

رسائلى • مرة واحدة علقت على رسائلى بأنها تعبيرات عن نزوات مؤقتة لا تصدق الا على اللحظات التى كنت أكتبها فيها• وأحيانا كان يخيل الى أن رسائلها ليست موجهة الى بالذات بقدر ما هى موجهة الى الانسان فى•• الانسان المطلق• وأحيانا كنت أشعر أن هذه الرسائل نفسها انما تخاطبنى وحدى من دون الناس وتحاسبنى على كل صغيرة وكبيرة فى حياتى محاسبة ودودة وحازمة معا •

***

وتوقف (خالد) عن الكلام للمرة الثانية • وتطلع الى من جديد فى محاولة لمعرفة أثر روايته على وموقفى منها • وأدركت حاجته الى تعليق منه جع منى• فى أعماقى كنت محتارا بين أن أصدقه وبين أن أشك فى صحة عقله • ولا أكتم أننى كنت راغبا فى المزيد من أحداث قصته•• ولو أدرك أننى أشك فى صدق ما يقول لآلمته من جانب ، ولحرمت نفسى من سماع البقية • لهذا قلت :

ـ ان ما تروى غريب حقا ! •• انك تتحدث عن خوارق • ولكن ، اما زلتما على هذه الحال ، أعنى ، هل تراسلك وتظهر لك على النحو الذى ذكرت ؟

وتنهد (خالد) وأجاب :

ـ لم أرها ولم أستلم منها أية رسالة منذ خمسة أشهر •

فسألته :

ـ هل هناك سبب ؟

أجاب :

ـ لا أدرى • ولهذا تجدنى قلقا عليها محزونا لاختفائها من حياتى • بعثت لها أكثر من عشر رسائل، ولكن الرسائل لم تعد الى ، ولم يردنى أى جواب على أية رسالة • ومعنى هذا أنها استلمت رسائلى ولكنها لا تريد أن ترد عليها • لماذا ؟ لا أعرف • ليتنى أعرف •

ثم أخلد الى الصمت للمرة الثالثة • شرد ذهنه • خيل الى أنه يخفى عنى شيئا •• كان شروده مختلفا هذه المرة• لم يكن الشرود المتوشح بغلالة رقيقة من الحزن الهادىء بل كان شرود القلق والخوف شرود الرغبة فى الهرب من شىء ما • ملامح وجهه لم تعكس الاطمئنان أو البراءة • لقد حل فيها القلق محل الطمأنينة بل خيل لى لحظة أن ملامحه تنم عن صراع بين الشعور بالاثم وبين العناد والكبرياء الذى يرفض أن يعترف بالاثم • ولكنى طردت هذه الخاطرة من ذهنى • وقلت فى نفسى :

ـ لا • ليس هذا ممكنا • ان كانت عندى فراسة ، فان فراستى لا ترى فى خالد رجلا قادرا على الاثم أو على المكابرة• ولكنه لا شك أن خالدا كان قلقا بالفعل • وربما كان خائفا• ولهذا قلت أنتشله من ذهوله :

ـ انك لا تبدو طبيعيا يا خالد • هل أنت قلق على شىء أو خائف من شىء ؟

وليتنى لم أسأله هذا السؤال •• فقد ارتبك ارتباكا شديدا • كنا يومها جالسين حول طاولة فى أحد المقاهى ، وكانت يده تمسك كوبا من الماء• وحين سمع كلمتى «قلق» و «خائف» ارتجفت يده فدلقت ما فى الكوب على الطاولة ، فراح يمسح الماء المدلوق بعصبية فارتطمت يده بفنجان القهوة الذى وقع على الارض « طاق • طاق » ـ تحطم • واحمر وجه (خالد) ثم اصفر ، ثم احمر • وابتسم ابتسامة بلهاء مقهورة ، وحاول أن يتكلم فتلعثم وتكسرت الكلمات على لسانه وماتت على شفتيه •

وادركت أنه يعاني صراعا داخليا عاصفا لا أعرف عنه شيئا ولا يود هو — كما بدا لى — أن يفصح عنه • فتشاغلت عنه بترتيب ما أحدثه ارتباكه من فوضى ثم دفعت الحساب وثمن الفنجان المكسور ، وأخذته من ذراعه وخرجنا •

ونسى أن يسألنى ان كنت صدقت روايته • نطق لسانه بكلمات اعتذار جوفاء ، وقال انه مرهق يحتاج أجازة وأنه سيأخذ هذه الاجازة فى خلال أسبوع • وتركنى دون أن يشير بكلمة الى قصته مع جريس •

بعد أسبوع زارنى خالد فى بيتى • كان يبدو متعبا جدا • قال انه أخذ اجازة شهر وسيقضيها كلها فى الاسكندرية • ووعدت أن أزوره هناك بعد أسبوع • ثم ودعنى وخرج •

وفى يوم الاربعاء ، أى بعد خمسة أيام ، كنت ساهرا فى بيتى بعد أن عدنا — أنا وزوجتى — من مشاهدة أحد الافلام • كنا قد انتهينا من تناول وجبة خفيفة ، وبدأت زوجتى تستعد للنوم ، ورحت أنا أطالع رواية • كانت الساعة تقارب الواحدة صباحا • وفجأة دق جرس الباب • وتطلعت زوجتى مستنكرة هذا التطفل فى هذه الساعة من الليل ، وقالت :

— لابد أنه أحد أصدقائك «الساهرين»

وذهبت نحو الباب وأنا متضايق من تعليقها ومن الذى دق الجرس • وحين فتحت الباب رأيت رجل بوليس ضخما يقف كالتمثال • وتطلعت اليه فى حنق وذهول • ولكنه لم يأبه لى ، وبادر يسألنى وكأنه جهاز تسجيل :

— حضرتك مصطفى خلف الله ؟

قلت :

— نعم •• لماذا ••

قال :

— تسمح تلبس وتتفضل معى الى القسم •

قلت : القسم ؟ لماذا ؟

قال :

— هناك شخص يدعى أنه الدكتور خالد عبد الله • سلم نفسه للبوليس قبل قليل • طلب أن نقبض عليه •• نحن نظنه مخمورا أو مجنونا • وليس معه أوراق تثبت شخصيته • ولكنه قال أنه يعرفك وأن منزلك قريب جدا •

قلت وأنا لا أدرى كيف أهضم ما يقول :

— الدكتور خالد ؟ أنت متأكد ؟ حاضر سألبس حالا •• حالا ••

وتركته واقفا بالباب ودخلت الى المنزل لألبس ملابسى ••

كانت زوجتى قد سمعت كل شىء ولكنها لم تصدق وقالت :

— الدكتور خالد ؟ هذا غير معقول • انه فى اسكندرية ، أليس كذلك ؟

قلت وأنا أرمى بيجامتى واحشر نفسى فى «بنطلون» :

— هذا ما أعلمه • لكن •• على كل حال سأتأكد فى لحظات • نامى أنت •

وتركتها مذهولة ، ورافقت العسكرى ، الى مركز البوليس ••

وبالفعل وجدت (خالدا) هناك ، يجلس على كرسى أمام مكتب الضابط ، رأسه منحن الى الامام ووجهه مغطى براحتيه • وحين أحس بى هب واقفا • كانت ملامحه هادئة هدوءا غريبا ، تعلن فى بلاغة عن مأساة ويأس واستسلام •

قلت وانا احتضنه بين ذراعى فى تأثر بالغ :

ـ «دكتور خالد : مالك ياعزيزى ؟ انك تبدو وكأن القيامة قامت ..

قال :

ـ لقد قامت قيامتى بالفعل ..

قلت :

ـ لا أفهم . ماذا تعنى ؟

واستأذن خالد الضابط فى أن ينفرد بى بعض الوقت ، فاذن لنا بالانفراد بعد أن اطلع على هويتى وأخذ بعض المعلومات بشأن عملى وعنوانى و .. الخ . ادخلنا حجرة صغيرة بجوار مكتب الضابط فيها بضعة كراس . وحين جلسنا تطلع الى خالد بوجه هادىء خال من الانفعال وقال :

« لولم اسلم نفسى لقبضوا على عاجلا أو آجلا .. فقد تورطت فى عملية اختلاس لا ، لاتستغرب . حتى الملائكة خانوا طبيعتهم وأصبحوا شياطين . المهم يا صديقى اننى أخطأت كنت أوهم « نفسى أول الامر أن ما أفعله ليس اختلاسا ، بل تفسيرا خاصا للقانون لا يؤدى الى خرق القانون . صحيح أن ضميرى لم يكن مرتاحا لهذا المنطق . لكنى استطعت بمعاونة شركائى أن أحتال على ارضاء ضميرى بالتفلسف حول معنى القانون وغايته وطبيعة عمل المحامين وغير ذلك .

لكنى بعد مدة قصيرة اكتشفت أن عملنا لم يكن تحايلا مشروعا على القانون ، ليس تفسيرا خاصا منطقيا له . بل كان اعتداء صارخا على القانون. لكنى اكتشفت أيضا أنه ليس من السهل أن أنسحب . خفت . والخوف جعلنى أتردد فى الانسحاب . كذلك أوهمت نفسى انه يمكن أن نغطى الأمر قبل أن ينفضح ، وحينذاك أنسحب . ومضت الأيام وأنا أزداد غوصا فى الوحل رغما عنى . وشبكة المجرمين تزداد نفوذا على ـ تارة يهددوننى وتارة يهونون الامر على وتارة يمنوننى أن الاختلاس سيتوقف فى وقت قصير ويسوى بحيث لا يظهر له أثر وحينذاك أستأنف الاستقامة .

وأصبحت فريسة لموجات متتابعة مستمرة من الخوف والقلق والأمل حتى لم أعد أدرى ما أفعل . ولهذا قررت أن آخذ أجازة وأن أبتعد عن جو الجريمة لأريح أعصابى وأفكر فى هدوء .

وفى الاسكندرية استأجرت شقة منعزلة نوعا ، وبدأت أدرس وضعى وأقوم تصرفاتى بعيدا عن تأثير الشركاء وزحمة الأعمال. واكتشفت أننى تغيرت كانسان وأن الغش والاثرة والجشع والمادية أصبحت مسيطرة على سلوكى ، موجهة لتصرفاتى . اكتشفت أن الأمانة والايثار والقناعة والروحانية لم تعد صفات لى كما كانت من قبل . أصبحت (فاوست) آخر .

وقد آلمنى هذا الاكتشاف . وآلمنى ما جرنى اليه هذا التغير من تورط فى جريمة الاختلاس . وقررت أن أتوقف عن الاستمرار فى هذه الجريمة . وأن أكشفها . ولم يكن هذا التراجع بدافع أخلاقى . الحقيقية أننى كنت خائفا من الاستمرار ، لم يكن بدافع التوبة الصادقة والندم بقدر ما كان بدافع الخوف . ولو وجدت منفذا أتخلص به من الجريمة دون أن ينالنى العقاب لسلكته . أحيانا كنت أتوهم أننى سأفعل ذلك بتأثير الشعور بالاثم

والندم · ولكن تصرفاتي العفوية التي كانت تنم عن خسة عميقة في ·

مثلا :

في الليلة الماضية سهرت في أحد النوادي الليلية ·· حين دفعت رسم الدخول للبنت جنيها · فأعطتني تذكرة قيمتها خمسة وعشرون قرشا ثم قالت :

– حضرتك أعطيتني خمسة جنيهات ؟

وادركت أنها أخطأت ، ولكني لم أصححها · قلت :

– نعم ··

فاعطتني أربعة جنيهات وخمسة وسبعين قرشا · وبكل بساطة وبدون وخزة ضمير أخذت المبلغ الذي لا حق لي فيه ·

وقد شربت حتى ثملت وعربدت كما لم أعربد من قبل أبدا · وأنهيت الليلة بمرافقة احدى الراقصات الى بيتي ·

وفي البيت أرهبت الفتاة حتى ظنت أنني سأغتالها · وعذبتها عذابا منكرا · لم أترك سترا من حياء الا ومزقته ، لم أترك عورة الا وفضحتها · لو رايتني لاعتقدت أنني شيطان مريد ، مستر (جيكل) آخر ·

الأغرب من هذا أنني كنت أشعر بلذة شيطانية غريبة · دست كل القيم في احتقار وتشف مجنون · وفي نفس الوقت كان في أعماقي صوت يضحك علي ، يهزأ بي ، يسخر مني ، يعيرني أنني انما أحطم نفسي، أتبذل ، أندفع في تسارع غريب الى الهاوية ، أحطم وأدوس كل المثل النبيلة والمشروعات الانسانية التي كنت قد كرست حياتي لها · وكل شيطنتي كانت تحديا لهذا الصوت ، ومحاولة للانتصار عليه ·

وقد اعتقدت الفتاة انني مجنون ، وأنها ان صاحت أو هربت فانني سأقتلها كما توعدت أن أفعل · ولهذا سلكت معي سبيل التوسل والاستعطاف · والغريب أنني كنت ازداد رغبة في تعذيبها كلما توسلت · وحين تستسلم كنت أحس بأنها انتصرت علي · وأخيرا حين استسلمت لكل ماقد أفعله بها حتى القتل ، شعرت أنها سحقتني وانني في آخر المشوار انهزمت · وعلا ضحك الصوت الساخر الهازىء في أعماقي · ويئست من الاستمرار في مقاومته · وانهارت قواي واستسلمت للبكاء كالأطفال · تحولت من عملاق الى قزم صغير ·

وحينذاك انسلت الراقصة المسكينة من شقتي وهي لاتكاد تصدق أنها نجت · ظنت أنني لا أحس بها ولا أعرف أنها تهرب · ولكنني كنت مدركا لكل حركة تقوم بها ، ولم أشعر بأية رغبة في منعها · كنت مدركا أنها قد تشي بي ، ولكني لم أعد أبالي · وحتى الآن لم أعلم أنها فعلت شيئا من هذا القبيل ·

وأخيرا جفت دموعي · وشعرت باختناق في البيت ، وبرغبة في بعض الهواء الطلق · ولبست ملابسي وخرجت ورحت أتمشى على الكورنيش ·

كانت الساعة حوالي الرابعة والنصف صباحا والشوارع شبه مقفرة والريح قوية وأحيانا عنيفة والأمواج هادرة صاخبة · كل شيء كان يبدو منسجما مع أعصابي المتوترة ومريحا لها ، الا النور · فقد تضايقت من الأنوار الكهربية وتمنيت لو كانت كلها مطفأة والظلام سائد ·

وسرت مسافة طويلة بدون استهداف

واضح • وأخيرا انتهيت الى مكان مقفر تماما وشبه مظلم • نزلت درجا لف بى يمينا ثم شمالا ثم انتهى بى الى مساحة رملية لم تكن الأمواج قد امتطتها بعد • وجلست على الرمل الرطب • وتسربت برودته الى جسمى وأعصابى • وبدأت أهدأ • وأحسست بشيء من البلل على وجنتى وبرطوبة فى عينى • لا أعرف ان كان ذلك دمعا أو رذاذ بحر •• ولكنى أحسست بالراحة تغمرنى وبالسلام يشملنى • وتوقفت عن التفكير وعن الاحساس الواعى الارادى وغاب عن وعيى الزمان والمكان وتلاشيت بدون قصد فى نوع من الوجد الصوفى والوحدة العضوية مع الكون بكل ابعاده الزمنية والمكانية •

لا أدرى كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحال • ولكنى فجأة سمعت تنفسا متحشرجا ثقيلا وأنينا عميقا • وتلفت حولى ويالهول ما رأيت •• يا الهى يا الهى •

واغرورقت عينا خالد بالدموع واختنق صوته • فهتفت به :

ـ (جريس) ؟ هل ألم بها مكروه ياخالد ؟

قال نائحا :

ـ كانت تموت • كانت تموت يامصطفى • أتصدق ؟ الانسانة الوحيدة التى أحبها وتحبنى • الاشراقة الوحيدة فى حياتى البائسة •• الحقيقة الوحيدة التى ظلت فى حياتى خالية من الشك ومن الدنس • نعم يا مصطفى ، كانت (جريس) ممددة بجانبى محطمة العظام مهصورة الجسد والدم يتدفق من فمها وأنفها مع كل زفرة وكل كلمة •

وقفزت نحوها ملتاعا • وانحنيت فوقها أسألها عن ما ألم بها ••

فابتسمت ابتسامة تفيض بالحزن والألم وتمتمت :

ـ يا حبيبى المسكين • لقد ظلمت نفسك كثيرا • والطريق أمامك شاق • شاق وطويل • ولن أكون بجانبك أواسيك • لن تضمنى اليك بعد اليوم • فقد انسدت بينى وبينك السبل • لكنى سأظل فى انتظارك يا زوجى لأستقبلك فى أحضانى حين تخلع عنك هذا الثوب (وأشارت الى جسدى) وهذه الخوذة (وأشارت الى رأسى) •

ثم همست بصوت واهن :

ـ ألا تضمنى ضمة الوداع ؟ مازال بامكانك أن تفعل ذلك •

وضممتها برفق ، وسندت رأسها بذراعى ، وأنا لا أملك دموعى من الانهمار • ولا أدرى كيف فاضت روحها • ورحت أناديها لعلها ترد على : جريس جريس •• جريس •

ولكنها كانت قد طرحت عنها «ثوبها» و « خوذتها » • وبينما كنت أناديها أغارت علينا موجة عاتية طرحتنى أرضا وأفقدتنى وعيى لحظات وحين أفقت لم أجد لجسدها أثرا • ورحت أطارد الموجة كالمجنون حتى وجدتنى محاطا بالأمواج كل منها تصفعنى فى عنف وتردنى فى غير رحمة •

وأخيرا عدت أدراجى خائر القوى مبتل الملابس مبتردا حتى العظام •• ووصلت البيت بمشقة شديدة ووقعت على الفراش فى اغفاءة طويلة عميقة وفى أعماقى صوت مجنون يردد فى نواح :

ـ البحر أعطى، والبحر أخذ • البحر أعطى والبحر أخذ •

أول شيء فعلته حين أفقت هو أن خشوت ملابسى وحاجاتى فى الحقيبة وجئت الى القاهرة • وضعت حقيبتى فى شفتى وجئت هنا لأبدأ الطريق الشاق الطويل الذى ذكرته (جريس) فى نزعها •

ثم مد يده الى جيبه وأخرج منها مفتاح شقته • ثم أعطاء لى وهو يقول :

ـ لى عندك رجاء خاص • سأقول لهم اننى كنت فى الاسكندرية أزور صديقا وأننى تركت المفتاح قبل سفرى معك •• خذ هذا المفتاح واذهب الى شقتى وخذ منه رسائل (جريس) احتفظ بها عندك حتى أخرج من السجن • أنت تعلم أنهم سيفتشون بيتى • ولا أريدهم أن يعثروا على هذه الرسائل •

قلت :

ـ لم لا تذهب معى وغدا تسلم نفسك •

قال :

ـ لا •• لابد أن أواجه قدرى منذ الآن • لقد هربت منه كثيرا ••

قلت :

ـ ليعنك الله ••

وتركته وذهبت الى شقته ••

***

فى الحقيقة كنت محتارا فى قصته مع (جريس) • وقد زادنى الشك بانها لم توجد الا فى خيانه وضميره • ولكنى حين دخلت شقته وفتشت على رسائلها وجدت تلك الرسائل بالفعل• مكتوبة بخط (جريس ماكنسكى) التى تقيم فى (أوريغون) بأمريكا • أكثر من هذا حين فتحت حقيبة ملابسه وجدت بدلته وقميصه وملابسه الداخليةمازالت مبتلة بماء البحر • بل وجدت على معطفه أثرا خفيفا للدم •• وقد أخذت هذه الملابس الى بيتى حيث غسلتها زوجتى وأزالت منها أثر الدم والبحر •

وبعد حوالى أسبوعين حمل البريد من (أوريغون) بأمريكا طردا بريديا فيه كل الرسائل التى كان (خالد) قد بعثها الى (جريس) وفيه أيضا رسالة قصيرة حزينة من والدتها تقول فيها ان ابنتها (جريس) توفيت قبل أسبوعين فى مساء الثلاثاء ـ بعد الغروب ـ فى حادث اصطدام بسيارتها •وأنها تأسف أن تخبر (خالد) بذلك • كما أنها تعيد اليه رسائله لأنها تذكرها بابنتها وتسبب لها آلاما مبرحة •

وازدادت حيرتى • هل كانت رواية خالد عن علاقته الغريبة بـ (جريس) صادقة كلها ؟ انها لغز لا أفهمه • ولكنها حقيقة تؤيدها البراهين الملموسة •• يا الهى • كم فى دنياك من الحقائق الألغاز •

القمة

القصة الفائزة بالجائزة الأولى
من مجلس الفنون والآداب ١٩٦٤

بقلم : احمد هاشم الشريف

من خلال اللوح الزجاجي الذى حددته فتحة النافذة ، القى نظرة يستكشف بها الخارج ،محاولا ان يعرف المسافة التى قطعتها العربة ، والمسافة الباقية من الطريق ، لكنه على ما يبدو اخفق فى هذه المحاولة ، وظل لبضعة ثوان لا يفكر فى شىء ، ولاينطق بحرف، ولا يقوم باى عمل على الاطلاق .

كان يعتقد ان العقل قوة هائلة لا يستهان بها ،حتى لو أحاطت بالانسان ظروف قاسية كالتى احاطت به فى الثلاثة ايام الماضية ، والآن يرى هذه القوة الهائلة تختل ، وتشل حركتها تماما ، امام احساسه بالخوف ولهفته على معرفة النتيجة ..

لم يكن يتوقع ان ما حدث فعلا يمكن ان يحدث بهذه الصورة ، وعلى هذا النحو المفاجىء ، خصوصا وان حديث السائق عن خبرته بالطريق ، يوحى للسامع بالاطمئنان ، كما انه لم يبدأ بعد فى ارتقاء المرتفع ،حيث مكان المستشفى .

وكان مبعث خوفه ولهفته أن اللفة التى تحملها زوجته . تتأثر بأقل حركة وينتقل التأثير بالتالى الى من بداخلها ، طفله المريض . وفى هذه الحالة ستكون النتيجة على حساب اعصابه . وقد ادرك من لحظات أن زوجته ذاهلة عن كل ما حولها ، حتى عن اللفة التى بين يديها ، ثم اكتشف أن ذهولها بدأ من ساعة ركوبها العربة ، وربما كان قبل ذلك بكثير .. ليس فى وسعه الآن أن يتذكر .. ان المباغتة فى مثل هذه الامور لها تأثير خطير ايضا ، لا يقل فى خطورته عن تأثير الهزة التى تعرضت لها العربة، والتى أذهلته ، تماما كزوجته ، عن كل ما حوله ، رؤية منظر الطريق وسماع حديث السائق ، ومتابعة ما يجرى داخل العربة ..

كانت هناك سيدة اجنبية تصاحبها فى العربة ، ومن ساعة ركوبها وهو يحاول تجنبها ، ومع انه يتقن اللغة الفرنسية الا انه خشى من دخوله فى حديث معها تكتشف فيه اضطرابه ، ثم حكاية ابنه المريض ، والخوف من العدوى ، وفى امكانه الآن ان يرسم صورة لما سوف يحدث : مشادة بينها وبينه ، يتأزم بعدها الموقف ، لا يخفف من ثورتها محاولته لتهدئتها باثارة عاطفة الأمومة فى قلبها ، فهو يعرف هؤلاء الاجانب جيدا ، وتأكد من معرفته لهم بعد تجربته الاخيره فى مرض ابنه ، ولايستبعد منها ان تستغيث وتتوقف السيارة بعد ذلك ويحتج السائق عليه بنفس الحماس الذى يتحدث به عن خبرته الآن ، وربما يطرده هو وزوجته وابنه ويمضى بالسيدة الاجنبية الى قمة المرتفع .

وبدون مقدمات سمعها تقول للسائق:

« امامنا أكثر من ساعة .. سنقطع بقية المسافة فى أكثر من ساعة .. »

لقد تأكد الآن من ان كل شىء سيتم فجاة وبدون مقدمات ، بنفس الطريقة المباغتة التى اهتزت بها العربة . اشتد الحر فى الخارج فجاه مع ان الساعة تعدت الخامسة بعد الظهر تقريبا ، وبدت حقول البقول بزهورها البيضاء الصغيره وقد كستها صفرة خفيفة ، وكروم العنب المتخاذلة على أعراشها من بعيد تدور حول حدود المدينة خلف السياره ، وعندما اخذتها الدوخة نامت عند الافق واصبحت غير محدده ، والرمال تقبل نحوهما بسرعة مخيفة ، وتزحف مع الصخور لتحاصر الطريق وامام السياره كان المبنى الاصفر ، مبنى المستشفى يبدو على قمة المرتفع كشىء تافه لا يستحق الانتباه ، وفى اوقات اخرى يحس بتفاهته ويخجل من ذلك فيتوارى عن الانظار .

وفى الداخل لم يكن هناك تغيير يذكر، فلا الهزة المفاجئة ولا الحر الذى انتشر فى الخارج استطاعا ان يلفتا الانتباه . السائق استأنف السير ، واستانف معه حديثه الذى لا ينتهى عن براعته فى القيادة وشهرته فى حى القصبه بذلك ، ومعرفته التامة بالطريق وكيفية صعود المرتفع حتى قمته .

والسيدة الاجنبية تتظاهر بانها تتأمل الطريق وهى فى الحقيقة تراقب اللفة وتراقب ذهول زوجته عنها ، وبعد قليل ستدرك اضطراب حركاته وتقرا المخاوف فى عينيه . ويتحقق بالفعل ما تخيله من لحظات .

ان المرض هاجم ابنه فجاة ايضاوعلى غير انتظار ، ومن تامله لذلك أصبح يرجح أنه كان يستعد فى الخفاء ، ويضع الخطط ويرتب النتائج : فى اليوم الاول من ايام الاصابة امتنع الطفل كلية عن تناول الطعام ، وعندما حاول أن يتحدى المرض تقيأ كل ما تناوله ، وامس بدات حرارته ترتفع واعراض المرض تظهر عليه بشكل واضح ، فترات يتعرض فيها لرعشة قوية تصطك معها أسنانه ، تنتهى لتعود من جديد . وفكر فى ان يحمل ابنه الى أقرب طبيب ، طبيب أجنبى اشتهر بعدائه للوطنيين ، ونفوره من منظرهم ، ومع ذلك لماذا لا يجرب صدق هذه الشائعة او كذبها ، لماذا يتردد فى طرق اى باب وهو فى هذه الأزمة ؟

نصحه اصدقاؤه باختصار الوقت وتجنب الاحراج ، والذهاب فورا الى المستشفى الحكومى المنعزلة خارج المدينة ، لكنه كابر وأصر على أن يتوجه بطفله الى الطبيب الاجنبى مساء امس ، كانت زوجته وصلت الى حالة الذهول التام عن كل ما حولها ، والطفل هدا اخيرا وارتخت اعضاؤه كانما ادرك عبث التحدى ومقاومة المرض ، وبدا واضحا انه دخل فى مرحلة الخطر . ولهفة الأب كثيرا ما تخرجه عن جادة الصواب وتدفعه الى ارتكاب الحماقات . ومهما كان مخطئا فى تقدير الموقف ، ومتعديا لحدوده ، فهو لايستحق الطرد من العيادة مع ابنه المريض .

بدا له الأمر فظيعا ومؤلما فى البداية ، لكنه استسلم للامر الواقع وعاد فى هدوء الى بيته ، نادما على مكابرته .

وفى صباح هذا اليوم فكر فى تنفيذ نصيحة أصدقائه ، بعد مضى الوقت وتطور حالة الطفل من سيء الى اسوأ ، لم يجد فى نفسه القدرة على مواجهة الموقف ، كاديسقط وهويركب السيارة، ولم يلحظ السيدة الاجنبية وهى تركب مع زوجته ، لم يتنبه اليها الا هو ينظر عفوا الى اللفة ، ثم تطورت الأمور بسرعة بعد ذلك ، ولم يعد فى وسعه ان يكتم المه بعد الآن ، وقوة احتماله مهما كانت كبيرة الا انها محدودة ، وفى نطاق الانسان العادى قد تكون مثل هذه التجربة سهلة ، عندما تصادفه مشكلة، تؤرقه وتضنى تفكيره . لكن الحال يختلف اذا مرت نفس التجربة بأب ، فى مثل ظروفه . صوت القيء المنطلق من جوف الصغير يهدم أعصابه ، الارتفاع فى درجة الحرارة يضاعف من حرارته ، الرعشة التى تسرى فى جسم الصغير تنتقل اليه وتهز كيانه . وأمام هذا كله لم يجد بدا من الرضوخ لفكرة اصدقائه وضرورة تنفيذها فى الحال . بعد دقائق كانت السيارة الاجرة تنطلق بهم ، ومعهم هذه السيدة الاجنبية خارج مدينه الجزائر

وسمعها تتحدث للمرة الثانية مع السائق :

« أعتقد اننا سنقطع بقية المسافة فى أقل من ساعه .. أعتقد اننا لن نتأخر .. لا أحد يعرف وجهتها ولا السبب الذى يدفعها الى ان تقصد هذا المكان ، فى مثل هذه الظروف وتتحمل المشاق التى هى فى غنى عنها ، ومع أن فى امكانه التفاهم معها بلغتها الا أنه لم يفكر فى تحيتها أو مجرد الرد عليها أن هى بدأت بالتحية . أما الدخول فى حديث معها فهو فى نظره سذاجة لا حد لها ، ان تجربة الطبيب الاجنبى ليست بعيدة ولا يوجد ما يمنع من تكرارها . ان اختلفت صورتها عن الاولى فالنتيجة واحدة ومعروفة .

ألقى نظرة سريعة على وجهها ، فاكتشف انصرافها الى تأمل اللفة ، والاغطية الثقيلة التى تحيط بها . كانت حرارة الجو قد تسللت الى داخل العربة، وحولت اللفة الى جحيم لايطاق ، وفى المرة الثانية راى فى عينيها قلقا خفيا ، اتضح مع طول التأمل ، وتكشف له عن نتيجة غريبة ، انه نفس القلق الذى يحس به ، وان كان لا يعرف مصدر قلقها ولا يستطيع التكهن به الآن .

هل يمكن أن تكون قلقه على طفله من الاغطية الثقيلة والجو الخانق الذى يملأ العربة ؟ والا فما سرهذا الاهتمام الكبير منها بتأمل اللفة ؟ وهل من المعقول أن تكون عندها عاطفة الامومة مثل زوجته ؟ تسهر مع طفلها المريض وتتحدى المرض ثم تصاب فى النهاية بذهول .

وفى الخارج كانت حقول البقول واعراش العنب قد اختفت تماما ولكن الصخور كانت قد ابتعدت عن طريق السيارة ومن الناحية الأخرى ، ناحية السيدة الاجنبية ، كان البحر يبدو فى فترات متقطعة ، وتهب نسمات خفيفة

ترطب من جو السيارة ، وسمعها للمرة الثالثة تقول للسائق بالفرنسية :

ـ انا شخصيا لا يهمنى التأخير ولكن يجب ان تسرع .. هناك ظروف تقتضى ان تسرع ..

وكان في امكان الناظر المدقق ان يرى بوضوح منظر القمة ، والمبنى الاصفر فوقها ، وان يقيس مدى الارتفاع الذى يلوح له من بعيد ، وان كان يستهين به قطعا . وفى نفس الوقت يثير فى نفسه التساؤل عن سر موقع المستشفى فى هذا المكان وفوق هذا الموقع المرتفع بالذات ، هل هى العزلة المطلوبة للمرضى حتى لا تنتقل العدوى أم هو الجو الصحى الملائم فى الاماكن المرتفعة ، وكان يقدح ذهنه ويحاول تركيز أفكاره فيما يقوله لهم عندما يصل الى هناك ، وكيف يقنعهم بضرورة السرعة فى مثل هذه الامور .

وعند ما جاءت الهزة الثانية لم يطبق على صدرة خوف المفاجأة الاولى تكاد يتأثر كثيرا بصوت العربة وهى تكاد تتفكك ، وتنفصل أجزاؤها عن بعضها ، امامه من الآن مطبات كثيرة ، لا اول لها ولا آخر ، وفى كل مطب منها تحدث الهزة ، وتتردى العربة فى جوفها كالصيد الضخم ، عندما يسقط فى حفرة اعدت له ، وفى كل هزة من الهزات القادمة لابد ان يتحمل مزيدا من المتاعب النفسية حقيقة ان وقع المفاجأة قد انتهى وراح مع الهزة الاولى والاعتياد على الصدمات يخفف من وقعها ، والمتاعب المتوالية تخلق فى النفس نوعا من الاستسلام ، جعله يتقبلها بهدوء ، ولكن احساسه بالقلق يتزايد باستمرار ، ان الصغير يحارب المرض الآن يقاومه فى براءة وسذاجة لا تتفق مع قوة المهاجم ونذالته وليس فى صالحه أن يتعرض لمثل هذه الهزات .

اما السيدة الاجنبية فقد بدا على وجهها انزعاج حقيقى وهى ترى اللفة تهتز بين يدى زوجته وينكشف أمامها وجه الطفل ، ينطق بخطورة حالته ، والسائق استأنف السير بنشاط اكثر من ذى قبل ، كأنما يريد أن يبعد الاذهان عن المطب الذى تردت العربة فيه منذ قليل ، وحديثه الممل عاد أيضا بنفس التدفق والاستمرار ، كله يدور عن خبرته بالطريق ودرايته بكل شبر فيه ، انه يعرف متى يستقيم ومتى ينحنى ومتى ينحرف ، ويعرف أيضا أن العربه قطعت اكثر من نصف الطريق ، وعليه الآن أن يدور دورة قصيرة ليحاذى المرتفع ، ثم يستأنف السير بجانبه ما يقرب من نصف ساعه وفى نهاية ذلك يكون قد وصل الى القمة ، الى المبنى الاصفر الذى بدأ يتضح الآن بصورة اكبر ويبدو مرتفعا أكثر من ذى قبل ، وتظهر نوافذه والنتوءات المحيطة بها . اما زوجته فقد جلست فى استسلام المتقبل للامر الواقع الذى اجهده طول المقاومة ، لقد تحدت المرض ثلاثة ايام كاملة وصمدت امامه فى عناء ، وتغلبت على صوت القىء وارتفاع درجة الحرارة والزيادة فى الرعشة ولكن ذلك كله لم يمنعها من مجاراة السيدة الاجنبية التى دخلت فى حديث معها .

وفى الخارج كانت الشمس فى طريقها

الى الغروب ، ملأ الخوف قلبها واعتصر ما فيه من نضرة واحمرار ، وخلف وراءه صفرة باهته ، أشعتها المرتعشة هى الأخرى كانت تزحف على الرمال ، انكفأت على وجهها بعد ان كانت منتصبة ، وبعد الغروب تتوارى خلف التلال فى انتظار رحمة الظل ومن خلال هذا الخوف راحت ترسم لكل شىء صورة مبالغ فيها ، أبعد ما تكون عن الحقيقة ، ربما كانت نفس الحالة التى رسم بها صورة السيدة الاجنبية ، ومع النسمات الباردة التى هبت من البحر بدأ الطفل يتحرك وينشط كأنما لم يمرض او يتعرض لمحنة قاسية كادت تودى بحياته ، وبدأت السيدة الاجنبية تعاون زوجته فى دفع الاغطية الثقيلة عنه حتى يستريح تماما وكانت عيناها تتألقان بمعانى الأمومة التى شك منذ قليل فى وجودها ، والطفل تمادى فى حركته ونشاطه . ومن خلال دهشته راح يراقب كل ذلك ، يراقب السيدة الاجنبية ويتذكر مخاوفه منها من ساعة ركوبها السيارة ، ويراقب الصغير الذى استعاد معها حركته العادية ، فى رضاء يشوبه القلق .

وجاءت الهزة الثالثة فجأة أيضا وعلى غير انتظار ، هزة قوية وخطيرة فى نفس الوقت لأن العربة بدأت ترتقى المرتفع فعلا وتدور الى الناحية الغربيه فى مواجهة قرص الشمس ولم يكن يتصور أن زوجته الساكنة المتجمدة فى مكانها سوف تصاب بفزع كهذا ، فزع عظيم كأنما تتعرض الهزة للمرة الاولى وليس للمرة الثالثة . اطلقت صرخة توقف بعدها السائق تماما عن الحركة وانقطع عن الحديث وكاد الطفل يسقط من بين يديها . لولا ان تداركته السيدة الاجنبية خوفا عليه من الفزع الذى سيطر على حركات زوجته والصرخة التى انطلقت من فمها .

أما هو فقد احس بأن الهزة انتزعت منه ما بقى من مخاوفه وقلقه وبدا له ان الامور التى تحدث حوله عادية ، وليس فيها أى وجه للغرابة أو الدهشة والسائق استأنف السير هذه المرة بحذر بعد ان سمع الصرخة ، لكنه أقلع عن حديثه المستمر ولزم الصمت . ولم ينطق الا عندما سألته السيدة الاجنبية فأجاب باقتضاب :

ـ ربع ساعه على الاكثر .. سنصل الى القمه بعد ربع ساعه .

ولاح له مبنى المستشفى وقد زال عنه الاصفرار تقريبا وتشرب بلون رمادى ، لاح أكبر من ذى قبل ووضحت شقوق بسيطه فى جدرانه تساقط عنها الطلاء ، وعندما بدأ يفكر فى كلام السائق هتف على الفور :

ـ القمة ٠٠ القمة ٠٠ لقد وصلنا اليها وانتهينا من ذلك .

التبغ المحترق

قصة عراقية

بقلم : علي الأسعد

السحب الزرقاء تتعانق بين أجفان غرفته ، فتتشبع برائحة التبغ المحروق .. والأفكار تتراكم فى رأسه دون أن فهو دائم التحليق فى اللا واقع ، باحثا يمسك بالخيط الأول منها .. تبحر به الى شطآن الغيبوبة المتسربلة بالخيال الشفاف ، باعثة فيه النشوة واللذة . فهو دائم التحليق فى اللاواقع ، باحثا عن حياته التى يعيشها فى الأحلام فقط .

أعقاب السجاير تملأ المنفضة البيضاء المزخرفة ... دون أن يحس أو يشعر كم من الوقت قد مر عليه وهو فى مكانه لم يغادره كأنما شد اليه شدا . ان رأسه الملقى على الوسادة ، بدأ يتحرك فى نواح عدة .. أخذ يجيل بصره فى أثاث الغرفة .. الراديو الكبير ينفث موسيقى زنجية صاخبة ولكن دون أن تحرك فيه ذرة واحدة من جسده .. المروحة العجوز تصرخ فى أنين مكتوم .. الكتب والمجلات تتناثر فى أرض الغرفة بلا ترتيب كأنه اعتاد ذلك .

ما هذه الأفكار التى أخذت تغزو تفكيره .. ؟ .. منذ أيام وهو يشعر بشىء جديد يطغى على كيانه دون أن يجد أى تفسير له .. كلما أراد أن يطرح بضعة أسئلة واختلط تفكيره وعاوده الخوف والوجل خشية من أن يكون فى تساؤله مايدعو الى الهزء والسخرية منه .. فهو يذكر جيدا ماحدث له فى أيام بعيدة خلت .. حينما وقف أمام المرآة يطيل التحديق فى وجهه .. انه لايدرى لماذا شعر براحة حينما طالعه وجهه النحيف ، وذقنه العريضة ، وعيناه الواسعتان كبحيرتين عميقتين.. وشعره الكستنائى المجعد .. لم يدر كم طال وقوفه ذاك .. انما الذى يدريه انه سمع أباه يقول له : « ها ابنى .. أشوفك واكف اكبال المراية تباوع لنفسك » .. ولم يقل شيئا . سوى انه ارتبك قليلا واحمر وجهه .. انه لا يزال يشعر كيف كان وجهه يلتهب والدماء الحارة تكاد تشق جلده وتخرج .. ثم استطرد والده: « يابه انت قابل البنية حتى توكف كبال المراية كل هالمدة .. ها .. ها .. ها .. » .

انه يذكر جيدا هـــذه القهقهة التي جعلته ينكمش على نفسه حتى شعر انه يذوب شيئا فشيئا ٠ كأى شيء حقير ٠

وضرب بقبضـــته على السرير بقـوة وقســوة ضربات سريعات متــوالية ٠٠ كانما يحاول بذلك ضرب والده ٠٠ دون أن يدرى ٠

انه يعـــرف الآن كيف كان محـط السخرية الدائمة من قبل والده يثيره دائما سواء كان ذلك أمام اخوته أم أمام الاصدقاء والزوار ٠٠ مما جعله يتمنى الموت كي يخلص من هذا العذاب الذى يربكه ويجعله غير قادر على أن يتنفس حياته .. وبحرية ٠

لقد شعر منذ ذلك أن خير ما يفعله هو أن يبتعد عن الجميع دون أن يجعلهم يعلمون مابه ٠٠ فهجر مجالسهم على كره منه أو مضض ٠٠ انه لصعب حقا ان يهجـر الانسان مرابع طفولته ويحاول نسيانها .. ولكن القوة الخارجية غالبا ماتدفع المرء الى أن يهجر نفسه أيضـا اذا شعر ان ذلك يؤدى به الى الراحة ٠٠ ولكن أين هى الراحة التى نشدها ، فلم يحصد سوى القلق والتيه فى هذا الفراغ الهائل ٠٠ ان الالوان فقدت تأثيرها عليه ٠٠ حتى الفتيات أصبحن مجرد خيال يمر عليه دون أن يتمتع به ٠

وها هو الآن ، بعد مضى أربع سنين، لايزال يعانى الضياع ٠٠ مأساة وجوده التى خلقت معـــه دون أن يكون بيده شيء ٠

ترى مانهاية الحياة ٠٠ ؟ ٠٠ وماذا وراءها ؟.. هـــل صحيح مايقـــال ان المـــوت ماهو الا طريق لحيـــاة جديدة تعود فينا ٠٠ ؟

آه ٠٠ ان الآلام تـــكاد تحرقنى ٠٠ تجعلنى شيئا تافها فى خضـم هـــذا الوجود ٠

سكت محدثى ٠ ثم حدق فى وجهى من خلال السحب الزرقاء التى تخرج من فمه حتى اخذت تملأ الغرفة من جديد ٠٠ فيها رائحة التبغ المحترق ٠





القصة حول العالم

بقلم : على شلش

الضحكة الأخيرة ٠٠ فى غرب افريقيا

ميرسركوك مثقف أمريكى زنجى يعمل أستاذا بجامعة هووارد ٠ وقد تخصص فى آداب وفنون منطقة غرب افريقيا والبحر الكاريبى ٠. ونال عدة درجات علمية من باريس وهاييتى وأمريكا ، وألف مجموعة من الدراسات القيمة حول آداب هاييتى وغرب افريقيا ٠٠ منها هذه الدراسة التى نعرض لها بعد قليل ، وتتناول موضوع القصة وفنونها وسماتها فى غرب القارة ٠٠ كما انه يشغل منصب رئيس المجلس التنفيذى للجمعية الأمريكيةللثقافةالافريقية٠٠وهى جمعية أسسها الزنوج الأمريكيون الذين شهدوا أول مؤتمر عقد بباريس للكتاب والفنانين الزنوج عام ١٩٥٧ ٠

لكن أية قصة يقصدها كوك بدراسته هذه التى جعل عنوانها «الضحكة الأخيرة» ؟ وما ميدان هذه الدراسة وما أداتها ؟؟

من المعروف أن الآداب الافريقية التى نشأت مكتوبة فى هذا القرن فيما وراء الصحراء الكبرى ارتبطت ـ نتيجة للسيطرة الاستعمارية ـ بثلاث لغات أوربية هى : الانجليزية والفرنسية والبرتغالية ٠

وقد استأثر كل منها بمنطقة نفوذ عبر هذه الرقعة الشاسعة التى تمتد فى أعقاب الصحراء حتى شواطىء المحيط فى أقصى الجنوب ٠ فتركزت الانجليزية فى الشرق والجنوب وبضع بقاع فى الغرب ، وسيطرت الفرنسية على الغرب وجزء من الوسط وأجزاء أخرى فى الشرق ٠ أما البرتغالية فتسللت الى عدة بقاع فى أقصى الشرق وأقصى الغرب معا ٠ ومع هذا فثم ارتباط شرطى بين كل من هـذه اللغـات الثلاث وواحدة من الجهات الأصلية الأربع ٠ فاذا جاء ذكر الجنوب على سبيل المثال يتلوه ذكر الانجليزية ٠ أما اذا جاء ذكر الغرب فان ذكر الفرنسية سرعان ما يقفز الى الأذهان ٠ ومن ثم يكون الحديث عن القصة فى الغرب حديثا أساسه اللغة الفرنسية التى سيطرت على السنغال والكاميرون ، وغينيا ومالى وغيرها من أقطار الغرب ٠ وليس من الغرابة اذن أن تقتصر دراسة كوك على الغرب المتحدث بالفرنسية باعتباره موضوع تخصصه فى الوقت نفسه ٠

ونعود الى دراسة كوك فنجده يستهلها بقوله ان القاص الفرنسى « برناردان دى سان بيير » (١٧٣٧ ـ ١٨١٤) صاحب قصة بول وفرجينى المعروفة انتقد فى كتابه « رحلة الى جزيرة فرنسا » فلاسفة عصر الاستنارة وأخذ عليهم تندرهم بمسألة خطيرة كالرق الزنجى · ولعله كان يشير الى بعض التعليقات الساخرة التى جاءت فى « روح القانون » لمونتسكيو مثل : « من المستحيل الاعتقاد بأن الله ـ بحكمته ـ وضع روحا خيرة فى جسد خالص السواد » ! ·· او فى « رسائل من امابيد » لفولتير مثل وصف البطل لافريقيا بقوله : « يا له من طقس جميل تتمتع به هذه السواحل الجنوبية ·· لكن ما أقبح السكان ! ·· يا لهم من وحوش ! ·· ان الطبيعة كلما أحسنت الينا أسأنا اليها · فليس ثمة أحد من هؤلاء الناس يدرك معنى الفن · وثمة سؤال يشيع بينهم ·· هو : « هل انحدروا من القردة ، أم ان القردة انحدرت منهم ؟ ! »

ومثل هذه النظرات الساخرة المتناقضة مع أفكار رسل الثورة الفرنسية ودعاة الانسانية انما تدلل على عدم التوازن الفكرى واضطراب وحدة النظر الى الأمور ، على عكس ما دعا اليه آخرون من امثال لافاييت وهيجو ولامارتين وشولشر ممن خلقوا اتجاها انسانيا فى الأدب الفرنسى ·

بل ان السخرية لا تلبث مرة أخرى أن تظهر فى القرن الماضى على أيدى كتاب وقصصيين نادوا بالانسان ودعوا الى تعاونه وحبه لأخيه الانسان · ويكفى أن نضرب المثل بثلاثة من اشهر كتاب القصة فى ذلك القرن وهم بروسبير ميريميه وبلزاك وموباسان · فرغم أن ميريميه استنكر تجارة الرقيق فى قصة « تامانجو » الا انه استخف بتامانجو نفسه فى القصة ، وسخر من جهله ، واظهره ولوعا بالغش والخمر·· وبالمثل نجد بلزاك الذى عرف الزنوج بأنهم « أطفال بالغون » فيما كان ينطق به لسان فوتيران بطل روايته المعروفة « الأب جوريو » . أما موباسان فقد صور الافريقى لصا من اكلة لحوم البشر · وقس على ذلك ما فعله الكثيرون من أدباء فرنسا وقصاصيها ، وبصفة خاصة البعض منهم ممن انحدروا من أصول افريقية مثل اسكندر ديماس الأب الذى زار افريقيا وكتب عن هيرودوت والحيوانات الخرافية وغموض القارة السوداء ، وكل شىء خلا الحقيقة التى توضح أن بعض أجداده جاءوا من هناك ·· ففى روايته الوحيدة التى وضعها عن افريقيا بعنوان « جورج » نجد أن عشرة آلاف افريقى من العبيد ينسون كل شىء عن ثورتهم من أجل الحرية حين تقع أعينهم على براميل خمر فى الطريق · كما ذكر ان طموح الافريقى الزنجى لا يكاد يتعدى رغبته فى اقتناء مظلة ! ·· بل انه كان كلما تعرض فى رواياته الأخرى للزنوج ذكر الأكليشيهات المعتادة التى طفحت بها كتابات الأوربيين عن الافريقيين مثل : الكسل ، اللصوصية ، حب الخمر ، التهريج ، وكلها صفات الصقها مفكرو الاستعمار ودعاته بأبناء القارة فيما وراء الصحراء ·

وينتقل كوك الى مناقشة تاريخ القصص الافريقى المكتوب بالفرنسية فى غرب القارة ، فيذكر ان بواكيرها ظهرت فى فرنسا على يد رينيه ماران ، أحد أبناء غيانا

الفرنسية ، الذى نشر عام ١٩٢١ رواية بعنوان « باتوالا » حاول فيها أن ينتصر لأبناء قارته ، وأن يظهر فيهم انسانية لا تقل عما يدعيه لأنفسهم المستعمرون البيض · ويعد ماران رائد كتاب القصة الافريقيين فى غرب القارة · وقد قال عنه ليوبولد سنغور شاعر السنغال ورئيس جمهوريتها الحالى :

« لم يتحرر كتاب جزر الهند الغربية من محاكاة العاصمة الفرنسية ومن الخوف من زنجيتهم الا عن طريق رينيه ماران » ·

ومن التعبيرات الساخرة التى اشتهر بها ماران ما جاء على لسان بطل قصة « دجوما » فى قوله يصف سلوك البيض ازاء قومه :

« يزعم البيض أن الزنوج يشبهون القردة ، ومع ذلك فهم يدعون القردة فى سلام » وفى الفترة من ١٩٣١ الى ١٩٥٢ ظهر عدد كبير من القصص والروايات التى اهتمت بتصوير الحياة فى الريف والمدن الصغيرة ، وشقاء الانسان الافريقى ، ونضاله من أجل التحرر ، وكان ذلك بتأثير « باتولا » ونجاح صاحبها من ناحية ، والتأثر بالأدب الفرنسى وأشكاله الفنية من ناحية أخرى ، وذلك دون فقدان الصلة بالبيئة الأصلية · فقد ألح الكتاب على التراث الشعبى ، ونهلوا منه وأفاضوا فى جمعه وتسجيله والانتفاع بدلالاته · وقلما خلت قصة من الأقوال أو الأمثال الشعبية ، كهذه الطائفة التى نسوقها على سبيل المثال :

- امنح حبك لامرأة ، لكن اياك أن تمنحها ثقتك ·
- المرأة الجميلة تجر وراءها شقاء عظيما ·
- السمكة الصغيرة لا يشغلها الضياع فى معركة بين كلاب البحر ·
- ان الضبع الذى يبقى التهام صغيره يجد فيه طعما كطعم العنزة ·
- قلم الله لا يحتاج الى ممحاة ·
- لا يتحقق المرء من نفع الأرداف حتى يجلس ·
- الأسنان المتآكلة لا تقوى الا على اصابع الموز المهترئة ·
- لو كان العمل شيئا طيبا لتهالك عليه الغنى منذ زمن طويل ·

وهذه الروح الساخرة الفكهة التى تشيع فى الأمثال وغيرها من أنماط التراث الشعبى لانعدم العثور عليها فى سياق القصص ، بل انها تشكل سمة بارزة وخصيصة أساسية لكتابات الافريقيين وابداعاتهم · ففى رواية « حكام الورد » لجاك رومين يقول البطل لأمه فى مرارة مصحوبة بسخرية :

« ان السماء هى مرعى الملائكة ، وهم سعداء — لا يشغلهم التفكير فى طعام أو شراب · فلا شك ان لديهم ملائكة سود يتولون عنهم عبء الأشغال الشاقة ، مثل مسح السحب وتنظيف الشمس عقب هبوب العواصف بينما الملائكة البيض لا يشغلهم شىء سوى أن يغردوا كالبلابل طوال النهار ، أو أن ينفخوا فى النفافير كما فى الصور التى نراها بالكنيسة ·· » !

لكن كيف نشأت القصة وغيرها من أنماط الأدب المكتوب بالفرنسية في غرب افريقيا ؟ ..

لقد تضافرت عدة عوامل أدت الى تعزيز هذا الأدب المكتوب بالفرنسية : وعلى رأسها :

● نجاح الشعراء الافريقيين الذين غمروا باريس وأوربا باشعارهم القوية الأصيلة عقب الحرب الأولى مثل : ليوبولد سنغور وليون داماس وايميه سيزير وغيرهم من أبناء غرب القارة الذين تلقوا العلم فى العاصمة الفرنسية .

● تأثير الكتاب الأمريكيين الزنوج من أمثال ريتشارد رايت وشستر هايمن ولانجستون هيوز الذين ألحوا على الصلة القديمة المفقودة بين القارة وزنوج أمريكا .

● اشتعال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ وأثرها فى انضاج الوعى القومى بأقطار القارة المغلوبة على أمرها .

● ظهور مجلة ودار نشر « الوجود الافريقى » التى كانت بمثابة حركة ثقافية واسعة النطاق أظهرت للعالم أكثر من خمسين كتابا ودراسة ممتازة للافريقيين الذين يكتبون بالفرنسية وكذلك اخوانهم زنوج أمريكا كما حدث ازاء هذه الدراسة التى نعرض لها .

● اشتداد حركة التحرر الوطنى واعتمادها على أبنائها المثقفين والكتاب .

ونتيجة لكل هذه العوامل السابقة انفسحت الطريق أمام أبناء القارة من الشعراء وكتاب القصة الذين عكفوا على أرضهم ، وصوروا نضال الانسان فيها من أجل التقدم دون تعصب للجنس أو اللون .

ويختتم ميرسركوك دراسته القيمة بقوله ان الافريقى الزنجى الذى عاش هدفا للنكتة والضحك عدة أجيال يثبت اليوم تفوقه على جلاديه الذين تندروا عليه بالأمس وهو لا يثبت ذلك من أجل اثارة الضحك عليهم كما فعلوا هم ولكن من أجل أن يضحك هو مع أخيه ومواطنيه ضحكا صافيا خاليا من الحقد والاحتقار .. !

زوايا وأنباء :

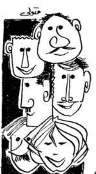
● فى عدد يونيو قصة بعنوان « هزيمة الحب » للأستاذ فؤاد القصاص ، صدرها بمقدمة ذكر فيها انها قصة بلا أسلوب ، وأنه اكتفى بالأحداث تتتابع .. لتحمل فى النهاية مضمون القصة ، ثم ترك الرأى فى تجربته للقراء والنقاد .

وحتى لا يلتبس الأمر على القارىء ، وكذلك حتى تستقيم مصطلحاتنا النقدية ، أكتفى بالاشارة الى أن « هزيمة الحب » بالصورة التى أرادها لها الكاتب ليست قصة قصيرة نتيجة لتزاحم الأحداث وتركيبها ، كما أنها ليست قصة بلا أسلوب . فأسلوبها خاص ومعــروف ، وهو أسـلوب القصة الســينمائية أو مرحلة من مراحل القصة الســينمائية تعــرف باســم « المعالجة » ، أى ملخص المشاهد التى يفصلها

السيناريو باللقطات المتسلسلة المتوالية • ومن المعروف أن القصة السينمائية — أو ملخصها — تعتمد على سرد الأحداث والمواقف سردا مباشرا دون تدخل البيان أو البديع، ويفضل كتابتها بالفعل المضارع بصفة خاصة •

وقد جرت فى السنوات الأخيرة محاولات من هذا القبيل فى فرنسا فيما يعرف باسم الرواية الجديدة التى دعمت حركة الموجة الجديدة فى السينما ، وهى مدرسة تزعم أن بلاغة القصة فى تعريتها من بلاغة اللفظ واللغة ، أى تجريدها من التشبيه والاستعارة والتورية وغير ذلك من صور البيان والبديع ، مع الاكتفاء بتحليل الأحداث والمواقف • لكن هذه المحاولات لا تنطبق على ما فعله الأستاذ القصاص الذى حشد رواية طويلة فى بضع صفحات باسم التجديد ، وبالتالى فان « هزيمة الحب » ليست أكثر من ملخص أو معالجة لقصة سينمائية يمكن تفصيل السيناريو على أساسها ، على أن يتفق أولا على صلاحيتها للانتاج والتصوير !

● أخى بيل •• كتاب جديد أصدرته دار جولانسز الانجليزية ، ألفه جون فوكنر شقيق الروائى الأمريكى الراحل وليام فوكنر • وفيه يحكى جون عن الصبا والشباب فى حياة شقيقه التى قضاها كلها تقريبا فى الريف ، دون أن يغادره الا فى المناسبات القليلة مثل الاتصال بصحيفة أو بشركة سينمائية أو لتسلم جائزة أدبية كما حدث حين سافر الى السويد لنيل جائزة نوبل قبيل وفاته •



بين القصة والقراء

يقدمه : ثروت أباظة

أبدأ هذا الشهر بتقديم نماذج مما أعجبت **بها** بين بريد **القراء** ·
وهو قصة الصخر بقلم **سيد سعيد · وقد** وفق الكاتب **فى عرض قصته باسلوب قصصى جميل** مستعينا بالرمز حينا وبالتصريح أحيانا **مما يدل على دراسة واعية لفن القصة** · ولن أطيل فى تقديم هذه القصة بل انى أتركها **بين يدى القراء ليحكموا هم عليها** ·

الصخر

بقلم : سيد سعيد

كانت طيور النورس الناصعة البياض ··· تزدحم فوق سطح البحر ··· فى جماعات متفرقة ··· مالئة الجو بصيحاتها المتعالية الحادة ·

وبعيدا ·· هناك ·· عند الأفق ·· كانت كتل الدخان المتصاعدة من مداخن السفن تتجمع مكونة ·· سحابات قاتمة السواد ·· أخذت تزحف شيئا فشيئا ·· حتى بدأت تأكل وجه الشمس التى كانت تنحدر بسرعة نحو الأفق ·

ورغم هذا ···

فلا زالت أجزاء كبيرة من الشمس تستطيع أن تخترق صدر السحب ·· وأن تبعثر حزمات غير عادلة من الضوء فوق صفحة المياه ·

وكان اللسان الصخرى الذى يشق بطن البحر من بداية الشاطىء يتوغل داخل البحر الى مسافة بعيدة .. غير أن الناظر اليه من الجو كانه يرى جثة طافية .. حملتها مياه البحر وأوشكت أن تلقى بها عند أقدام الشاطىء .

وعند نهاية اللسان .. فى داخل البحر .. حيث تجمعت كتل من الصــخور المتناهية الضخامة .. والتى لونها نتاج البحر بألوان لا حصر لها وفى غاية الغرابة .

فى هذا الركن النائى .. وكان ثمة انسان قد ترك وجهه وجسده لرشاش المياه الناتج من اصطدام الماء المندفع بالصخور .. وقد راح يتأمل فى عمق لا عهد له به ــ دوامات المياه المتكونة خلف الصــخور فبدا كذلك كانه قطعة ناتئة من الصــخر نفسه ..

أنت مقرف .. وغد .. غبى ... اذهب وابحث لك عن عمل .. الى متى سأظل أوكلك .. ألا تخجل من نفسك .. أليس لديك شعور .

يا أخى .. يا حبيبى .. ربما مات الشعور فى نفسى .. ولكنى تعبت .

تعبت طويلا .. لقد تآكلت قدماى .. رفضنى كل من ذهبت اليه .

انهم يرفضون حتى رؤية وجهى .. آه يا أخى انك لم تجرب شيئا مثل هذا .. ستقول لك أعينهم أشياء كثيرة .

لقد جئتنا مرات كثيرة .. اذهب ولا تعد .. فماذا أستطيع أن أفعل سوى ان أمسح الطرق بقدماى وأكاد أمسحهما بدموعى .

أنت صايع .. كسول .. لا هم لك الا ملء بطنك .

آه يا أخى .. لماذا لا أستطيع أن أقول لك .. يا أخى .. أنت طبعا لا تذكر شيئا...ولكنى كنت أختصر طعامى لتأكل أنت مافيه الكفاية يخيل الى انه لو ارتعدت أمعاؤك يوما من الجوع .. لما قلت ذلك ...

اذا لم تؤكلنى .. أنت .. من يؤكلنى اذاً ؟؟

ثم ماذا أستطيع .. انك ترفض حتى أن تساعدنى .. ان لك منصبا كبيرا .. لا أدرى كيف وصلته بهذه السرعة .. ثم ان لك أصدقاء .. وفى استطاعتك أن ...

انك عار علي .. اياك أن تظهر أمام أصدقائى .. فانا أخجل منك .. أهلا محسن بيه .. من ؟ .. دا الخدام طبعا .

يا أخى .. يا أخى .. أنا خادم .. ماذا تقول ؟!! .. طبعا !! طبعا لقد خدمتك طول عمرى .

لقد كنت أتركك تستذكر دروسك .. وأذهب فأحضر لك الطعام وأصنع لك الشاى .. وأظل أراقبك .. حتى تنام وأنام .. وحلم جميل يهدهد رأسى .

كنت أرى .. فى صفحة وجهك .. صورة سعيد أفندى المدرس صديق صاحب

المحل كنت أرقبه وهو يضع نظارته ذات الأسلاك اللامعة فوق عينيه ... وعصاته تحت ابطه .. فتنتابنى النشـــوة كنت أتمنى .. أنا شـــخصيا لو صرته ولكن كيف .. ؟

أنا الذى لم تعرف يداه سوى المنشار ولم تسمع أذنه سوى دقات الشاكوش.. أبونا نفسه رحمة الله عليه لم يكن يعرف الألف من المدنة ـ عربة الخضـار القديمة هى الشىء الوحيد الذى خلفه لنا وراءه ... لذا لم يكن لى أمل سواك ...

ولكن ها أنت ما شاء الله .. أصبحت أفضل من سعيد أفندى بكثير .. وحينما أراك .. وأنظر فى وجهك اللامع الوسيم .. يغمرنى الفرح ويملأنى الزهو وأقول أنا صنعت هذا ... أقوله لنفسى طبعا .. فاننى لا أجرؤ .. لا أجرؤ حتى أن أعترف أنك أخى .. فاننى أخشى غضبتك ..

أنت لص ... ألا يكفى أن أؤكلك .. حتى تسرق جيوبى أيضا والله .. لولا العار لأدخلتك السجن ...

سامحنى يا أخى .. لقد استحلفتك بالله أن تعطينى عشرة قروش .. عشرة قروش فقط . لن تؤذيك .

لقد سرقت مرة .. صاحب المحل .. كى أشترى لك حذاء .. ولكنه لم يطردنى فقد كان يعلم أنى نصف راس ماله .

فقط أنبنى وزاد فى ارهاقى .

لقد سرقت من معسكرات الجيش الانجليزى ... سرقت لك ساعة كى تكون لك ساعة مثل سائر التلاميذ .

اسمع لماذا لا تذهب الى الجيش ... أنت تعلم يا أخى أننى معفى من الخدمة.. تطوع أنا ... يا بنى لا نستطيع أن نقبلك .. فاتت السن المحددة لذلك .. ثم ان قدميك مفلطحة أيضا ...

هل عدت ثانية .. يا للمصيبة .. لم يقبلوك فى الجيش أيضا .. لماذا لا تختفى من وجهى .. انى أكرهك .

تكرهنى !؟ لماذا !؟ ولكنى أحبك يا أخى .. أحبك .. انى صنعتك ألا تمنحنى فرصة الاستمتاع بما صنعت .. ؟ ثم أين أذهب ؟ .. أنتحر .. كيف ؟ .. أو أنتحر أنا .. لا .. أنت تعرف .. ايه ؟! أنت صايع .. أنت عار .. أنت لص .. الى متى سأظل أؤكلك ألا تستطيع أن تختفى من وجهى .. أنتحر .. أنتحر .. أنتحـر يا لها من فكرة ..

وكان ريحا قوية عربيدة دفعته من خلفه .. قفز مرة واحدة الى البحر ارتطم جسده بالصخور .. ثم انزلق الى هوة المياه فابتلعته .. ثم لم تلبث أن دفعت به فوق السطح .. وتمنى لحظتها كما لم يتمنى من قبل لو أنه استطاع أن يخرج .. سيقول

لأخيه انه لن يكون وغدا بعد الآن·· وانه لن يسرق نقوده وسيبحث عن عمل وسيجده حتما وسيقول لأصدقائه أنه الخادم طبعا ··· سيقول له أيضا أنه يحبه وأنه ····

ولكنه شعر بأن شيئا ما يجذبه من قدميه وتراخت يده القابضة على المياه ·· ثم هوى وعندما ظهرت رأسه مرة أخرى فزعت طيور النورس وصرخت صرخة طير واحد وعندما اختفت رأسه الى الأبد ·· كانت طيور النورس قد استقرت فوق صفحة الماء ساكنة صامتة ·· وسكتت معها الحياة كلها كأنما أصابها الخرس حتى الرياح بدت كأنها تحاول كتم أنفاسها ···

كانت السحب قد تجمعت أكثر ·· فحجبت وجه الشمس فانطفأ على الفور ذلك البريق اللامع الذي يكسو صفحة المياه وتكونت الظلال زرقاء داكنة ·

ولكن سرعان ما تحركت السحابات نحو الجنوب ·· غير أن الشمس كانت قد انزلقت خلف الأفق ·· بعد أن لونت السماء والماء بلون الغسق الأحمر ·· لون الدم·

***

عبد الاله عبد الرازق ـ بغداد :

قصتك ياسيدى قصيرة غاية القصر وهى أيضا غامضة غاية الغموض ، والواقع اننى لم أستطع ان أتبين طريقى فيها · الا أن لك تعبيرات عربية جميلة لو أنها وضعت فى سياق قصة واضحة لأكسبتها جمالا ، ولغتك العربية سليمة الأمر الذى أصبح نادرا فيما يرد الى من قصص ورسائل ·

نواف ابو الهيجاء ـ دمشق :

أسلوبك جميل وثروتك اللغوية وافرة الا أن القصة فى قصتك لم تكتمل أنك قدمت صورة ولكنها مبتورة ، لو أنك تعمقت شخصيتك بعض الشىء لقدمت لنا نموذجا جميلا جديرا بالنشر · أعتقد اننى سأنشر محاولتك القادمة ·

نزار اباظه ـ دمشق :

اننى سعيد أيها الأخ بخطابك وبصورتك ، سعيد كل السعادة بقرابتك ، واننى فى انتظار خطاباتك وقصصك · أما الخطابات فأعدك أن أجيب عليها فى البريد الخاص كأقارب ، وأما القصص فسيجرى عليها ما يجرى على قصص اخواننا الآخرين فتمشى فى طريقها المرسوم دون أن تزج بها القرابة الى التقدير أو النشر ·

رئيسة رزق الضبة ـ غزة :

أسلوبك رقيق ولغتك طيعة سهلة ولكن قصتك ساذجة كل السذاجة ، فأنت لم تقدم الينا علاجا جديدا لمشكلة قديمة ، وانما قدمت المشكلة كما توارثتها الأجيال ، امرأة الأب التى تكره ابن زوجها والأب الذى تقسى زوجته الجديدة قلبه على أبنائه من

روحه القديمة · وقدمت الينا شخصا يبنى الغلام الطريد فى صورة ان أفرتها الحياة فان واقعية القصة لا تقرها ، أعتقد أنك تحتاجين الى مزيد من القراءة فى فن القصة ·

صبرى عطية :

كان يمكن أن تكون قصتك هذه ذات شان لو لم تعالجها بهذه السطحية ، فهى تجربة لم تتعمقها وانما رويتها فى براءة كبراءة الشخصية الرئيسية فيها ·

والحادثة التى حاولت أن تنقذ بها القصة مفتعلة وأؤكد لك أن مئات القصص الساذجة قد ذكرت واقعتك هذه بلا تحريف أو زيادة أو نقصان · اننى لا ألومك على قدم الموضوع وانما آخذ عليك قدم العلاج · ماهو الجديد الذى تقدمه الينا فى قصتك هذه · ومع ذلك فأسلوبك مناسب ، والأخطاء النحوية عندك قليلة ، يخيل الى أنك لو عايشت فكرتك أكثر قليلا مما تفعل لاستطعت أن تقدم الينا فنا ترضى عنه ·

عبد العزيز عايش عبيد :

يا صديقى قصتك مقتبسة عن اى قصة من افلام « الشجيع » ، ولا أخفى عليك اننى أدركت أنك تحلم منذ بدات العصابة فى مناقشة ما هى صانعة بك · ان من يريد ان يكتب عليه ان يقرأ فى القصة أكثر مما يشاهد فى أفلام السينما ، ومسالة الحلم التى لجأت اليها لتتخلص من العقدة التى شددتها حول نفسك قديمة وقد اتجهت القصة اتجاهات أخرى جديدة بعيدة عن هذا الاتجاه كل البعد ·

اسلوبك ضعيف غاية الضعف ، واخطاؤك اللغوية والنحوية اخطاء اولية لايجوز ان يقع فيها من يريد أن يمارس الكتابة لابد أن تقرأ كثيرا قبل أن تبدأ فى الكتابة ·

عبد البديع عبد الله :

الواقع أننى أعجبت بقصتك غاية الاعجاب ، فهى مليئة بالحياة والعمق والمشاعر وقد ألقيت نظرتك فشملت الشارع جميعه بأفكاره وعقائده ثم ألقيت بنظرتك الى العلم الجديد متمثلا فى شخصية المهندس فحركتها فى طريق واضح يرسمه لها العلم والعقلية الواعية · اننى أنتظر لك مستقبلا فى عالم القصة ، وانما ينقصك شىء هام · أنت لاتهتم بالأسلوب مطلقا فلو انك انعمت النظر فى اسلوبك كما تنعم النظر فى فنية القصة عندك لأنتجت لنا شيئا جديرا بكل تقدير · ترى أتستطيع أن تكتب لنا هذه القصة مرة أخرى فى أسلوب أكثر رصانة وأرجو أن تجعل أحدا غيرك ينقلها لك فخطك — مع الأسف — لا يكاد يقرأ ·

صلاح الدين وهبة :

قصتك جيدة فعلا ، ولكن أخطاءك اللغوية والنحوية كثيرة بعض الشىء ، الفكرة فى قصتك هى التسامح ، وقد عرضتها عرضا أعجبت به ولكن ما رأيك فى المضمون · هل ترضى لمن تحب من البنات أن يقران قصتك هذه · هل الخطيئة شىء هين الى هذا الحد الذى صورته · تقول انها تابت ولكنك أقمت الدليل واهيا على توبتها ·

ألا ترى أن الكاتب مسؤول عن مضمون قصته وما تفعله فى نفوس قرائه ٠ ٠ أعتقد أننى سأنشر قصتك القادمة ولا تنس أن تهتم باللغة فيها وأن تتعرف الالفاظ معرفة تامة قبل أن تستعملها كما أرجو أن تهتم بالنحو فانت تخطىء فيه فى بعض الأحيان ٠

السيد محمد سعد :

الهمسات التى أرسلتها الينا ياسيدى خواطر وليست قصة مكتملة ، فان كان لى أن أبدى رأيا فأسلوبك جميل ثم أنا بعد ذلك لا أستطيع أن أقول شيئا حتى أرى قصة لك ٠ أما الخواطر المتناثرة فلا تشكل قصة ، وأرجو ألا تقول انها منولوج داخلى فالمنولوج الداخلى لابد أن يرتبط بقصة ٠

احمد سلامة محمد :

أمرك عجيب ٠٠ أسلوبك جميل ولكنك مع ذلك تستعمل بعض الالفاظ فى غير موضعها ، كاستعمالك ريثما مكان حينما ، انك اذا اهتممت بلغتك لأصبحت ذا أسلوب نقى جميل ٠٠ ولماذا تخطىء فى النحو أيها الصديق ٠٠ ان من له أسلوبك لابد أن يكون قد قرأ كثيرا ٠٠ ماذا عليك لو قرأت بعض الشىء فى النحو ايضا ، أما القصة فهى لا بأس بها الا أنها ساذجة ولكننى أعتقد أنك ستكتب خيرا منها وانى فى انتظار انتاجك القادم ٠

محمد الراوى صالح :

أعجبت بقصتك غاية الاعجاب فقد عرضتها فى براعة وعمق ، والانسانية فيها تتمازج مع الوطنية فى شفافية ودون خطابة بل فى فنية بارعة ٠ كما أنك عبرت عن نفسية الأعرج بالأحداث واستعنت بالمنولوج الداخلى فى غير افراط ولا الحاح ، وقد وفقت فى النهاية غاية التوفيق ٠٠ لماذا تخطىء فى النحو ، ارجو أن تهتم بلغتك ٠٠ سأنشر قصتك فى العدد القادم ان شاء الله ٠

الى من يعنيهم الأمر :

يحاول البعض بطرق شتى أن يخرجوا قلمى هذا عما تعوده من العفة ، واننى أبشرهم انهم لن ينجحوا فيما يسعون اليه ، فان أهون الأدب وأحقره هو أدب الأقذاع ولا يحسبن الذين يحاولون هذه المحاولة انها جديدة على ، ولكننى تعودت ألا أجيب ولن أميل عن هذه العادة ٠

وانى انتهز الفرصة أيضا بالنسبة الى بعض الخطابات التى تصل الى وقد اخذ الغضب بأصحابها مأخذه لأننى لم أجب على خطاباتهم جميعا ، وأخرجهم هذا الغضب عن الحدود التى يجب الا يخرجوا عليها ٠٠ اننى أكتفى أيضا معهم بالا أجيبهم ، انه صراع بيّن الأدب وغيره ولن ينجح غيره معى ٠